وجع الصدر

ومن وراء الصدر ام جعفر

تأليف

الكاتبة أمل البقشي

بسم الله الرحمن الرحيم

وجع الصدر

حقوق الطبع محفوظة للناشر

اسم الكتاب : ـــــــــــــ وجع الصدر ومن وراء الصدر ام جعفر

المؤلف : ـــــــــــــ أمل البقشي

الناشر : ـــــــــــــ اجتهاد

عدد النسخ : ـــــــــــــ ٥٠٠٠ نسخه

الطبعة : ـــــــــــــ الأولى ١٣٨٦ش - ١٤٢٧هـ

القطع : ـــــــــــــ وزيري

المطبعة : ـــــــــــــ قلم

شابك : ـــــــــــــ ٦ - ١٨ - ٢٩٤١ - ٩٦٤ - ٩٧٨

وجع الصدر قدس سره

ومن وراء الصدر أم جعفر

الكاتبة

الأمل البقشي

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين
هذه بعض الخواطر والاحاديث التي دارت بيني
وبين حاجة ام محمد رضا عند زيارتها لي
وقد استأذنت فيما بعد ان تسجلها وتدونها في
كتيب وقد قبلت على ذلك بعد الحاحها المتواصل
علي وتأكيدها لي ان في نشر هذه الخواطر و
الذكريات ربما منفعة وموعظة وتسليط الضوء
على بعض الجوانب من حياتي وعن بيت وعائلة
السيد الشهيد الصدر ام جعفر
فاطمة الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

هذه بعض الخواطر والأحاديث التي دارت بيني وبين حاجة أم محمد رضا عند زيارتها لي وقد استأذنت فيما بعد أن تسجلها وتدونها في كتيب وقد قبلت على ذلك بعد إلحاحها المتواصل عليّ وتأكيدها لي إن في نشر هذه الخواطر والذكريات ربما منفعة وموعظة وتسليط الضوء على بعض الجوانب من حياتي وعن بيت وعائلة السيد الشهيد الصدر.

أم جعفر

فاطمة الصدر

الإهداء

قولُ المعبود

﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[1]

(١) سوره ق: ٣٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

لم تجر العادة أن تهدى العذابات والآلام... فهذه الصفحات هي صرخة.. هي صفعة تلهب وجنات المعتدين.. شنآن عار لكل المطبلين والمزمرين. هاكموها قربانا على مذابح القهر والتنكيل. هاكموها رسالة مفتوحة لتقرأ مأساة دُوّنت في اللّوح المحفوظ... مأساة هي رشقة من رشقات سياسات المستكبرين، شذّاذ أفاق ناهبين.

بشنيع فعالهم غدت الشعوب رُذُماً مرزوءة هزيلة طحنتها رحى الحروب المفتعلة «وقد أتى عليهم ذو[1] أتى»... أُمة لم يبق من كرومها إلا الحطب بعد نهب المنطقة ثرواتها ومن الشعوب فضائلها وسلبها هويتها وتضييع طريقها، لتمشي دربها مكربلة[2] في أوحالها، تكسلها المكاسل وتضيق مقالدها، لتهطل سنين مجدبة فتغرق في قهر متكادس وتسير سيراً قسياً[3].

هنا أطلت هذه السياسة متسللة لتضرم ضرامتها فينا برأي

---

(١) الذي

(٢) كأنها تمشي في طين.

(٣) شديداً.

ضاحك[١] وتصور دقيق وخطة مدروسة، مالئة كأسها حتى الدفق، ملوِّحة براية الحرية، فخٌ البسطاء، ولعنة صُبَّت فوق الرؤوس طامسة تراثاً عريقاً وأصالة تفتقرها. ألا بمجيئهم جاءت الصاخة بسكراتها لتميز الإنسان من الإنسان، وتختلق الفِرَق وتمنح المسميات، فنصبح رجعيين وتقدميين أو وجوديين وعبثيين وليبراليين وظلاميين أو لامنتمين ثم لنصبح منتحلين لهذه الأراجيف. وذوي مشارب في ذلك شتى. من تحت هذا الحرور تنبت العافية ليحين موسم القِطاف فيولد الصدر شهيداً.

❊ ❊ ❊

---

(١) واضح جلي.

كلمات للقارئ

قارئي العزيز:

بين يديك خواطر واستيحاءات من فصول مأساة بل ملحمة اسمها **«وجع الصدر»**.. لا أقول إنها إلياذة لكنها آهات ومواجع تحسستها في مفاصل وأطراف تلك العائلة الشهيدة.

قصة هذا الكتاب:

في «عش آل محمّد عليهم السلام» ـ قم المقدسة، حيث مهوى أفئدة المؤمنين ومجمع طلاّب الحق والحقيقة تعرفت إلى نساء كثر، أتين من كل فج عميق.. سواء بالمخالطة أو السّماع أو الاجتماع، ولشدّ ما أعجبني أن أستمع إلى تجارب كثيرات منهن.. فهن من جهات وبلاد متعددة، ونشأن في بيئات شتى وعشن حيواتٍ مختلفة.. والدروس والعبر في قصصهن ليست عزيزة فتحدثت إليهن، وبادلتهن الإفادة باستفادة، وتشاطرنا الآلام والآمال والأحلام. كل ذلك كان وفق المنوال الطبيعي لأي علاقة اجتماعية سوية.

ولكن عندما ُقدِّر لي أن أجتمع إلى السيدة الجليلة، العلوية «أم جعفر» الصدر، سليلة الزهراء وتلميذة مدرسة زينب، وأستمع إلى

حديثها وأنصت إليها، تروي يوميات حياتها من بدء نشأتها في الصِّبا، وحتى اقترانها بالسيد الشهيد، وماجرى عليها وعلى بيتها من بعد الشهيد، عندئذ وجدت في قصة تلك المرأة وحكاية سيرتها ماضياً مكتنزاً وحضوراً مهيمناً حاضراً، وسجلاً حافلاً بالمعاني والأحداث والأسرار، والألطاف واللطائف والأحزان والمآسي.. وعرفت أن وجودها ـ منذ بداية نشأتها ـ قد اقترن برجال كبار ونساء شامخات، تركوا بصمات آثارهم وتأثيرهم في دنياهم وفي الحياة من وراء رحيلهم ـ كما سيتبين ذلك في طيات الكتاب.

فلكونها نجيبة أعرق البيوتات ـ في الماضي والحاضر ـ ولكونها مثلت رمزاً من الرموز النبيلة للإنسانية المعذبة.. ولكن تلك التي كبرت، وانتصرت على الألم والعذاب، فهي بذلك شكلت حلقة من سلسلة تكاد لا يرى طرفاها من رموز الخير في مواجهة همجية البغي والشر.. وإذ صارت تروي لي فصول حياتها تلك، وجدت نفسي مندفعة للتسجيل والكتابة والرصد والتحليل، وأنا مأخوذة منشدّة لتلك الآفاق السامقة، ورأيت أمامي محتوىً ضخماً وغنياً، جديراً بأن يقدَّم للأجيال.. وثيقةً تؤرخ لشعب مبتلى، وبيت ممتحن من سلالة آل المصطفى ﷺ وتكشف جانبا من حقبة تاريخية مضطربة ومضطرمة من عمر عراقنا المظلوم.

قصة السيدة أم جعفر، رأيتها صورة ناطقة صارخة، تعكس فصلاً من فصول تاريخ غائر في البلاء الذي وُلد مع ولادة هذا المخلوق الممتحن.. الذي أراد لـه خالقه ـ بامتحانه أن يكون أكرم موجود. ورأيت في تلك

القصة ـ الواقع المرير، اختزالاً لكل عذابات الإنسان في عراق صدام وما قبل صدام.

ثم والأهم من ذلك: رأيت في تلك القصة خزيناً من المعاني السامية والقيم الأخلاقية العالية. فذكرتني قصتها ورموز قصتها بصمود وتحدي المؤمنة العظيمة آسية بنت مزاحم، ويقين وصبر أم موسى عليها السلام، وبطهر مريم المقدسة، وجهاد الشهيدة سمية، وشموخ صرخات الزهراء فاطمة، وبطولة زينب العقيلة.

قفزت كل هذه الصور والتجليات على صفحة ذهني، عندما كانت «أم جعفر» تعرض لي صور حكاياتها.. بينما أنا كنت في ذلك أوثق وأكتب كل ما تعرضه من تفاصيل سيرتها، خشية أن تخونني الذاكرة فيما بعد، وقد أحرم وتحرم الأجيال من بعدي من بعض كنوز ذلك الخزين الثر.

فتغلغلت كلمات تلك الرواية الصادقة وما تحمله من أحداث وتفاصيل ومعاني في أعماق وجداني. وعندئذ شرعت في صياغتها قوالب حروفٍ لم يتكلفها اللسان، بل طفق اليراع يترجم ما كان يجيش به «الصدر» للصدر ويضخه القلب للقلب.

وجدتني.. إذ سهرت الليالي وقضيت الأيام تلو الأيام وأنا أكتب تلك الحكاية الملحمة، وأترجم شخوصها ورموزها الحية أبداً... وجدتني أرجع إلى زمانهم، وروحي تهيم في آفاقهم.. سافرت إلى زمان القهر الذي عاشوه، وعانيت آلامهم وعاينت محنتهم، حتى بتُّ واحدة منهم،

وهكذا رأتني السيدة الجليلة أم جعفر عندما كنت أعرض عليها بعض ما كتبت.. قالت لي مرّة، إذ رأت فصلاً من فصول روايتها موثقا مكتوباً: (في الحقيقة كأنك كنت تعيشين معنا بروحك تلك الأيام البائسة، فان بعض التفاصيل التي وقعت حقاً.. لعلي لم أروِها لكِ ولكني أراك لم تغفليها في سردِك، وقد عرضتها وكأنك من عايشها وقاساها).

تلك كانت قصة هذا الكتاب..

وأما العنوان، فلقد ارتأيت أن يكون معبّراً عن أهم جوانب هذه الشخصية الكبيرة. فلئن قيل: إن وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة.. فإن ظاهرة (محمّد باقر الصدر) العظيمة لاشك قد ارتكزت على ركائز أساسية وهامة بداية وبقاءً. ففي البدء كانت تلك الكمالات والمنح الإلهية في شخصيته فضلاً من الله، يختص برحمته من يشاء. ثم كانت المرأة في حياة الشهيد ذات دور أساسي بارز: فالمرأة الصالحة بداية كانت هي المنبت والمنشأ لهذه الظاهرة الصدرية.. فالأم الطاهرة التي أنجبت ونشّأت وتحملت، كانت ركيزة أولى.. ثم المرأة الصالحة: الأخت الشهيدة بنت الهدى، كانت لـه توأم الروح والفكر والجهاد.. وأم جعفر أخيراً.. اختار الشهيد ورضيت أن تكون لـه النديم، والرفيق للطريق، وحكم القدر فقبلتْ أن تكون لـه الشريك في المسير والمصير.. وبذلك كانت هي الشقّ الآخر لاكتمال إنسانيته، ومرسى قرار لـه، نابعاً دفئاً وعطاءاً إذ يُبلّغ رسالته.. وأمينا على سره، وحارساً لبيته، وحافظة لامتداده من بعده. فهي المرأة من وراء عظمته وشموخه.

ومعنى آخر يتضمنه العنوان (ومن وراء الصدر أم جعفر)، لسوف يكتشفه القارئ بعد تجواله مع فصول الكتاب.

ثم توزع مضمون الكتاب ومحتواه على عدة فصول ذات عناوين متعددة فهرستُها في ثلاثة أبواب محورها جميعاً حديث أم جعفر وروايتها من خلال قوالب صياغية أعددتها خدمة للقارئ الكريم. وهيأت لذلك بمدخل أسميته (عتبات).. وهو عبارة عن ثلاث محطات ليست هي بالشعر ولا بالسرد بل هي مزيج منه ومن النثر. تصوراً لسيناريو عن حدث وحديث وقع في زمن ولت ساعاته وانقضت، وبقيت منه الآثار والذكرى.

وأخيراً: يبقى أن أتقدم بالإمتنان والشكر إلى المرأة الصابرة الشاكرة والأم المربية أم جعفر على ما أولتني من الثقة والإحساس بالقرب، وأسرت لي بمكنونات صدرها... وعلى ما منحتني من شرف التصدي لإيصال صوتها وإبلاغ رسالتها رسالة الشهيد إلى كل من يصل إليه هذا الصوت الخالد.

ولن أنسى تلك الثلة المؤمنة من الأخوات الصادقات الفاضلات اللاتي هيأن الجو وجمعنني ببنات الشهيد الصدر ثم بأمهن أمّ جعفر أخيراً لتولد قصة الكتاب. فشكري لله لاينقطع ثم شكري لهن جزيل أن وفّقت لتلك الصحبة النبيلة وهذا الجهد المبارك.

ومن فروض الوفاء أن أقدم شكري وامتناني وخالص العرفان بالجميل لأبي محمد رضا سماحة الشيخ حسين بوخمسين الذي تعهد

هذا الجهد بالتشجيع والرعاية وتقديم المشورة والتدقيق والمشاركة في التبييض والنسخ والإخراج وبتنازلـه مع الأطفال طوال أيام اشتغالي بالكتابة وإعداد هذا الجهد، عن بعض ما كانوا قد تعودوه مني في سائر الأيام الأخرى، وان كنت لم أنصرف تماماً عن أداء مهماتي كربّة بيت وأمّ لأطفال.

وأريد أن أذكر هنا أيضاً أن الأيام التي كنت مشتغلة فيها بإعداد هذا الكتاب.. لم تخل من مكدّرات، فقد أصبت فيها بفقد أم حبيبة إلى قلبي، وفي ظرف غير مريح أبداً، مما ضاعف همي. فبينما كنت أعيش بوجداني محنة الصدر وأم جعفر، تدهمني هذه الأخرى لتضغط على مشاعري وتكاد تأخذ من أيامي تلك سهماً، لولا أني استعنت بالله لأجعل من المحنتين وقوداً مضاعفاً يدفعني ويزيد من همتي لإنجاز ما أراه انتصاراً على بلاء الإنسان وعذاباته.

أرجو من الله القبول والرضا، والحمد لله ربّ العالمين.

ربيع ٢٠٠٥ م ـ ١٤٢٦ هـ

أمل ـ أم محمد رضا

* * *

عتبات

باسمه هو الحبيب

بحر عشقي الأبدي... رواء الروح والبلسم
أنشودة حبّي الدّفاق الذي لاينضب..
مارَفـً فوق عينيك رمش
مَعيني الذي لا أدرك غوره
أبداً لن استمرئ الفراق
لقد تداوم مني العطاش
وجوعي إليك سرمد
تحنن عليّ هداك المليك
أنت لي الوجود لا شريك لك.. تعطف عليّ أيها الشفيق
أرجع لي وجودي
فأنت من خالق الوجود... مرآة جمال
لك إلى الأبد

ملحمة وداع

حوار إفتراضي بين الشهيد الصدر وزوجه الكريمة ام جعفر حين الوداع

ـ الحب علّتي أنا معلول بالحب.

ـ أما ترى قلبي منسدحاً قد أضرَّ به الوجد وأنتَ رخي البال.

ـ ترفقي بي فأمري ليس بيدي.. حاكت الأقدار سعدنا وشقانا.

ـ أتنتزع نفسك وتغتصبها اغتصاباً.

ـ هو التاريخ يعيد نفسه.

ـ أللوجع تاريخ؟

ـ بلى للوجع تاريخ.. بل هو التاريخ.

ـ ماذا تريد بعد أن مال السرج وقل المُعين.. وجفـَّ المَعين.

ـ أما تسمعين الصوت من جانب الوادي.. إنه مجلجل بداخلي.. يدكني.. يجذبني للخلاص.

ـ أولستَ الضمين.. لا تمت ضياعاً.. أتخوف بحضرتك.

ـ إني اصطلي.. تسفعني نيران الجهالات بلوافح سمومها.

هنا تحدّر الدمع على الخدّين معلناً الأسى جاهراً بالمعاناة.

ـ أتطيَّر.. أتشاءم.. هذا العربيد الطغومي[١] لا يفرق بين أخضر ويبس.

ـ بل يفرق.. مثله لا يلفته إلا الأخضر المورق. أما من أغسق ليلهم[٢] فلا شأن لـه بهم.

ـ أنت تعرف هذا الشيطان يا ملاكي.

ـ لا أحد يعرفه مثلي.. فكلما ارتقيت تكشُّف الأسفل وكلما علوت تبيَّن الأذل..

ذهب ضياؤهم فاستوقدوها ناراً.. هم الخاسئون، ستضرب عليهم ذلة ومسكنة من الله وغضب.. وسيجثم خوف وجوع ونقصٌ في الضمير.. سيتربع الموت وهم يشعرون.

ـ إنه الشيطان أخافه عليك.. هذه خطواته تقترب.

ـ رحم الله قلباً تحملين.. ما مِن متشيطن إلا وله رسول.

ـ يا راحم عبرتي خذ بيدي.. لا أتوه. رباه رضني حتى أنال صلواتك واهتدي، هذه ضراعتي.

ـ عليك بالكظم وإنْ شُجيت. سيكون طفاً.. فصلٌ تأخر أربعة عشر قرناً عن المأساة..

ذخره الله لأهل هذا الزمان حتى يشهدوه.

---

(١) الدنئ.

(٢) أظلم ليلهم.

ـ أهو الظلم والعدل.. يلتقيان.

ـ بلى حتى غديا من سنن الأرض وأخلاق الإنسان.

ـ أما تسمع طرقاً؟

ـ أزفت ا لآزفة.. تجملت المقابر لأعراسٍ وشيكة.

ـ خذني معك.

ـ لكِ العيال.. الرحيل وشيك.

ـ لا تعجل علي، سأطرق باب الذكريات.. كأني أرى نفسي عدتُ للطف متلفعة بالقرن العشرين.

احترق الزمان ما عادت لـه قيمة، الآتي والماضي سيان.

ـ الخدر والخمر[1].. إنها ملحمة الإنسان.. يا ملهمتي.

ـ «سيد» أهو قدر الهواشم.

ـ لعله قدري: تهشيم الطاغوت.

ـ أو ينتهي بعدك.

ـ سيبقى ما بقي الجديدان.. إنها قصة لا تعرف النهاية.

ـ نفسي لا تطاوعني أسلمك للجلاد..

فأنت من عليٍّ إرثي.. لا أتخلى عنك ولو ذبحوني.

ـ سيذبحونك صبراً على مدى سنين، أيا ابنة الخير.. تريثي،

سيطول منك النشيج.. تندبين قتلاك وتُودِعين من أحببت التراب.

ـ لا طاقة لي بحياة كهذه.. أما تراني كالسعفة قد سُلّ خوصها.

(١) أي خدرنا وخمرهم

ـ طهُرك «فاطم»، جرّ[1] ذلك وكأن البلاء هو الذي اختار. لقد أبصرتِ معالم الطريق من حين صباك.. فلم تنفري ولم تنكُصي. إنها مسحة الرسول.. يا رسول حب أفعم قلبي..

البوح هنا عبادة

ـ أتغادرني للأبدية لتنعم، وتسلمني لقدري.. إني أعاتب.

ـ رفيقة الدرب.. أغرودة شبابي..يا من تشببتُ بها طوال أيامي..

ما من مفر، للفراق أسير، إنه المصير.

ـ مهلاً.. أضمِّنُك روحي وأعب من روحك واستزيد، فاليوم بوح وغداً نواح.

ـ عديني أيا أُمَّةً في امرأة.. لا توجمي..

يا وجيهة الروح فأنت جناحاي لن تُخذلي.

ساد المكان صمت ملائكة عارجة تتنفل.

ـ لِمَ الصمت فما زلت.. لم أزُل.

ـ أتعزّى بصمتي قبل الغربال يا سليل الرسول.

ـ الرسول؟ إن قُدِّر لكِ صلاة عنده فأبلغيه وجيعتي.

قولي لـه إنه الخنا والختل من جديد.

ـ أواه يا بن فاطمة.. لا تعجل بالرحيل.. حدثني عن صاحبك أهو الحجاج أم يزيد.

ـ يا مسلاي في مسراي: صاحبي مسخ رعديد، خلق في يوم بلا

---

(١) كما نقم طغاة في زمن مضى من الصالحين عندما قالوا: (إنهم أناس يتطهّرون).

لون، خارج عن دائرة الزمان، لكأنما الشيطان هو الضجيع.

ـ أواه يا ابن علي.. أنا أتشبث، يا عمري المهدور أوَلم تؤمن بأنك مقتول.

ـ بلى وقد اطمئن قلبي أنه قاتلي.. فقتلي يروق للئام، ولي من الله الكرامة.

ـ ما لنا والزنيم.. شُتامة قومه وحالوقة[1] السوء، ذاك الأحْوَب[2].

ـ قدرٌ مقدور.. عادتي وعادة آبائي، أن استرجِف الأرض في خروجي لتِحكم السُنن.

هو الحِلس[3] والميثاق.. ألا أُقارّ على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم[4].

ـ وأنت أنت

ـ وأنتِ أنتِ قد اختار الله واصطفى وكفى.. اختارني شهيداً واختارك شاهدة على رذالات الانسان.

ـ رباه مدد.. إني أتوه.. دلني دربي.. رحماك.

ـ هداكِ الرب الطريق.. منذ النشأة.. يا مدللتي.

ـ ما كنتُ أحسب أنّ هذا خبءُ الأيام.. ما أسرعَ لقائي بالويلات.

ترى أهذي النهاية.

ـ صبراً ابنة الكرام.. إنها بدايةُ البداية.. ولسوف تحكين حكاية.

---

(١) المشؤوم على قومه كأنه يحلقهم.

(٢) الآثم.

(٣) العهد والميثاق.

(٤) مضمون كلمة لأمير المؤمنين.

لنجعل لها عنوان.. أميرة الأحزان.

ـ «أم جعفر».. يا أخت موسى.. يا دفقة حب من كوثر أكثر.

ـ أتؤبـنِ

ـ بل أتغنى.. يا أميرتي

ـ تتغنّى بعذاباتي

ـ بل افتتاناً بجَلدكِ.. ببسالتِكِ.. كأنّ سيفَ حيدرة وبأسه، قد انصب في أوردتك.. كأنك هو..

في البنت سرٌ من أبيها.. إنها تراتيل من بيت محمّد.

توّجيني.. أيتها الصدرية.. توُجي صدري بنياشين مجدك..

لي من الحب مقتلي.. ولك ما بقي.. الثكل والقهر والسّلب والخذلان.

ثم يمَّمَ وجهه شطر المخاليق ملهماً بشجاعة لا شوب فيها وكأنه يرتجز:

الحب فيَّ خلّةٌ وليس من خلل ولا إخلال.

الحب عندي دِين وتديّن ودَيْنٌ لِديّان.

الحب صَلاة وصِلات ووصول.

هذا هو الحب في شريعتي وتشريعي.. حباني به المعبود لترويج عبودية.. الحب توحيد واتحاد وعروج.

هكذا أرى الحب وأشيعه.. ليس لـه مواسم عندي..

الحب موسوم بالحب.. الحب للحب.

نزحت إلى الوطن[1].. أوحشني الاغتراب.. تركت المتاع.. رحلت، أورثتكم الالتياع.. وحفنة من الأوجاع تزداد مع العمر.. أما الآتي فهو الضياع. تخليتم عني كمن تخلت عن وليدها قبل التمام،

تركتموني قبل الالتئام، كأنكم فالق حطب بليل.

ولسوف تساقون كالهيم غاب عنها رعاتها، تَرِدون ولن ترووا وتكونوا أذل من السُّقبان[2] بين الحلائب.

ما خلقت لكي أموت.. تخرم أذني واعية الحسين.. أكاد أتنسم

عليل روحه وأشتمُّ أمجاده.. وفي صدري يدوي اسمه وقدسه وبين حناياي تعيش ظلامته.. تشعشع نورانيته باطني فأصفو واستريح.

ما خُلق الموت لي.. أنا لا أعرف إلاّ الحياة عند ربي وارزق عنده رزقاً جنياً.. هكذا المعبود ألهمني..

الموت لأهل الموت.. للميتين.. لا سلطان لـه عليَّ.. في الحياة حياتي..

إن كان مات الحسين فاني أموت.. أنا متعلق بشآبيبه أينما حل وأينما ارتحل.. حيثما وُجد الحسين فأنا موجود.. كائن في وجوده.. وأنهل من بحر جوده.

تعشقته حتى تعشقني وتعطشت لذكره حتى ذكرني ومنحني حسينيته وحسنه وإحسانه.

---

(١) الآخرة.

(٢) ولد الناقة ساعة يولد.

هذا أنا الصدر لا ابتغي إلا أن أكون صدراً.. وإن رضرضت وإن كُسِّرت وإن أولمت.. هو ذا نهجي وذا طريقي ودربي، لا يطفأ ضيائي ولا يخفت بريقي بل يتوهج توهج المواقد ويشتعل اشتعال الجمرات.

أنا رسول الحسين إليكم.. ذخرني لزمانكم حتى أبوح بمكنون ذاته لأهل هذا العالم.. أنا جذبة من نفسه الشهيدة.. أنا المجذوب بإرادة..

أنا حسينكم.. النجف مكاني وما بعد الخذل فالزمان كله زماني..

لا تحدني أرض ولا يهدني ثقل.. فقد تواصلت مع المطلق.

* * *

بين الحراب والمحراب

تصور للمواجهة التي تمت بين الطاغية المخلوع
والسيد الشهيد حين أدخل عليه مكبلا يرسف في الأغلال

ـ هذي حرابي وأنا أرتع في جناني كرب معبود.. أو ليست هذه جداول الرافدين تجري من تحتي.

ـ هنا محرابي وإن في سواعيرك يا طريد الجنان.. يا مربوب العاهات.

بذاك أجاب الشهيد، أما الطاغية فقد نبض نابِضُهُ وهاجت وشيجاته ودوّت أحقاده كنئيج ريحٍ عاصف.

وطفق يزمجر:

ـ أوتجرؤ على تسفيهي.. أيها البطل الموهوم.

ـ بل أزجرك عن أباطيلك.. وأنهاك عن أضاليل ستضطرم بك نيرانها في يوم.. ليس صبحه ببعيد.

ـ أنا المخلد.. وسأفنيك.

ـ لتكن مشيئتك.. فافعل، ها أنا ذا بين يديك وأنت مخلى السِّرب

وفي سرارة من عيشك.. وعرشك ناطق.. أيها الحطوم قد تهدّلت أغصان سخيمتك.

ـ لِمَ تعترض طريقي وعَقَبَةٌ كؤود في دربي..

لِمَ أنت.. ليس غير؟

ـ أنا هابيلك.. هكذا جرت المقادير أيها الكنود.. أما قرأت الإنجيل و زبور داوود و توراة موسى وآيات محمد.. شرائع عالجت ثنائية الخير والشر.

ـ أهذي فلسفتك(١).. كأنك تعيّرني ببداوتي، بعوجتي(٢) واعوجاجي.

لأجرعنك الهداريس ولأرمينك بالتحاسير تصدّع بنيانك..

ـ ننظر وتنظرون.. وسيأتي الله بنيانكم من القواعد وسيخر عليكم السقف من فوقكم وأنتم تنظرون..

لم أنبز أحداً في يوم.. إنما أقارعك بالحقائق.

ـ ملكي وصولجاني، هي الحقيقة التي تدوم..

فواهم أيها المتنبئ المحجوج.

ـ بل متبنٍ خيرات فيها سعدُ إنسانٍ لو أتاها.

ـ أأنت وصي الخير.. أحُصر فيك.

ـ أحمرّ البأس وأحجم الناس وانحصر التكليف بي.. فلي أن أكون خيِّراً لأترجم عن طينتي وليعود للحياة لونها..

---

(١) إشارة إلى السفر الخالد (فلسفتنا).

(٢) إشارة إلى قرية (العوجة) حيث منبت السوء لصدام.

«إن دمي هو الذي سيترجمني»[١].

ـ اعدل عن فكرتك.. أُخلٍ سبيلك

ـ ولِمَ؟ أنت عاديات الأيام وخطوب الدهر لي..

هذه الظّلامة نِحلتي من فاطمة جدتي، هذا من قديمات العهد ومضمرات الزمان.

ـ نحن البعث بعثنا لنحيي أمة.. نبثُّ عروبتنا الحياة.

ـ أنتم العبث.. جئتم تعبثون بمقدرات الإنسان والمكان والزمان وانبعثتم من المعاصي متفاجرين.

ـ نحن القوميون.

ـ أنتم القيامة بأهوالها ولهيبها

ـ نحن الاشتراكية.

ـ أنتم الشرك متشركاً بشباك البغاء.. شعاراتكم بضائع الفجرة

أنتم المعول والمنجل لاجتثاث حضارة، وشياطين شعب وُجدتم لانتزاع العفة والرغيف.

قراصنة أتيتم من ديار راذلة لصنع مفاسد تقضي على آدميين. أنتم الفجور في صياغته الزمنية وهجمة الأبالسة على أرض الله، أنتم الجلاد متربصاً بضحيته..

وصفحات سود تروي السّفاح مجسداً في نظام، مسافحاً بقبائحه وبواغيه، فجعلتم أرض العراق ملصّة للأشقياء.

---

(١) هي كلمة قالها الشهيد بنفسه حينما طُلب منه أن يكتب عن حياته في حياته.

هدرتم الفضيلة ودستم على أيامنا قاصدين.. لستم غافلين. قد نبأنا الله من أخباركم في الأقدمين.

ها أنتم يا قراصنة التاريخ ويا لعنة اللاعنين تسلبون الحياة وتفرون الرقاب غير متفظعين، وكأن الأيام ملكتموها.. وكأنكم الخالدون!.

* * *

الباب الأوّل

كذلكم أم جعفر

مع اميرة الاحزان

في لحظة هي خلسة من الزمن، وسرقة من العمر، شاءت الأقدار أن ألْتَقِيَها وأجالسها وأحادثها، ثم لأدنو منها اقتراباً وتقربا.

فتجلت لي امرأة انجلت وتجلت فيها شمائل فاطمة ÷ وتبلورت وشفّت عن ذات صامدة لا تلين.

في تيك الساعة وبذاك اللقاء بدأت أفهم كيف يصطفي الله من البشر آدميين، كيف يختار ومن يختار.

الآن أتفهم كيف أدرك التاريخ وأعيش التاريخ بل كيف نؤرخ للتاريخ.

«أم جعفر» باب متسع لعروجات كثر، يفتح لك أفاقاً لم تعهدها.

«أم جعفر» اختزلت معاني عدة من راعي الحقيقة، من نبع فياض دائما يجود.

حديث أم جعفر كوخز الإبر في بدن سقيم، كالوشم لا ينمحي ولا يزول..

حديثها حديث من لا يسلى.. ويُعبّر ليعبر..

كانت لحظة أخاذة وكنت المجذوبة فيها.. كنت كعود يبس يتلظى شوقاً للمجامر.. كقطرة ماء ودت التلصص على محيط جارف فتاهت وتلاشت..

تأخذني لبعيد.. لعالم الفضائل.. تعرج بي إلى سموات.. تبعدني عن كثرات، لأرتمي في أبدية الأحدية.. أواجه مصيري المرسوم.. أتحسس السبيل للعشق واغترف من سلسبيل الحب.. أنشد للسلام، وأنثر كلماتي لأبرهن أن الحب هوية.

كأنها الشمس متوهجة تشع فوق ظلمات فتخلق حياة كأنها خيوط النور تطهر إنسانا.. ترفعه إلى عليين.. كأنها أراجيز طفولة يشدو بها الحالمون.. أحاديثها أمنياتٌ عِذاب. بل هي تجليات وَهبتُ إياها في زمن اقرب للضياع.

هذه الكلمات عن وجع الصدر.. عن بنات الصدر[1] ونجيات صدره،.. تلقاها قلبي ليسكنها على الورق معاني.. ها هو القلم يخون لا يطاوعني.. لا يحسن حراكاً.. وأفكاري تغادرني خجلى... لأنه الصدر.

أتحسبونها صيغ مبالغة تهت فيها؟ كيف تكون تيها وهي لا تفتأ تحمل هم الشهيد رافعة مشعل هداية. مهما ترامت مساحات الضلال والظلام.. بنفسي تلك النفس المعجونة بالبر.. تلك الروح المسافرة في صلوات. مُذ كم من الأعوام كان الرحيل.. ومُذ كم من الأعوام تُولد في النفوس وكأنها النسيم بين نار السموم.

---

(١) بنات الصدر: الهموم، و تنطبق بالمناسبة على بنات هذا البيت الهاشمي الموجوع.

عذراً أم جعفر.. ها أنا من جديد أتعثر. لكن لو لذت بالصمت لأنطقني هواك.. وحين لامس الحب شغاف القلب، دفق القلم دفقته جاهشا بجهشاته. حنينا إلى القرطاس، وشوقا إلى دواته.

فدلوت بدلوي أداخل مابين الحروف لتصاغ كلمات..

عزاءً لمن تداعمت عليهم الوجائع.

* * *

آل الصدر.. الجذور والتاريخ

في عهد قديم، كان للفتور والانكسار زمن. ففي عشية يوم قسية قاسية، حين عسكر الليل وادلهمّت ظلمته، دهم الجلواز بأصفاده وقيوده داراً لموسى بن جعفر عليه السلام إمام الرافضة، قارعاً بابها بقوارع دهره. ليفتح باب موصد على الأشواق ليلتاع من فيه ويرتاع من هول المطلع. وتتراخى قلوب مستغرقة في الحب، تبكي تباريح[1] الشوق قبل الرحيل. وتعصف بأحياء مدينة الرسول سيهوج[2] رياح من الآلام. وتزمهر الظلامات جارفة معها صيحة العذاب الهاروني على آل الله...

ليُخفر إمام الحق مصفوداً بقيود الحقد، يقتادونه إلى معاسيف البيد ومعاميها. تاركاً بنيه وأهله ومدينته، ليصل بغداد، ميمما وجهه صوب المطامير، ليقضي فيها ما بقي.

ما أجفاك يا دهر، وقد توثبت بقهر رَبِسٍ[3] عنيد.

غدا بيت ابن جعفر، تضطرم عليه الويلات، تنهشه الصواكم[4]. وقدَّر

(١) تباريح: توهج.

(٢) الريح السيهوج: شديدة الهبوب.

(٣) ربس: كثير.

(٤) الصواكم: الصدمة الشديدة.

لآله الشتات في الأصقاع، لتتناثر مقابرهم في ديار الغربة. فمن بلاد المغرب، إلى هناك حيث النيل يتلوى، ثم إلى أرض فارس: جبالاً وسهولاً وودياناً. وقد ترامت مساكنهم، حتى إقليم آذربايجان، مستخفين، طرائد الخوف والتنكيل.

فأخفى بعضهم نسبه ليلاقي الموت مبهما مجهولاً، وبعضهم تجالى مع أقوامٍ عايشوهم ليحافظ على أصالة نسبه الراسخ وفرعه الذاهب في السماء.

على أثر ذلك امتدت سلاسل الأشراف وذوي السيادة الهاشمية، تجوب وتستوطن أرض الله. فاندمجوا في الناس وغاصوا في أوساطهم، واكتسبوا ألوانا شتى كغيرهم، فتعددت ألوان بشرتهم ولغاتهم ومشاربهم كسائر الناس. فمنهم المهمل المغمور ومنهم المعروف المشهور.

وقد اشتهر بالصلاح والقداسة نفر منهم، بارِّين مبرورين، أولياءَ لله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. من أولئك النفر السيد إبراهيم المرتضى نجل الإمام الكاظم، وليٌ لهِفٌ[1] إلى كمالات أبيه كاللهفان إلى أمه. وقد انفلق من صلبه كثير من السادات الأشراف. وباتوا يعرفون به وينتمون إليه.

ومع طيٍّ الأيام وتعاقب السنين تشققت أفخاذ وفروع، كلها تنتسب إلى السيد المرتضى. حتى أدركنا زماننا هذا لنعاصر فرعاً منهم، هم آل الصدر. فهم أسرة تنحدر من سلالة عريقة طاب منبتها، وعلا في السماء

---

(١) اللّهف: هو الذي يحنّ إلى الشيء. وهنا هو تعبير عن سعيه للتخلق بسجايا أبيه عليه السلام.

فرعها، وكَرُم محتَدِها.. ضاربة في عمق التاريخ.

تتصل برسول الهدى ﷺ لحمتهم، كابراً عن كابر، كان الكثير منهم إما عالماً أو عابداً.

من هذا الحسب الرحيق الخالص، وفي هذا البيت المكلّل بالشرف، ومن نسب متوّج بالسمو ولدت قصّة امرأة.. وهي لا تزال شاهدة في هذه الحياة، إنّها «أم جعفر».

تأتي الحكاية بلسانها سرداً موجعاً لمن استنبث، وسعى في البحث عن حياة هذه العائلة الشهيدة وعما جرى عليها من ويلات. فتروى هي بلسانها فصول حياتها، وتحكى عذاباتها التي دامت ثلاثة عقود مكممة خرساء من الزمان. فلم يقدَّر لأحد أن يسمع عنها.. ولم يتسنَّ أن ينشر عنها خبر في ذلك الزمن الأخرس والأصم.. فروت لنا بنفسها هول ما تحملته تلك الذات الفذة في هجير من الأيام.

عن الأجداد والجذور، تحكي العلوية «أم جعفر» أن البداية القريبة لنسب العائلة تبدأ من الجدّ الثالث: **السيد صالح** الذي كان أحد الأحفاد المباركين من النسل الطاهر للسيد إبراهيم المرتضى، ابن الإمام الكاظم عليه السلام.

كان السيد صالح من أعلام عصره، ومرجعاً للإمامية في عهده، في بلاد الشام. ولد في سنة ١١٢٢ هـ في منطقة جبل عامل، حيث كان يقطن. وقد ترك تلك المنطقة الصامدة، بسبب ظلم وقساوة الحاكم الظالم، المنصَّب هناك من قبل العثمانيين آنذاك: أحمد الجزّار، وقد

سمِّي بالجزار لدمويته، وكثرة النفوس التي أزهقت بريئة بين يديه. ولقد كان من ضمن ضحاياه ابنٌ لنفس السيد صالح، وهو ابنه الشهيد «هبة الله». الذي كان شاباً مجاهداً مقاوماً. فقتله الجزار أمام ناظري أبيه ولـه من العمر إحدى وعشرون سنة. ثم إن الجزار سجن الأب العالم ونكل به، تسعة أشهر، في سجن بمدينة عكّا في فلسطين. ولما أن أُطلق، لم يطِق البقاء تحت رحمة ذلك الجزار، وفي ظلال تلك الذكريات المفجعة. فهاجر واتجه إلى العراق، واستوطن النجف الأشرف. وتوفي هناك في عام ١٢١٧ هـ.

ثم إن السيِّد صالح أنجب السيد محمد الملقب بـ «صدر الدين»، جدّنا الثاني، فاتصل بهذه الدوحة العظيمة، بتسلسل كريم، فهو(١) السيد الشريف محمد بن السيد صالح بن محمد بن إبراهيم شرف الدين، بن زين العابدين بن نور الدين بن علي نور الدين بن الحسين بن محمد بن الحسين بن علي بن محمد بن أبي الحسن تاج الدين عباس بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن حمزة الصغير بن سعد الله، بن حمزة الكبير بن محمد أبي السعادات، بن محمد بن عبدالله بن محمد بن أبي الحسن علي بن عبدالله بن أبي الحسن محمد المحدث بن أبي الطيب الطاهر بن الحسين القطعي، بن موسى أبي سبحة بن إبراهيم المرتضى ابن الإمام الكاظم عليه السلام

(١) تمت الاستعانة بكتاب (منتهى الآمال) للشيخ عباس القمي في ضبط سلسلة النسب المبارك هذا.

السيّد صدر الدين (الجد الثاني):

ولد السيد صدر الدين ـ الجد الثاني ـ في ٢١ ذي القعدة من سنة ١١٩٣ هـ وذلك في قرية «معركة» من قرى جبل عامل. نشأ وترعرع ونما علميا في النجف الأشرف. ثم هاجر إلى الكاظمية ومنها إلى أصفهان، ثم عاد إلى النجف الأشرف، وتوفي ودفن فيها ﷺ.

أمه هي بنت الشيخ علي بن الشيخ محي الدين بن الشيخ علي سبط الشهيد الثاني.

ربي السيد صدر الدين هذا في حجر أبيه. وجاء من جبل عامل إلى العراق مع والده سنة ١١٩٧ هـ وله من العمر أربع سنوات. وسكن النجف الأشرف. وذهب إلى كربلاء سنة ١٢٠٥ هـ وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فحضر هناك درس الأستاذ الأكبر البهبهاني، والعلامة الطباطبائي بحر العلوم. كان متضلعا في فن الشعر والأدب. وقد ذكر عن الشيخ جابر الكاظمي الشاعر المعروف، أنه قال: (إن السيد الرضي، هو أشعر شعراء قريش، وإن السيد صدر الدين أشعر من السيد الرضي).

بلغ السيد صدر الدين مرتبة الإجتهاد قبل بلوغه سن التكليف الشرعي. وقد أجازه بالاجتهاد السيد علي الطباطبائي، صاحب الرياض ﷺ في سنة ١٢١٠ هـ وصرح بأنه كان مجتهداً من قبل أربع سنين، وكان أكابر أساتذة النجف يدينون بالفضل للسيد صدر الدين، كصاحب الجواهر والشيخ حسن بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء. وكانا يجلسان لديه جلسة التلميذ لدى أستاذه، دخل السيد صدر الدين يوماً على

المحقق صاحب الجواهر، فأقبل صاحب الجواهر إليه في مقدم المجلس آخذاً بعضده، وأجلسه في محله، وجلس أمامه، وتذاكرا في العلم والفقه، وانجر الكلام إلى اختلاف الفقهاء في مسألة مّا. فبيّن السيد ببيان فائق: اختلاف الفقهاء في تلك المسألة، مع اختلاف طبقاتهم من العصر الأول: إلى زمانه، وفرّع الخلاف في ذلك على اختلافهم في المباني والمسالك، وشرح تلك المباني والفروق فيما بينها.

فتعجب الشيخ صاحب الجواهر من تبحر السيد صدر الدين. وقال بعد ذهابه: (يا سبحان الله، كأنما السيد جالس جميع العلماء، وتباحث معهم، ووقف على أذواقهم، ومسالكهم، هذا والله العجب ا لعجاب، ونحن نُعُدُّ أنفسنا من الفقهاء! هذا هو الفقيه المتبحّر)[١].

كان السيد صدر الدين كثير البكاء في خلواته، مولعا بالمناجاة. فقد حُكي: أنه في إحدى ليالي شهر رمضان، دخل السيد إلى حرم أمير المؤمنين عليه السلام، فجلس بعد الزيارة عند الرأس المقدس، وبدأ بقراءة دعاء أبي حمزة الثمالي، فلما ابتدأ بعبارة (إلهي لا تؤدّبني بعقوبتك)، أخذته العبرة ومازال يكررها وهو يبكي حتى غشي عليه.

كان عارفاً من أهل القرب والمحبة، وقد أنشد أشعاراً يبدي فيها تولهه وتألهه. ومما قاله:

رضاك رضاك لا جناتُ عـدنٍ وهل عدن تطيب بلا رضـاكا[٢]

---

(١) عن كتاب(أيام المحنة وسنوات الحصار) للشيخ النعماني.

(٢) (منتهى الآمال) للشيخ عباس القمي.

كان ساعياً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود، لـه غيرة على محارم الله وأحكامه، يستعظم المعصية وارتكابها وينفر من أهلها مهما صغرت. روي عنه أنه لما كان في أصفهان، حضر يوماً مجلساً يقام فيه العزاء على أبي عبدالله الحسين عليه السلام، وكان فيه جمع من الأعيان والأشراف.

دخل واحد من أولاد الملوك إلى المجلس وكان حليق الوجه. فلما رآه السيد قال: إن صنيعك من شعار المجوس، وصار من عمل أهل الخلاف. ثم التفت للجالسين وقال: هذا الرجل دخل بهذه الهيئة ونحن في مجلس لإقامة المعروف.. ولابد من أن ننكر عليه صنيعه، وإلاّ فإني أتخوّف أن يخر علينا السقف، إذا صعد الخطيب على المنبر! ثم قام وخرج.

وقد أصيب السيد في آخر عمره في أصفهان بضعف وارتخاء في الأعصاب، فرأى أمير المؤمنين عليه السلام في المنام يقول لـه: أنت ضيفي في النجف. فعلم بدنوّ أجله من خلال هذه الرؤيا.

فهاجر إلى النجف لتكون وفاته فيها، ولما توفي هناك دفن عند أمير المؤمنين في الصحن المطهّر. تاركاً ذرية طيبة شريفة من أشهرهم: السيد محمد علي المعروف بـ (آغا مجتهد). والذي كان فريد عصره ووحيد دهره. وولداً آخر هو:

السيد إسماعيل بن صدر الدين:

وهو جدُّ السيد الشهيد محمد باقر الصدر. وجدُّ زوجه الفاضلة

العلوية الجليلة أم السيد جعفر.. أي هو أبو أبويهما معا، وفيه يلتقيان،

وقد عُرِّف بأنه: «أستاذ الفقهاء والمجتهدين، آية الله العظمى السيد إسماعيل الصدر، ولد في أصفهان في كنف والده عام ١٢٥٨هـ وحين بلغ السادسة من العمر توفي أبوه فتربى في كنف أخيه السيد محمد علي (آغا مجتهد)، عُرف بالذكاء والفطنة، حتى عُدَّ في أوائل بلوغه سنّ التكليف من العلماء الفضلاء.

هاجر في سنة ١٢٨٠ هـ من أصفهان إلى النجف الأشرف لغرض التتلمذ على الشيخ الأنصاري.. ولكن ما أن استقر في كربلاء حتى بلغهم الخبر بارتحال الشيخ الأنصاري في النجف عام ١٢٨١ هـ ولكن لم يفتّ ذلك في عضد السيد إسماعيل ولم ينته عن مواصلة مشواره فأكمل مسيره إلى النجف، وهناك ا ستقر وتتلمذ على العلماء والفقهاء فيها من تلامذة الشيخ الأعظم. وكذا اشتغل هناك بالتدريس.

اكتسب السيد إسماعيل في فترة بقائه في النجف إضافة إلى علوم الفقه والأصول والحديث والتفسير، علوما أخرى عقلية، كالكلام والفلسفة والرياضيات والهندسة، والهيئة والنجوم، على النسق القديم. مع الإطلاع على آراء جديدة في ذلك، ولم يُعرف من أين أخذ هذه العلوم وعلى يد من تتلمذ فيها. ولم يعرف تضلعه في هذه العلوم إلا من خلال تعرضه لبعض مبادئها وقواعدها في طيات بحثه الفقهي أو الأصولي.

لازم المجدد الشيرازي الكبير وتتلمذ على يده مدة طويلة، حتى أصبح من خواصه. وبعد هجرة المجدد الشيرازي إلى سامراء، بقي السيد

إسماعيل الصدر يمارس نشاطه العلمي في حاضرة النجف. في سنة ١٣٠٩ هـ سافر السيد إلى كربلاء لحضور مناسبة النصف من شعبان عند الإمام الحسين عليه السلام. وهناك وصلته رسالة من أستاذه الشيرازي يطالبه فيها بالسفر إلى سامراء. فلبى دعوة أستاذه، ورحل إلى سامراء. وكان عازما على الرجوع إلى دار هجرته النجف الأشرف. لكنه حينما وصل إلى سامراء، ألزمه أستاذه بالإقامة فيها. وكان السبب في ذلك أن السيد المجدد الشيرازي كان قد ترك التدريس لكثرة الاشتغال بشؤون المرجعية والتبليغ وشؤون الناس. إضافة إلى كبر السن وانحطاط القوى وضعف المزاج.

فأناط مسؤولية التدريس بالسيد إسماعيل. وذلك في عام ١٣٠٩ هـ فأصبح السيد إسماعيل محور التدريس في الحوزة العلمية في سامراء، وبعد وفاة المجدد بسنتين ترك السيد سامراء، عائداً إلى النجف، وفي طريق عودته، وعند وصوله إلى كربلاء، استخار الله تعالى على الإقامة في النجف، وكانت نتيجة الاستخارة نهيا، فقرر أن يقيم في كربلاء، وبذلك أصبحت كربلاء قبلة العلماء والفضلاء، وأهل المعرفة، بسبب وجوده فيها. وتزامن وجوده آنذاك في كربلاء مع وجود الميرزا محمد تقي الشيرازي ـ القائد المعروف في ثورة العشرين الشهيرة ـ في سامراء. ووجود شيخ الشريعة في النجف الأشرف.

مرض السيد إسماعيل في عام ١٣٣٤ هـ فسافر إلى الكاظمية للعلاج. وفي بداية الأمر تحسنت حاله، ثم تدهورت صحته وتوفي فيها.

وكانت وفاته في ١٢ جمادى الأولى ١٣٣٨ هـ. ودفن بجوار جدّه الإمام الكاظمعليه السلام. في مقبرة تخص أسرة آل الصدر[1].

يذكر أن آل الصدر في يومنا هذا سمُّوا باسمهم الحالي نسبة إلى هذا السيد الكريم والعالم العلم الجليل (السيد إسماعيل)، وإلاّ فقد كان جزء منهم يتسمى بـ شرف الدين وآخرون منهم بـ نور الدين.

والأصل في شيوع اسم الصدر وتلقبهم به هو أن السيد إسماعيل كان يحضر في مجلس الدرس ـ أيام تحصيله ـ ومعه زميل لـه بنفس الاسم، فكلاهما اسمه إسماعيل، ولما كان تشابه الاسم يسبب أحياناً التباسا أو خلطا بين الاثنين عند الأستاذ والحاضرين. فقد اقترح الأستاذ يوماً أن يفرقوا بينهما بتغيير اسم أحدهما. فاقترح [الأستاذ] على سيد إسماعيل هذا أن يكون اسمه: إسماعيل الصدر، والأخر يسمى إسماعيل، وهكذا استقر اسم الصدر على السيد إسماعيل جدّ الشهيد. ثم على أبنائه وذريته.

وقد عرف رجال هذه الأسرة بحبهم للعلم واشتغالهم بتحصيله بكل صنوفه، وقد أثروا الساحة الإسلامية بالكثير من نتاجهم، وانتشر في كثير من البلاد رجال قادة وعلماء منهم، وقد امتد وجودهم العلمي إلى كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء وكذا خراسان، وقم ومصر ومكة والهند واليمن. حتى لقد ذكرتهم الجاسوسة البريطانية (المس بل) في إحدى مراسلاتها أو تقاريرها لإدارة المستعمرات في بريطانيا العظمى،

(١) عن (سنوات المحنة وأيام الحصار) للشيخ النعماني.

تذكر فيها المصاعب التي تواجه سلطات الإستعمار البريطاني في البلاد التي يقطنها المسلمون الشيعة، فذكرت: أن هناك مجموعة من هؤلاء الذوات في مدينة الكاظمية المقدسة القريبة من بغداد والمتطرفة في إيمانها بالوحدة الإسلامية. والمتشددة في مناوأة الإنجليز. وفي مقدمة هؤلاء أسرة آل الصدر التي قد تكون أبرز أسرة عرفت بالتعليم الديني في العالم الشيعي كله.

أعقب السيد إسماعيل من الأبناء أربعة من السادة الأجلاء: السيد محمد مهدي والسيد محمد جواد، والسيد صدر الدين ـ المرجع الديني المعروف في قم، والد السيدة أم جعفر (زوج الشهيد) والسيد حيدر والد السيد الشهيد.

وكذلك أعقب بنتا واحدة، زوّجها من ابن خالتها آية الله العظمى الشيخ محمد رضا آل ياسين، نجل العالم الفاضل آية الله الشيخ عبد الحسين آل ياسين، أحد أعاظم فقهاء عصره. وهكذا تم التصاهر بين العديلين[(١)]:السيد إسماعيل والشيخ عبد الحسين. حيث أن بنت السيد إسماعيل صارت زوجاً للشيخ محمد رضا كما تقدم، وزوّج أبناءه السادة الأربعة من بنات خالتهن بنات الشيخ عبد الحسين آل ياسين.

إلا أن السيد صدر الدين، وهو الابن الثاني في ا لترتيب للسيد إسماعيل، توفيت زوجه بعد صراع مع المرض دام خمس سنوات. وقد أمره أبوها أن يتزوج عليها في حياتها. لكن الزوج أبى، ولم يجمع مع

---

(١) يقال للاثنين الذين تزوجا من أختين إنهما عديلان.

بنت خالته أخرى غيرها حتى توفيت. بعدها بقي السيد صدر الدين في العراق فترة لم تكن لـه رغبة حينها في الاقتران بأخرى، تأدباً ومراعاة لأخواتها، أزواج إخوانه.

السيد صدر الدين الثاني

هو والد السيدة العلوية أم جعفر، وعمّ السيد الشهيد، إذ هو شقيق والده السيد حيدر، كما تقدم.

وُلد في مدينة الكاظمية عام ١٢٩٨ هـ أمّه ابنة السيد هادي[1] الصدر، نشأ على يد أبيه السيد إسماعيل، فدرس المقدمات في سامراء، وأتم السطوح في كربلاء، ثم أكمل دراساته العليا في النجف الأشرف، حيث حضر أبحاث الشيخ الآخوند الخراساني. ومن بعد وفاة أبيه سافر إلى إيران قاصداً زيارة الإمام الرضاﷺ. فمكث في مشهد خمس سنوات، فاشتغل هناك بالتدريس والوعظ والإرشاد، وصار هناك قبلة يتوجه إليها طلاب العلم والفضل والفضيلة. وكانت رحلته إلى خراسان في ١٣٣٩ هـ.

في العام ١٣٤٤ هـ عاد إلى النجف، ولازم درس المحقق النائيني. حتى تلقى دعوة من زعيم الحوزة العلمية في قم: الفقيه الشيخ عبدالكريم الحائري، للمجيء والإقامة في قم حيث كانت الحوزة في

---

(١) السيد هادي كان لـه خمس بنات زوج ثلاثا منهن: فواحدة للسيد إسماعيل الصدر، والأخرى للشيخ عبد الحسين آل ياسين ام الشيخ محمد رضا وأخوته، والثالثة والدة الإمام عبد الحسين شرف الدين.

بدايات نهوضها وكانت بحاجة إلى تواجد أساطين العلم وتعدد الرموز العلمية الفذة، لتدعيم الحوزة وإعطائها زخماً ومصداقية عالية. فلبّى الدعوة وجاء إلى قم واستقر، وسرعان ما صار لـه مركز وهيبة في ظل الشيخ الحائري، فلما مضى الأخير إلى ربه برز ثلاثة هم كبار العلماء آنذاك: السيد صدر الدين، والسيد محمد تقي الخونساري، والسيد محمد باقر حجت. تزعموا المرجعية الدينية في الحوزة والناس آنذاك.

في ظل هذه الظروف دخل الحلفاء إلى إيران أبان الحرب العالمية الثانية. فابتُلي العالم الإسلامي ومنه إيران بهذا الغازي المتوحش الشره، الذي جاء يبتغي التهام البلاد وإفساد العباد. فما كان من رؤوس القيادة في قم وهم أولئك المراجع الثلاثة إلا أن عقدوا مجلساً للتباحث في هذا الوضع المستجد الخطير. واستقرّ رأيهم على أن يذهبوا وفداً إلى آية الله السيد البروجردي، منتدبين إياه ليحضر إلى المركز العلمي والديني «قم» ليسلموه زمام المرجعية. تطلعاً منهم لقيادة حكيمة فتية موحدة.

آنذاك كان السيد محمد حسين البروجردي مقيما في مدينة بروجرد. وواضح ما في موقفهم الموحد من آيات الطهر وبيع الذات لباريها، والتنازل عن كل اسم أو رسم دنيوي زائل.

فتنازل السيد الخونساري عن مجلس درسه الأضخم، والسيد محمد باقر حجت قدّم لـه ما في حوزته من حقوق شرعية وأوقاف وإمكانات مادية. أما السيد صدرالدين آل الصدر فقد قدم للسيد البروجردي المسجد الذي كان يصلي فيه، وقدمه لإقامة الجماعة في الصحن

الفاطمي الشريف وآثر هو الاعتزال عن ممارسة دور قيادي مع وجود الشخصية القيادية المهيمنة للسيد البروجردي.

لكنه في جهة ثانية تفرغ لمتابعة شؤون هامة وضرورية أخرى.. فإنه كان قد ركز اهتمامه على الجيل الشاب ومتابعة شؤونهم الأخلاقية والثقافية، وقد كان لـه اهتمام بمستجدات الأحداث على جميع الأصعدة علمياً وسياسياً واجتماعياً، فنشر آراءه ومواقفه في أمهات الجرائد والنشريات الواسعة الانتشار في إيران، وكان لـه سعي لإيجاد قطاع تعليمي خاص بحيث يتبنى برنامج المناهج الدراسية الحكومية، مطعّماً بنظام تربوي نابع من القيم الروحية الإسلامية بعيداً عن محاولات التغريب المتواصلة التي كان يفرضها النظام الحاكم من خلال مدارس القطاع الحكومي العام.

وفي اتجاه آخر كان يدعم ويساند كل المجموعات الشبابية ذات الأصالة الفكرية المحاربة لمظاهر الإفساد والتغريب. ولذلك عُرفت لـه مواقف قوية واضحة في تأييد حركة "فدائيان إسلام". وبقي هذا ديدنه ومسلكه حتى وافاه الأجل في يوم السبت ١٩ ربيع الثاني ١٣٧٣ هـ.

صلى على جنازته آية الله البروجردي في آلاف العلماء والفضلاء. ودُفن في داخل حرم السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام. وقد خلف آثاراً عديدة ومصنفات كثيرة.

وأعقب من الأبناء ثلاثة: الفقيه المعروف السيد رضا الصدر ونجله السيد علي الصدر وثالثهما الإمام السيد موسى الصدر.

والسيد موسى ولد في ١٣٤٩ هـ ونشأ في قم المدينة المقدسة. وسلك مسلك أجداده.. فبدأ مشواره العلمي في صفوف الحوزة العلمية، ولكنه جمع فيما بعد بين الدراسة ا لحوزية والأكاديمية، فقد حاز على إجازة الحقوق و الاقتصاد من جامعة طهران[١].

ومن البنات: أعقب السيد صدر الدين سبعاً هنّ العلويات: صديقة ثم طاهرة فمنصورة وبتول ثم زهراء ثم فاطمة (أم جعفر) ثم أخيراً رباب الصدر.

* * *

---

(١) سترد ملامح أخرى عن هذه الشخصية في مواضع متفرقة من الكتاب.

لوعة أمي

فتحت عينيَّ على الدنيا في بيت يضج بالحركة، تعمره المعرفة والفضيلة.. والدي هو صدر الدين آل الصدر، بارح جوار علي أمير المؤمنين عليه السلام، ليجاور حفيدته فاطمة ابنة الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام.

فاستوطن قم. فإنه بعد وفاة زوجه، ابنة خالته من آل ياسين. واحتراماً منه لمشاعر أخواتها أزواج إخوانه ـ كما قد تقدم ذكره ـ آثر أن يتزوج امرأة من نجيبات بيوتات قم. فخطب ابنة آية الله السيد حسين الطباطبائي القمي. وهي من عائلة ذات ميراث علمي وريادة. تنتمي لآل البيت انتماءً علمياً وجسدياً، فهم من العلويين السادة الأشراف في قم.

كان والدها مرجعاً للشيعة بعد وفاة السيد أبي الحسن الأصفهاني، وكان قد تصدى لمواجهة الظالمين، فرفع راية الجهاد ضد ظلم وطغيان الشاه رضا البهلوي، وحارب هجمة الحركة العلمانية في زمانه التي حاولت بتجييشٍ ودعم من الشاه أن تطفئ جذوة الدّين في داخل إيران.

فكان أن نفي السيد القمي إلى العراق، وعاد بعدها إلى موطنه، بعد نهاية رضا شاه.

كان اقتران والديَّ صميمياً مباركاً، فوالدتي الحاجة المباركة السيدة

صفية من آل القمي. شعلة تضيء وحيويّة تتقد. كانت زوجة محبة مضحّية، صادقة في ودّها، صالحة، بارّة. حتّى عرفت في محيطها بـ صفية الصالحة. نالت احترام وتقدير كل من عايشها وعرفها وارتبط بها. حتى أن علماء الحوزة الكبار كانوا يسمعون نساءهم يتحدثن عن جلالة شأنها وفضلها. كانت مسموعة الكلمة عزيزة الجانب، تمتّعت بدور ريادي في وسطها.. تُصلح ذات البين، وتتحنن على الفقراء والمحرومين، وتعود أصحاب الحاجات في أماكنهم، وتتألّم لمن يتألم حتى ترفع عنه ألمه، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. محبة للعبادة والذكر، بارة ووفية، تتواضع للجميع وتستقبل كل زائر. فاتحة دارها للقريب والبعيد للمعروف والغريب، أوسعت صدرها للمحاويج وذوي الشكايات والمهمومين. كانت تمارس هذا الدور الصعب الذي فرضه وضع البيت ومكانة الوالد المرجع.. فكانت نعم المعين لوالدي، و ردئاً لـه، متحملةً صعوبات ظرفه بصبر ورضا، تتجرّع ما قد تواجهه من غصات في سبيل ذلك غير شاكية ولا متبرمة.

قد طهُر مشهورها ومستورها، باطنها وظاهرها. قال عنها السيد الشهيد عندما رآها وخبرها: (إنها امرأة من أهل الجنة، عليها سيماء الصالحين). و أما هي فقد عدته كأحد أولادها.

لم أسمعها قط قد نالت من أحد بلسانها، أو تعرضت لأحد بما لا يرتضيه.. كانت الرؤوم العطوف، والنَّجود العطيف، عاجمت دنياها القاسية، حتى طوّحتها الطيحات وأهلكتها الخطوب.

«أمي كالعسجد في نفاستها، تتلألأ شموخاً. الأفرس حين تشتبك الشوابك، وتلتبس الأمور.

طافحة بالمعاني، طالما تغزلت فيها وهي ترتدي ثوبها المنسوك، مصلية داعية متبتلة، خمارها كان شبوباً لوجهها، يزيدها حسناً وبهاءً ونضرة.

من آهات أمي وُهبت لي الحياة. كلما جنحتُ بخيالي، تصفحت ما مضى وما هو آت.. كلما تفكرت وتدبرت.. انبثق لي حب أمي، من ركام الصمت.. من صقيع الحياة. حب أمي، رحيق عاطر.. رحمة ماطرة. من مواجعها وهبتني سلاماً دافقا، ووجوداً بالحب دفاقا.

أمي انعتاق من التراب تجلى.. إرتقاءٌ لعلّيين.. نسائم تهبهب من سموات علية، وسم للحب الإلهي على أرضنا. أمي القصائد الشوادي تجوب بحبها في كلٍّ وادي..

أمي انسلاخ الآدمي من ذاته، وذبول الأنا فيه.. أمي بخور الأرض العارج تستدر الرحمة لدنيا أجدبها القحط والقنوط. أمي ينبوع الوداد، تفرعت منه العواطف، ومسرى تحنن الرب الأبدي»(١).

كانت والدتي تحسن تلقين الخَيْر، وتصُوغ المعاني أقاصيص، تسردها على مسمعي وأخوتي. فكنا نجلس بين يديها في ليالي الشتاء متحلقين حول الموقد نأنس بالدفء، ولتقرأ لنا من ضميرها مفاهيم ترسخ في الوجدان، لتبقى قوت طفل، يحمله معه لقادم أيامه.

---

(١) كلمات تهدى إطراءً لكل أم صالحة.

عندما كنت في السابعة من عمري، كانت تقول لنا: إن أنتم صليتم وفي حياتكم صدقتم، وابتعدتم عن الأذيات وكنتم نبلاء مخلصين، يرسم الله رسومكم على الماء، ليشرب منه الناس، فيلقي في قلوبهم محبتكم، فتهوي إليكم الأفئدة حباً وتعلقاً وإكباراً. كانت تنهانا عن أن نتّكل على كوننا سادة منتسبين إلى الرسول(صلّى الله عليه وآله). لأن الاتكال على ذلك وحده مقتلة للروح إن لم يُشفع بعمل صالح، وكانت تؤكد: إن الانتساب إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله) شرف. ولكنه عجز و اتكالية إن ادّعى أحد اكتفاءه بذلك. ومن ادعى ذلك فمثلُه الكَلّ على مولاه.

كانت خلاّقة في تقريبها لفكرة العمل للخير وغرسها تلك الفكرة في نفوسنا الصغيرة. تنبت المودة في قلوبنا وترعاها دوما بالسقيا.

لكن الدهر الخؤون مال عليها بميلاته و دآليله، وعاندها الزمان بجوائحه. وكنت أضرع إلى الله ألا أبتلى بفقدها بعد فقد أبي. وأسأله أن يبقيها لأهنأ بها وأسعد.

ولقد بقيتْ بعده زمنا تكابد الحياة، وتتجرع العذابات، وشاء الله أن تقيم ونترحل عنها، يشدّنا إليها الحنين، تعاني فراق الأحبة، ديدنها الزفرات والأنين، فورثَتْ من يعقوب لهفها على يوسفها، فكانت تكرر وتعيد: رباه، «السعيد من استهان بالمفقود»[١] ولكن شتّان، فإن فقيدي موسى.. ـ(أي الإمام السيد موسى)ـ. فأنّى لي أن أستهين.

فتمر أيامها ثقيلة متراخية، ليطول الفراق، ويتعاقب الأسى، وتتلاحق

---

(١) نص رواية عن النبي ﷺ.

الآهات. وتتعاظم الأشواق، وتتعطّف القلوب، تنخرها أحزان وأشجان. تطاولت بها الأعوام، ليمتد بها العمر، فتعسَّج عودها، وانحنت العظام منها وهنا على وهن.

فارقتها «سنوات المحنة وأيام الحصار»[١].. تسعة عشر عاماً تصرّمن لأعود في خلسة[٢] من ذلك الزمن الكنود، وألاقيها مهشمة الروح مكدودة القلب. كانت قد بلغت من الكبر عتيا، فلم تتعرف عليّ. لقد كانت تعيش عالم الراحلين رغم أنها كانت لا تزال تتنشق الهواء، فجلست عندها وبثثتها أشواقي وأحزاني، فلم أكن في حال أحسن من حالها. أكثرت من ضمِّها وتقبيلها ومناجاتها.. كنت ظمآنة عطشى لماضي عطفها وتحنّنها.. كم ناديتها: (يا ملجأ أوجاعي ومحضني، بك أتحصّن من جور الأيام، وإليك ألجأ من عاديات البلايا). لكنّ إلحاحي ومناجاتي لم تلج إلى عالمها.. ولم أحس منها تجاوباً. إلاّ أن اللافت في أمرها رغم

---

(١) اقتباسا من نص عنوان كتاب النعماني المشهور.

(٢) من بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، تسنّى لي العود إلى إيران من العراق مرتين: كانت الأولى منهما بعيد انتصار الثورة مباشرة وذلك قبل استشهاد الشهيد الصدر. وفي هذه المرة، تشرفت بزيارة الإمام الخميني﵀ مع باقي أخواتي للسلام على حضرته، ولنقدم له ملف اختطاف الإمام السيد موسى شقيقي، وفي هذه المرة كذلك شاركت في الاستفتاء الشعبي الكبير لاختيار نظام الجمهورية الإسلامية. وأما المرة الثانية فقد زرت الجمهورية الإسلامية بعد تسعة عشر عاماً من بعد استشهاد الشهيد، ولكن كان سفري هذا قد جاء بعد جهاد مرير مع سلطات البعث لاستصدار ترخيص لي بهذا السفر، وكان الذي شجعني على طلب الخروج من ذلك السجن الرهيب والإصرار على السفر هو فوز السيد محمد الخاتمي ـ زوج بنت شقيقتي ـ رئيساً للجمهورية.

ذلك أنها صارت تحدث كل من يدخل عليها: بوفود امرأة مبرورة مباركة. كانت تقول: (زارتني ضيفة مبروكة تالية للقرآن بصوت رخيم حنون). لقد كانت تقصدني وتعنيني. ولقد تبيَّن أنها كانت تظن أنني رحلت فيمن رحل.

وعندما سئلت عني في محضري: قيل لها: يا أمَّنا الحاجة، إن هذه ابنتك فاطمة قد أتت من العراق تزورك. فردت: إنّ فاتي[١] خانم قد قتلت مع زوجها وأطفالها منذ سنين.

وعندما اقترب أجلها ودنا منها الرحيل، عرف ذلك مما ظهر عليها من علائم الموت. اجتمع أفراد العائلة للتخفيف عنها والترويح عن نفسها، فلا ترتحل عن الدنيا إلا بقلب مطمئن. وصار المحيطون بها يلتمسون حيلة لتسكين هواجسها، حيث أنها مافتئت تتجرع غصّة افتقادها إياي[٢]، واللوعة بأخي السيد موسى، ورأوا أن من المفيد لها أن يدبّر لها لقاء مفتعل بيوسفها: موسى المغيَّب. فيؤتى لها بواحد من أبناء العائلة قريب الشّبه بالسيد موسى. ويقال لها: بأن هذا السيد موسى قد عاد. ذلك أن المرأة كانت تشارف على التاسعة والتسعين، فانحلّت قواها وغابت حواسها حينذاك، وكان يمكن أن تنطلي عليها تلك الخدعة،

---

(١) هكذا كانت أمي تناديني وتدللني في أيام صغري وهو تصغير لاسمي (فاطمة) كعادة الإيرانيين.

(٢) تقدم أنها رحمها الله كانت تعتقد بمقتلي مع زوجي وأطفالي. والمحزن هنا أنها بالفعل فقدت في حياتها عدداً من أبنائها: فقد توفي أخي السيد رضا وأختي بتول..واختطف الإمام السيد موسى.. وظنت موتي أيضاً.

ترحماً عليها ورأفة بحالها. وفي أثناء تلك الهمهمة، كفتهم أمي الوالهة، بنفسها مؤونة ذلك. فقد وصل حينها ابني السيد جعفر من العراق[١]، ودخل عليها ليزورها مرتدياً عمّته السوداء، كالإكليل يزيِّن رأسه وكان بجانبه قرينته. وكان ذلك هو لقاءه الأول بجدته بعد انقطاع دام طويلا. وعندما دخل، ذهل من كان في الغرفة وتخشّب، لأجل إقبال الجدة العجوز عليه بذلك الاستقبال المفجع، وكأنها تنسمت الحياة واستعذبت لحظاتها الراهنة. فصارت تناديه لاهثة: موسى.. موسى، هلمّ إليّ حبيبي.. أين پروين؟ لتأت پروين، فقد أتى موسى. لكن لم يا ولدي أخْجَلتَني مع پروين، أهكذا تجازيها بعد صبرها على غيابك أن تتزوج من أخرى؟[٢]. كيف تحتمل شريكة لها بعد هذا المغيب؟

ثم أخذت أمّي دُجم العشق وشدائده على وليدها، وتولّهت متمتمة: «أي ولدي.. موسى السندان[٣]. يا من أشرقْتَ عليّ وشعشع ضياؤك حناياي. يا رشفة ماء سوغت لي الغصص، هاك قلبي المكلوم، قد توهج بالحب.. يا غرس بستاني، لكأنما سقيتك من جداولي فراتاً طهوراً، حتى يحرق الصقيع ثمرات مغارسي، ويذيقنا المَناحسَ مَن تلطخ بالسوء،

---

(١) كان ذلك في عام ١٩٩٨ م حيث استطاع السيد جعفر ابني الفرار من العراق. وقد حوسبت من قبل أجهزة النظام البائد جراء ذلك بحساب عسير مر.

(٢) (پروين) هي زوج السيد موسى فرج الله عنه، أمّ صدري.. وقد ظنت أمي هنا أن ابني جعفر هو سيد موسى لوجود الشبه بينهما. واعتقدت أن سيد موسى قد تزوج من أخرى غير أم صدري. لما رأت غيرها بجانب من ظنته ولدها موسى.

(٣) الكلام من يراع الكاتبة. السندان هو العظيم الشديد من الرجال.

وتوشّم به.. إني لأنعس لطيب ذكراك.. أي ولدي..

أي ولدي.. عبثت الريح بأوجاعٍ تطحن أيامي.. قواربي تُبحر في بحيرة من نجيع دماء لا تستكين.. سفن تائهة في قلوب تتوجع.. جماجم بَشَر تتأبَّى.. وحفنة عظام تداس قبل أن تموت.. رموز لجدران تعسة، تباح للعنة تدوم.. ممالك صفراء لأوهام تُقَدَّس، ورعاع تقطع وتين اليقين.. وورود البنفسج تنتحر مع فجر يزول.

هنا اليوم زغاريد اغتُصبِت من ديار المذابح.. رسائل غفران هطلت من سماء تشهد.. يا أرض تعالي، واشهدي فرحة يتيمة، جاءت بنذر عهد قديم، لقدّيس يحب الوصال.

هتف هاتف من الأعماق، عن بشارة السيف والكلمة.. عن المعبد والسؤدد.. عن البيت العتيق.. عن وحشة المقام وغربة زمزم.

تذكرت حينها حديث جدتي عن نبوءات النبيين في غابر السنين.. عن الحق والحقيقة.. عن أمة تحتضر.. تكاد تندثر.

وتجوس في الأرض المخاوف، ويعربد المنجل، لتطرق المطرقة، ويحكم" العم سام" الثَّمِل.. يسلِّط ربيب بيت النار. ومن بعده وليد بيت العار..

حدثتني جدتي عن خراب الديار.. عن قلوب أُلهمت خزين الأسرار.. كتمت بإصرار، تابعتِ الليلَ مع النهار.. تعبدت بالانتظار. فقد طال الوعد، وتاق القلب للحب.. حينها أذن الرب، لرجل الحب، لصاحب الأقفال، أن يفرح قلوباً، دامت لها الأحزان.. توشحت بالأشجان.

وفي يوم عيد ابتدعه إنسان الله، صدقت نبوءة الصدّيقين وولد الفرح للآدميين، وأعلن: فلسطين وجع للحسين..

انسكبت فينا الأشواق والحنين.. صرنا ننشد: عاد راهب الليل، فارس النهار..

عاد يبحث عن الشقوق.. يرتق الفتوق.. يفرق بين التخدير والتحرير. يكشف عن الدفين.. عاد يرينا أصيل الأيام..».

وحلّ يوم على أمي لابدّ منه.. قد خُطّ بالقلم كما القلادة كانت على جيدها، وأسلمت الروح لباريها، وَوُوريَتْ ثراها.

غابت أمي.. لكن عجبا: لم يكن للتراب أن يُغيِّب معها جراحاتٍ بقيت تَنْكأها الأيام، وتَسفي عليها عاتيات الريح.

* * *

دار البتوليّات

دارتُنا في ذلك المنزل البسيط الواقع في أحد الأحياء القديمة في بلدة قم المقدسة، في حيّ «أرْك» قريبة من مدفن السيدة العلوية الشريفة «فاطمة ابنة موسى بن جعفر عليهما السلام». فيه وُلدتُ وتحت أفيائه نشأت وترعرعت. بُعيد ولادتي، أخذتني القابلة إلى حمام قريب بأمر من أبي لإجراء المسنون على رضيع مثلي.. فقد كانت هذه عادته مع كل طفل يُرزقه. فلم ترضع أمي طفلاً لها إلا بعد تطهيره وتنظيفه. وما كانت تلقمه صدرها حتى تسبغ الوضوء، كما كانت تصنع إذا تهيأت لمحراب صلاتها. ثم تبادر الحاضنة (ننِهْ) كما كنا نسميها، لأخذي والعناية بي، تعاون أمي على رعايتي.

لقد كنا قوماً مخدَّمين، إذ جرت العادة في البيوتات ذات الشأن، أن يتواجد عدد من الحواضن والشاغلات لتدبير أمور المنزل ورعاية أطفاله. والحاضنة التي تعهدتني هي السيدة گوهر (جوهر). ولشدة التصاقي بها وعنايتها بي كنت وأخواتي نسميها (ننه) أي أم.

أما الدار التي رأيتني نبتُّ فيها، فكانت ذات حجرات عديدة، فرشت

بـ (الكنبار) وهو نوع من البُسط القديمة والبسيطة. وإلى أن كبرت واقترنت بالسيد الشهيد، لم تكن في الدار من سجادة.. ولكن بعد زواجي، أُهدي للبيت سجادة إيرانية حيكت يدويا (زولِه) فُرشت في علّية الدار، في الطابق الأعلى مع الوسائد التي صفت تحت الجدران. وهذه العلّية خصّصت للضيف، الذي لم يكن البيت ليخلو منه. فلقد كان الأضياف يفدون على بيتنا زرافات ووحدانا. وكنا نعدّ لهم الطعام الذي كان يتألف غالبا من نوع من الحلوى تقدّم لهم مع الخضروات، كالبقدونس والبقل والفجل والنعنع، مع اللبن المخيض والملح. ولم نكن نستغني عن الخبز، فهو شيخ المائدة. لكن في الأعياد وبعض المناسبات الخاصة، كنا نعدُّ ماء اللحم، الأكلة الشهيرة في إيران، لنقدمها لأضيافنا، كما نقدمها لأنفسنا. فما يأكله الضيف هو نفسه طعام أهل البيت.

تحت أرض دارنا تلك، يقع السرداب، كما في أكثر الدور من حولنا، بحسب النمط الهندسي للبناء المتبع في إيران. وكان يضم بيت المؤونة والمطبخ ومخزنا لأواني الطبخ المصنوعة من الخزف والنحاس. وضم القبو بعض المرافق الضرورية الأخرى.

كان لدارنا فناء أمامي، تراحبت أطرافه واتّسعت. وكم هي جميلة تلك الدوالي في طرف من تلك الساحة (الحِياط) كما تسمى في إيران، حيث كانت تظلل المكان بأفيائها. ويتوسط الفناء شجرتان من أشجار السرو (تسمى كاج في إيران) ـ تناطحان السماء في علوهما

وارتفاعهما[١].

وبالقرب من حوض ماء الكر الذي كان يتوسط الفناء، أصّيص لزرع الرياحين، وقد تناثرت آنية الخزف في أنحاء الفناء لزراعة الزهور والورود من كل الأصناف والألوان. كل ذلك كنت أنا ورباب نعتني به ونرعاه سقاية وتشذيبا وتهذيبا. مما غرس حب الزروع والتشجير في أعماق نفسي.

كان بيت أختي صدّيقة مجاوراً لنا، يربطنا بدارها باب مفتوح على ساحتي الدارين. فلم نكن نحتاج إلى الخروج من الدار فيما إذا رغبنا في الذهاب إليها أو العكس. وهكذا كان بيت أخي السيد رضا يقع قريباً منا في نفس الزقاق.

كنت في عمر يقارب عمر بنات شقيقي السيد رضا. وأبناء شقيقتي الكبرى صدّيقة. بل إن ابنها محمد صادق طباطبائي كان صديقاً وأخاً قريباً لي. حتى إنه كان يقاسمني مصروفه اليومي، وما قد يستمتع بشرائه كقطع السكاكر التي كانت تصنع من الفواكه الطبيعية في فصل الصيف،

---

(١) مثّلت هاتان الشجرتان رمزاً لحكايتي أنا وأختي رباب.. فقد كنت وإياها الأخيرتين ممن تبقى مع الوالدة في البيت. ولذلك ابتلينا دائما بمسؤولية تنظيف ما كانت تسقطه هاتان الشجرتان من أوراق وأعواد طوال فصول السنة. وكنا ملزمتين بتنظيف البيت ومرافقه دائماً. فأتعبتانا ـ الشجرتان ـ وأصررنا على أمي بأن توافق على قطعهما. وكانت ترفض ذلك تيمناً بوجودهما.. بل تبيّن أنها كانت تحس بقلبها أن في قطع الشجرتين قطعا لوجود ابنتيها المتبقيتين عن حياتها وبيتها. ووقع المحذور. وقطعت الشجرتان.. وسرعان ما افترقنا عنها.. أنا في العراق وويلاته.. ورباب في لبنان ومصائبه.

أو ما كان يباع شتاءً من الأكلات الشعبية المناسبة لأجواء البرد كالشوندر المسلوق الساخن الذي كان يشتريه من أصحاب العربات الجوالة في داخل الأزقة.

لي من الأخوات بعد كبراهن صدّيقة، طاهرة ثم تأتي منصورة، فبتول تغمدها الله بالرحمة، ومن بعدها زهراء، ثم كنت أنا الفاطمة، وتصغرني شقيقتي رباب بسنوات ثلاث. هكذا كنا رحماتٍ سبعاً، أصر والدي، على أن يُتوِّجَهنّ جميعاً بأسماء فاطمة الزهراء إكراماً لجدته الكبرى سلام الله عليها، وتعظيماً لشأنها وتيمُّناً بذكرها.

أما الرباب، فقد كان ينشد دوما حين يلقاها وحين يناغيها، ما كان ينشده الحسين عليه السلام في ابنته:

لعمــري إنّي لأحــب داراً تكون بها سَكينة والـربـاب

وعلى رغم شَيبه الذي كسا وجهه ورأسه، إلاّ أنه لم يفقد سعة الصدر، وحُلم الإنسان المربي.

فقد كان كثير التعطف، طافحاً قلبه بالمراحم، يغدق علينا حبَّه وحنوه. نشأنا في ظله راعيا وموجها، وتَنَشّأنا في دلال ومحبة وعناية خاصة. واختصني بعاطفة جياشة منه، كان يشعرني بها، بل يأمر أهله وولده باحترامي احتراماً خاصاً، لأجل اسمي فاطمة. لأنه الاسم العلم لسيدة النساء عليها السلام. ولم يكن يقبل من أيّ أحدٍ بأن يناديني باسمي مجرداً بل بـ السيدة فاطمة. إمعانا في التكريم. ورغم أننا كنا سبعا من البنات، إلاّ أنّ كل واحدة منا كانت تشعر، أنها قطب الرحى في البيت، تقرر

وتحكم وتفصل، ومع ذلك لم نكن نتصادم في قراراتنا. إنما كانت الأمور تجري بانسابية بديعة.

مضت من عمري سنيُّه الأولى، وما وعيت إلاّ على والدٍ قد شارف على الشيخوخة. وأما أمّي، فلقد كانت تخطو نحو الخمسين. كانا يحتاجان إلى رعايتنا. ومن حقهما في ذلك العمر رعاية الأبناء. لذلك اعتمدنا على أنفسنا في كثير من الشؤون. وبما أني وأختي الرباب، أصغر الذرية، لذلك كان أخي السيد موسى، والكبير من أخوتي، مع كبرى أخواتي، يمارسون دوراً أبوياً تجاهنا.

أخوتي: السيد الرضا والسيد علي والسيد موسى، أراد لهم والدي أن تَتَعَنْوَنَ شخوصهم بعناوين الشخصية المقدسة لمولانا الإمام علي بن موسى الرضا.. فحملوا هذه الأسماء المباركة الثلاثة. فكما أن البنات تقاسمن أسماء الزهراء. فكذلك الأبناء اجتمعت فيهم أسماء ثامن السرور، ثامن أنوار الأئمة عليهم السلام. ولا أدري، لعل تَغَرُّب والدي(١) عن دياره ووطنه، وبعده عن بني عمومته وقومه كان لهما أثر في ذلك. إذ أنه أراد التشبه بالإمام الغريب النازح عن ديار آبائه ومدينة جده صلى الله عليه وآله.

في تلك الفترة كان من المفروض أن نلتحق بصفوف المدارس، إلاّ أننا لم نفعل، ولم نتلق تعليمنا الأولي في مدرسة حكومية، بسبب الفساد المستشري في مؤسسات القطاع الرسمي تلك الفترة. وفساد النظام الإداري وعدم الالتزام في المدارس بالحجاب. ورغم أن تدريس البنات

---

(١) تقدم تفصيل ذلك سابقا

في ذلك الزمان ما كان مقبولاً أو لم يكن يلق العناية الكافية في كثير من أوساط الناس وخاصة البيوتات العلمية المحافظة، إلا أن والدي كان يولي اهتماماً كبيراً بتعليمنا، وكان يبحث لنا عن بدل مناسب عوض المدارس الحكومية.

فنُصحت والدتي من قبل خالتها أن نتفق مع (ملاّ) لتعليمنا. وهي امرأة متعلمة مقرئة. ونعتت لها واحدة منهن. وامتدحتها بخصال حميدة توفرت عليها. وكانت على علم ودراية بالعلوم الحديثة.

وهذه ميزة اختصت بها. إذ أن (الملاّ) في ذلك الزمان هي من اقتصر دورها على تعليم القرآن وكتابة الحروف، وتعليم الخياطة وشؤون المنزل، وبالفعل تم الاتفاق معها لتتولى تعليمنا.

فذهبنا إليها في اليوم التالي، أنا وأخواتي: بتول وزهراء ورباب، وكبرى بنات أخي السيد رضا.

ورغم وجود فارق السن بيننا. إلاّ أننا انسجمنا مع بعض في وقت واحد. فـ (ملاّنا) امرأة مثقفة قياساً إلى بنات جيلها. كانت مؤمنة وواعية) علمتنا قراءة القرآن الكريم وكذلك الحساب والإملاء والإنشاء، حتى درسنا عندها ما هو بمستوى الصف السادس الابتدائي. وبذلك وصل المشوار معها إلى غايته. فقد أفرغت في جعبتنا كل مخزونها. وأشركتنا فيما اكتسبته من معلومات و قدرات، شكر الله لها ذلك. وجعله في ميزان أعمالها، ولم يكن من الممكن بعدها أن نواصل الدراسة في المدارس الحكومية للمرحلة المتوسطة والثانوية، تنفراً مما كان يحصل من تسيّب

أخلاقي متعمد من قبل دولة الشاه المقبور، وهجمة التغريب والتمييع التي ابتُلي بها المجتمع في ذلك الوقت، فبقينا في البيت، نشتغل بقراءة الكتب التي ضمتها مكتبة الوالد‎ﷺ. إذ كان يمتلك مكتبة ضخمة. فكنا نقرأ ما تيسر لنا منها. ويناسب تحصيلنا العلمي، من مجلات ونشرات ثقافية، وكتب السيرة النبوية وغيرها، واذكر هنا بالخصوص كتاب "حلية المتقين"، وكتاب "مكارم الأخلاق"، وكتب الأحاديث والروايات عن أهل بيت العصمة والطهارة.

وما أكثر ما كان والدي يحرص على رعايتنا فكرياً وثقافياً. يتابع ما نطالعه، ويسألنا عما نقرأ ونطالع. بل كان يجمعنا ـ نحن بناته وحفيداته ـ اللاتي هنّ في سنّنا أو يقاربن أعمارنا، ويُجري بيننا المسابقات. فيصوغ لنا بعض الأسئلة على شكل أحاجي، لتفوز المجيبة منا بجائزته. يثير بذلك فينا روح التعلم، ويحفزنا للقراءة، ويحرضنا عليها دائماً.

لقد تميّز قدّس الله روحه عن غيره من نظرائه بهذه الميزة، ولست أنفي مثلها عن غيره من العلماء إلاّ أنهم كانوا قلة، أولئك الذين يعتنون بالنشء من فتياتهم كما الفتيان. ولم تكن هذه الحالة شائعة، ولم تُتَح هذه الفرصة لجميع فتيات ذلك الجيل.

وبعد أن كبر السيد الوالد وداهمته الشيخوخة كان "السيد موسى" ردئاً لي وراعيا في مكان أبي. إذ كان يكبرني بستة عشر عاماً. فقد كان يحس لديه تجاهنا حالة أبوية وحنواً مشعا. إني لأذكر كم قضى من وقته في تهذيبنا وإرشادنا ونصحنا، وكان يعطينا دروساً في الأخلاق،

ويحثنا على قراءة القرآن وحفظه وترتيله بالشكل الصحيح، كم بذل من جهد في جمعنا مع أبناء وبنات الأخوة والأخوات، من أبناء العائلة، للتعليم والإرشاد، وأجرى بيننا المسابقات والجوائز تشجيعاً وتشويقاً، تماماً كما كان يفعل معنا أبي من قبل. هنالك شعرت بحياة جديدة تدبٌ في أوصالي...

تفتحت مداركي، ورأيت الطريق لاحباً أمامي. ولكني بدأت أخطو فيه بثبات وثقة، وقد أدركت الثانية عشرة من عمري. هذه المرحلة من حياتي كانت حاسمة ومؤثرة، وذات أبعاد وظلال، رائدي فيها أشواق عظيمة غمرت وجداني، كأني كنت في فردوس النعيم. فيها سخت عليٌ السماء ببركات الأرض: أبي وأمي، والسيد موسى وباقي أخوتي وأخواتي. أنعم بالقرب منهم، وأطير دلالاً. تتلقفني القلوب ترعاني وتتعهدني، وتتعطف علي. كانت تربطني آنئذ بوالدي علاقة حميمة.. إذ رآني في طور التفتح والنضج.. أسمع وأعي وأتلقى واستجيب..

ولشدة تعلقي بوالدي، من جهة، ثم لسعة صدره وقربي منه وعدم تأثير كبر سنه ولا جلالة شأنه ومكانته وكثرة انشغالاته في منعه عن الاهتمام بي و إعطائي فسحة من وقته وعنايته.. لذلك كله كنت كثيراً ما أصعد إلى علّية والدي، وفي يدي قطعة قماش أطرزها أو قطعة صوف أغزلها، فأدخل عليه حيث كان يجلس ويختلي، فيبتهج عند دخولي عليه، ويستقبلني باسماً متهللاً، فيقع في قلبي ذلك أحسن الوقوع. فأضع ما في يدي جانبا، لأعبٌ منه واستزيد..

كنت أتحيّن الفرص لأكتسب منه اللغة العربية. فيفتح معجماً من معاجم اللغة، ليريني صورة، ويقارنها لي بالكلمة العربية فأعرف أنها شجرة مثلا. فأفرح وأطرب لتعلم هذه الكلمة. فقد اتسع مفهومها في ذهني.. فهذه الكومة من الأوراق الخضراء المجتمعة فوق عمود من الخشب، كانت في ذهني (دِرَخْت)[١] وهي الآن قد اتسمت عندي بعنوان آخر لقد صارت شجرة.. وهذا تطور جيد لذيذ. تلك الساعات لا أنساها ما حييت. تظل تراودني حتى يومي هذا، فهي آخر زادي من أبي، كان ذلك قبل وفاته بأسبوعين.

ولكن بعدها كتب لي موعد أول مع الحزن في هذا العام من عمري الذي لم يتعد الثانية عشرة. وكأن الخرزة الأولى من مسبحة الأحزان قد انخرطت، لتتوالى بعدها باقي حبات المسبحة.

ففي السبت ١٩ ربيع الثاني من عام ١٣٧٣ هـ وَشَجَتْ في قلبي هموم لا عهد لي بها. واشتبكت أحزان لا طاقة لفؤادي الصغير على احتمالها. وسالت مذارف عيني كأنها العَجوس في نيسان[٢] البكاء، تنهمر بغزارة ولوعة وحرقة، على الوالد الراحل. والأب النغوم، نشّم الله ذكره وأبرّ حجته، وألحقه بالصالحين من آبائه. فضجّ لـه خلق كثير، وقامت بواكيه تنعاه وتؤبّنه، عالماً فاضلاً، وإنساناً صالحاً. ونفّاعا أينما كان مباركاً. ولقد رأيته وعرفته من الزاهدين، فلم تكن لـه مطامح، ولم يكن

---

(١) دِرَخت كلمة فارسية تعني شجرة.

(٢) العَجوس: المطر المنهمر. ونيسان هو الشهر الرابع من شهور الربيع الماطرة.

لـه حرص على تحسين وضعه المعاشي، حيث إنه كان يكتفي بغُفَّة من العيش و بُلْغة منه، ولشدة تورعه واحتياطه في الحقوق الشرعية التي كانت تجري بين يديه، لم يتذوق يوماً معنىً لبحبوحة العيش والسعة والخصب. تلك الأموال التي كانت تجلب إليه.. كانت تنماث من بين يديه بعد جلبها كما ينماث الملح في الماء. إذ كان يصرفها مباشرة في مصارفها الشرعية، ويسلّمها بيد من كان مكلفاً من قبله بتوزيعها وصرفها على المستحقين، دون أن تبقى في البيت يوماً واحداً.

وبعدما اختاره المولى إلى جواره، دفن بجوار سيدة الطهر وكريمة آل بيت الرحمة، المتبتلة البتول فاطمة ابن الامام الكاظمعليه السلام. وليبقى ضريحه داخل الحرم المقدس، كأنه بصمة من يد جدّه موسى بن جعفرعليه السلام. يذكرنا مرمسه، برجل لا يُتعتَّب عليه في شيء.

* * *

موسم النضج في عمري

العام الثاني عشر من عمري، كما أسلفت شكل لي موسما للنضج. فلقد بدوت حينئذ أَسَنّ مما أنا عليه وأكبر، حتى لقد كان يظن الناظر إليّ أني في غَيْدانِ الشباب. ولم يكن ذلك قاصراً على مظهري ونضجي الجسدي، بل امتدّ التحول إلى سلوكي وتصرفاتي، حتى أن رفيقاتي وقريناتي عِبنَ عليّ عزوفي عن اللعب والاستئناس بالألعاب، والدمى المصنّعة من الخشب والقطن وخيوط الصوف، التي كانت الشغل الشاغل لجميع من هنّ في عمري. ليس لهن هَمٌّ غير ذلك اللعب. فقد كنت أجدهن يخطن الثياب للعبهن، ويظفّرن لهن جدائل من صوف ثم تُثَبَّت بالدبابيس على رؤوس الدمى، ويبتكرن أقراطاً لعرائسهن، ويتفاخرن بها و يتبارين لإبراز الأحلى والأجمل منها. إلاّ أنني كنت بعيدة كل البعد عن عالم الصغار المحدود. فلم يستهوني لعب، ولم انشدّ إليه، حتى أنه عندما أُهديَت إليّ دمية من صنع «ننهْ گوهر» مربيتي الطيّبة، لم آبه لها ولم أمسّها. وبقيت مركونة مهملة، إلى أن أعطيتها لبعض فتيات العائلة.

.. كنت سابحة في عوالم ملكوتية متعالية، امتزجت بالفضائل. لقد

كان أكثر أُنسي عندما يقبل الليل ويرخي سدوله ما كانت دياجير الليل لتوحشني هواي وراحتي كانا في الإقبال على العبادة والتنفل ليلاً أناغي نجوم السماء نجوىً لله وتضرعاً فالليل مطيتي إلى الله وطريقي إليه منه ألج إلى عوالم الملأ الأعلى لقد كان الليل يريحني ويسكن خاطري ويجلو قلبي فيه أرتوي إنْ أظمأتني ساعات نهاري وفيه أبث الله هواجس طفولتي واسترعيه براءتي وأناشده لطفه فأنا بين يديه أتقلّب بين أصابع رحمانيته لتشملني عنايته ورحيميته سبحانه

بفضل منّه كنت أديم نافلة الليل وهو أمر كان يبهر الكبار ويثير تعجبهم

في ليلة من تلك الليالي كنت في طهران في بيت أختي طاهرة وقد حلّت إحدى قريبات زوجها وهي من سكان طهران ضيفة على البيت وكان من عادتها متى ما تواجدنا في طهران أن تبقى للمبيت معنا فقد كانت صديقة للعائلة وعندما حان موعد الرقاد وأخذ الجميع مضاجعهم خدرت العيون مستسلمة للنوم ثم إن ضيفتنا استيقظت فجأة لتراني واقفة وقد نشرت يديّ منْشَدَّةً مشتغلة بالذكر والصلاة والدعاء فصارت تسائلني وكأنها تعاتب لم الشقاء باكراً يا طفلتي كم لك من العمر مازلت صغيرة على مثل هذا إن من هم في عمرك يابنيتي يغمرهم السبات في أعماق هذا الليل الأغضف

وفي حادثة أخرى عندما كنت متشرفة بزيارة الإمام الرضاعليه السلام في مشهد المقدّسة أذكر أني وقفت بعد تلاوة ترانيم الزيارة والسلام على

الإمام، صليت ركعتين، قرأت في أولاهما سورة ياسين بعد الفاتحة، وفي ثانيتهما سورة الرحمن، وكان بين يديّ كتاب الدعاء منشوراً. فأتممت صلاتي. ثم شرعت أناجي، وأتودّد للإمام[١]:

«لبيكَ يا ابن موسى الطهر وحنانيْكْ.. لبيك يا ربيعَ أيامي

ودفءَ الذكرى لذكراكَ في وجداني.. مَن للغريب سوى الغريب. من للمندكِّ الآفل المخذولْ.. مَن لأسير الذات.. لطريد الأسى..

هذه شكوايَ.. يا ابنَ البتول.عابرُ سبيل.. ابنُ سبيلْ، راجيا منكَ القبولْ. نسجتُ الحبَّ أثواباً، ترتديها الروحْ.. حكتُها بفطرتي.. ببهجتي، رتقتُها وَلهاً، طعَّمتُها لئالِئَ محبتي، وصُغْت جواهرَ المعاني قلائدَ أرتديها، يومَ مولدِ العيدِ بأفنيتي.

عرجْتُ.. تخطيْتُ بلدانَ الخرابْ.. هي عنك مانعتي. وصلتُ إلى حيثُ الضريحُ المعطرُ بشذى النبيِّ أحمدْ. بعبق بضعة محمد.

وصلتُ أقصدُ السلامَ، لأمنح السلامَ في تحليتي. هذا المعنى راودني حين ذكرتُ.. حين ذُكِّرتُ بك، يا أنيسَ وحشتي، أنا الغريب.. ببابِك محطُّ راحلتي. أنتهل من عذب قدسك.. مِن حلو اسمك.. ما يُطفئ ظمأتي، أبتهل بحبي لك.. قبولَ ضراعتي. أنا المتصحِّرُ وأنت بستانُ واحتي. هذا دمي، سيالاً في أوردتي، مُغرَقا.. معترفاً بِرقِّي.. بعبوديّتي. هذا القلبُ منحوراً، قربان وَجدي.. هذه أضحيتي».

وبينا أنا منشغلة كذلك، وإذا بامرأتين من زائرات الحرم الشريف

---

(١) المقطوعة التالية بين يديك من قلم الكاتبة.

تراقبانني، وتصيخان السمع لمناجاتي فنادتاني.. فلبّيت لهما لأعرف ماذا تريدان؟ فقالت لي إحداهما: أهكذا التبتل منك يا صغيرتي؟ أتأتين فعل الكبار وأنت في هذه السن أين حق طفولتك وأين لهوك؟

فتبسمت من قولها، وعدت مكاني، فالعَوْد لي أحمد.

لم يكن لِيُستَوعب مني هذا السلوك والتصرف. ولم يكن الآخرون ليتفهموا أمري وما كانوا ليدركوا انجذابي نحو الملكوت، على صغر سني. كان بعضهم يتضاحك حين يراني أصنع هذا الصنيع. وآخرون يستغربون، وبعض منهم كان يستملح عملي. إلاّ أنه كان يراه سابقا لأوانه. بل قد يعدُّه استعجالا مني للنضج وتنكراً للطفولة. غير واحدٍ من المحيطين، سقى الله أيامي الخاليات معه، ولا تلقفته إلاّ يد الرحمات.. شقيقي المغيَّب السيد موسى الذي كان يُذكي هذه الحالة عندي، ويتابعها على حرص منه، ويباركها.

السيد موسى عنى لي الكثير في تلك المرحلة من وجودي..

سيد موسى: رجل الحوزة، حليف الدرس والقلم، العالم المفكر، والمربّي المبدع. والذي كان قد حضر على أعاظم العلماء في قم المقدسة، حرص على أن يرفد إلى علومه الشرعية، الدراسات الجامعية، وقد حاز على إجازة الحقوق و الاقتصاد من جامعة طهران.

كان طموحاً مقداما، شفع علمه بالعمل، فاقتحم ميادين التغيير والإصلاح، حيثما حلَّ وارتحل. كان مصلحاً حراً متنوراً، لم تحُدّه حدود الجغرافيا المفتعلة، ولم تكبله تبعات التاريخ الكريهة. كان فيلسوفاً

متكلماً، قادراً على صنع القيم.. حريصاً على إرساء مفاهيم العدل والحق.. إذ كان يعلم أن «العدل حياة» وأن «العدل أحلى من الماء»(١). فكرس وجوده لأجل تحكيم تلك القيم في الحياة من حوله.

لقد استطاع فك الرموز وحلّ أصعب المعادلات والتناقضات، في مجتمعٍ بنيت أسسه على تلك المعادلات المتناقضة، ذاك صنعه في لبنان إذ عشق ذلك المجتمع وذلك الوطن فذاب هو فيه، وذابت المتناقضات في موسى الإمام(٢).. كانت لـه جاذبية واضحة.. ذا حضور طاغٍ، ماثلاً في الأذهان كما في القلوب. بهذا وذاك استطاع، ذلك الرجل الإلهي في طموحه.. "الإنسان" في إنجازاته وعطاءاته، الذي أحبته الكنيسة كما تولعت به المساجد، وقد اجتمعت كل المذاهب والأديان والاتجاهات على احترامه واعتباره رمزاً للخير، والتوحيد والتعايش. فاستطاع رجل التوحيد ذاك أن يجمع مِزَقَ ذلك المجتمع المتهاوي، ويسمو على جميع المتناقضات فيه، ليحيك منه نسيج صمود فذ في وجه أعتى قوى الشر الطاغية. وما استطاعوا أن يخرّقوا ذلك النسيج إلا بعد أن غيّبته أياديهم الآثمة بقرار دولي.

ومن قبل ذلك كان السيد موسى قد عمل وجاهد في إيران فيما قبل انتصار ثورتها المباركة مع طلائع الحركة الرسالية هناك، على لم الشمل وتوحيد الصف، ومحاربة كل من تشرّر. بل تعاون مع أخطر الجماعات

---

(١) كلمتان رائعتان لأمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) سيوافي قارئنا العزيز ملامح أخرى عن هذه الشخصية الفذة في فصل قادم.

المجاهدة المناوئة لنظام محمد رضا بهلوي.. أي حركة «فدائيان اسلام». الذين كانوا مراقبين مطارَدين وتحمل في سبيل معاونتهم ما الله به عليهم. وهاجر إلى العراق وجاب البلدان سعياً وراء العلم وخدمة للعلماء ونصرة للدين والمحرومين..

.. ها أنتم ترون عظمة شخصيته وكبر نفسه وجلالة شأنه.. لكن ذلك كله، لم يمنعه من أن يتواضع بكل صدق وحب لشقيقته الصغيرة ابنة الإثني عشر ربيعا. قبل أن يهاجر من إيران كان يطيل مجالستي ويحاورني ويسرّ إلي بمكنونات نفسه.. لقد كان يأنس لي صديقةً وأختاً رغم فارق العمر. لكأنما ذابت واضمحلت تلك السنون بيننا، وتلاشى ذلك الفارق.

كان يتساءل أمامي أحياناً عن مستقبل أيامه، ويبوح لي بذلك، ويرجوني أن أدعو لـه ليوفق، لإنجاز ما كان يعدّ لـه نفسه.. ويسألني ألا أنساه في صلواتي.

السيد موسى أعطاني ثقة وأمدني بقوة، لا أستطيع أن أصورها بكلمات تسطَر.

مبدعاً كان أخي، وخلاّقا، أعجز عن حصر أوصافه، وعن تحمُّد خصاله، وتعداد سجاياه.

❊ ❊ ❊

في حريم الانتظار

كانت أشواقي للروحانيات تنمو وتكبر وتتعاظم. كنت أذهب في ليالي الجمع، بمعية خالتي ـ (خالة أمي) ـ المرأة المحبَّة لي، إلى مسجد الإمام صاحب الزمان (عجل الله فرجه الشرف) في قرية "جمكران" في جنوب قم، للعبادة والضراعة. وننوي المبيت. فنقضي ليلنا، في الدعاء والتوسل. لي علاقة وطيدة تربطني بأهل بيت العصمة(عليهم السلام). فلقد تعرفت عليهم من خلال القراءة عنهم وعن صفاتهم، وحتى عن ملامح وجوههم المباركة، وشخوصهم الطاهرة. فتتبعت الروايات التي تسرد معانيهم ورسومهم. وكنت أهتم بتتبع آثارهم ومآثرهم.

ولقد كان لغائبهم (عجل الله فرجه الشريف) حضورٌ مميز في ضميري. فهو يعيش في وجداني أبداً. أبداً لم يغب قطُّ عني مذ حضرتْ حقيقتهُ في ذهني، وإن غُيِّب شخصه عن أهل الدنيا.

فلقد كنت ومازلت أردِّد دوماً و أُرتِّل: «ترى[1] أترانا ونراك. قد عابوا علينا تعلُّقنا بك واعتقادنا الراسخ فيك. سيدي إليك شدوي وترنُّمي.

---

(١) المقطوعة التالية من يراع قلم الكاتبة.

كلمات نسجتها قلوب متولهة في عشقك.. بل سبحات هائمة في قدس آفاقك:

«سامراءُ مدينةٌ قديمة.. إرثٌ لآلِ عليٍّ في ذاكرةِ الأيامْ..

سامراءَ هاكِ ندبتي.. هاك لوعتي. سامراءَ يا وحشةَ لياليكِ. يا بؤسَ بواديكِ. ما أكثر بواكيكِ. أرضٌ..هي سامراءُ للأحزان.. هي اليوم أرضُ الصمتِ والصقيع، كما كانت من قبلُ أرضُ البقيع.. سامراءُ أرضٌ للجياع.. مرتعٌ للأوجاع. ليلُها طويل.. كَلَيْلِ ولْهانٍ متيَّمٍ عليل، ليلُها يُعيل. تُرى متى هذا الليل يزولْ، ويشرقُ الفجرُ بلا ذهول.. بلا ذبولٍ.. بلا أفولْ.

متى تُغرِّد أطيارُك.. متى نقرأ عنكِ متى نسمع.. متى تُبْعَثين؟..

أسألكِ سامراءَ عن موسمِ القطاف.. عمَّنْ لَبّى وطاف، أنشدكِ عن صاحبِ الألطاف. أبلغيه يامدينةً تعرَّتْ في يومٍ من الأيام، أبلغيه لوعةَ العينِ والصّادِ والكاف «كهيعص»، أبلغيه عن جسدٍ مندوفٍ كَنَدْفِ النّدّاف، ورتِّلي آياتِ القهرِ على مسمعيْه، واسْرُدي.. وجيعةَ الخِدر..فجيعةَ الدّهر.. عنها ردِّدي.

أبلغيه اندلاعَ الشوق، كأنّه حريقٌ شبّ، كنسمةٍ باردة، اغتصبتْها حنجرةٌ مبحوحة، من هذيان ضائع.

سيدي: هو كأسُكَ أبحتَه.. أتحتَه للسقيا، تُرى أترانا ونراك؟

أه يا يومَ اللقيا، جاءَ الزرّاعُ يزرعون.. يبذرون..يبادرون.. ولا حقولَ ولا بيادرْ..

غيرُ ذي زَرْعٍ هذا الوادي.. غيرُ ذِي ضَرْع. انطوتِ الأيام، يُفتِّشون عن منقذ إلهي لهذا الوادي. وما زالوا في انتظار..

بحثتُ عن تعريف للحبِّ في الأسفار، لم أجدْه حروفاً. وجدتُه برداً.. لا بل نارْ. فتّشتُ عن الحبيبْ، فتلقفت حبَّه بحبْ. والودَّ بوداد، وهِمتُ بعشقي.. بتولُّهي في كلِّ وادْ.

هَدْهِدْ خاطري، وامْنَحني مايطهرني من الحنين. يامليكَ الحزن والشجى المعطور بوصال الجليلْ.. صِلني بصلةٍ من لدُنْك، فلولاك ما اتصلتُ بالحقيقة.. لولاك ما وجدتُ الطريقةْ.. لولاك ما سُلِك دربْ.. ما عُبد الربّ، ألا فعُدْ عليَّ.. ومن جودك أفِض عليّ..

هو يومُكَ يومُ الدلال. أروِني من برد حُبِّكَ.. ها أنا بالسرِّ أبوحُ، وأمحو الكتمانْ.. أثورُ على الزمان. ها أنا أبوحُ بسري قبل أن يباحَ.. قبل أن يستباح.

هذي يدايَ لك مشرعةْ.. ترجو عطاياك المترعَةْ. أعطني مِن كوثرك الأكثر. جد عليّ من قلبك الأزهر.. يامن تَوَّهتَ الفضائلَ وفيك تاهتْ. قد بشَّرَ بكَ الإنجيل.. و رتلتك المزاميرْ.

بك كان عرشَ سليمان وكلُّ الأديانْ.. فنزل فيك القرآن.

يا سيِّد الحجاز.. كم محن وإحنْ، وكم ألَمٍ ألَمّْ..

أين فسائِلُك وغرسُك، أين هيبةُ إسمِك؟ ها هو يوم الحضورْ.. إشارة الربِّ إلينا. ها هو يوم التجلي والظهورْ، وانجلاءُ الريب عنا.. ها هو التألُّقُ

والشهودُ.. ها هو السجودُ للمعبود هلَّ(١) علينا.

لكَ الله..هذي «نرجس» فوّاحةٌ بشذاك.. لك الله: «حكيمةُ» تُنْشِد.. تَنشَدُ لِعُلاك، لك اللهُ إمامَ الثقلين.. بورك يومٌ فيه ذكراك، وبُورِكَتِ الدهورُ به مادام ذكراك. بوركتْ أرض أقلّتْكَ، والسماءُ.. يا صنيعةَ السماءِ أمدَّتْك..

شعشِعْ يايومَ الأملْ.. وأسبِغْ علينا من حللِ الكرامةْ، بعدما اشترى الألَمْ.. بعدما اغتيل الأملْ. بعد ضياع المصيرْ، واختلاف المسيرْ. الحجازُ ضاعت.. والكوفةُ تاهت.. وفارس تلوّت.. وبلادُ الضباب ماعت.. وكلٌ في ضجيجٍ وارتجاجٍ و ارتعاجْ.

نفَقَ الإنسانُ على أرضٍ لا تُنبِتْ، مأخوذا بالصعقِ والحرقِ والخَرْق، قد اتسعَ خرقُه على راتقِه.. وغدا كالمُستَغِيثِ من الرمضاء بلفيح النيران.

تحنَّنْ عليَّ أيها الصِّدِّيق.. بدِّد ظلمتي.. فالله للمصدِّقين جازٍ ومثيب. لله أنت أيها الحبيبُ المجحود..».

* * *

(١) كيف للسجود أن يهل؟ إن كاتبة هذه الأسطر، قد رشحت منها هذه الكلمات بمناسبة ميلاد منقذ البشرية. وقصدت من ذلك أنه (عجل الله فرجه الشريف) قد أهلَّ في هذه الدنيا ساجدا.

على أعتاب المحبوب

كنت على مشارف الثالثة عشرة من العمر. إذ في ليلة هامت روحي في عالم الرؤيا، فرأيت أنّي أدخل الحرم الشريف للسيدة فاطمة في «قم» للسلام والزيارة[1].

---

(١) في هذا الفصل وفصلين لاحقين تقصص علينا العلوية أم جعفر ثلاثا من الرؤى المبشرات الصادقات التي كانت روحها الشفافة تستقبلها كثيراً في باكورة عمرها. وقد كانت للرؤيا الصالحة والمنامات الصادقة دور كبير في صياغة هذه الشخصية الطيّبة، وصقل روحها، وتهذيب نفسها، جنباً إلى جنب الغرس المبارك الذي زرعه في كيانها ذانك الأبوان الكريمان.

نعم الرؤيا الصالحة! فليس الأمر مجرد دَرْوَشة فارغة ولا أضغاث نفوس حالمة، بل هي سبحات روح عابدة، تحلق في آفاق الملكوت حين يقظتها، لتنعكس لها عوالم الطهر والكمال صوراً حيّة في منامها.

أكثيرٌ على فتاةٍ غضة، كانت في حادي عشر عمرها تحيي الليل وذووها نيام، حيث أنّهم لطالما استيقظوا فجأة في بهيم الليل ورُوِّعوا عندما كانوا يجدون جسداً صغيراً سابحاً في النور، ساجداً وراكعاً ومتهجداً. أكثير على مثل هذا الكيان الكبير في عالمه الصغير أن يوهب المبشّرات في حياته الدنيا؟ فلئن كانت نفسها من تلك النفوس الصافية، لم تنجسها جاهلية الدنيا وآثامها بأنجاسها، من لدن أيام نشأتها الأولى: روحاً رقراقة شفافة ترعرعت في إنسانها.. في محضن طاهر، وبدناً لم يشتد عظمه، ولم ينبت لحمه إلاّ على صدر مرضعة عابدة، لم تُرضع يوماً إلاّ متطهرة، ورضيعها في طهر. اغتذت رزقها صافياً حلالاً طيباً، مذ وُلدت، قد استدرته من ربِّ السماء يدان كريمتان، لسيِّد جليل من ذرية المصطفى ﷺ،

←

ترعرع هو بدوره في بيت من أعرق بيوتات العلم من الذرية الطيبة، ألا إنّ مثل هذا الطهر يستحق التأييد والمدد والإلهام من ربٍّ مُربٍّ كريم.. فليس مثل هذه الفتاة المحمدية ـ نسلاً وتربية ـ أقل شأنا عند ربّها من فتية آمنوا بربّهم وزادهم هدى، كما في قصة أصحاب الكهف.

إن الرؤيا الصالحة الصادقة من الأمور التكوينية الواضحة ذات الآثار المسَلّمة التي لا يصح أن تنكر، وهي ليست حكراً على المؤمنين والمسلمين بل أن غيرهم أيضا ينال قسطاً من عالم الرؤيا الصالحة فهي ألطاف إلهية يُعين بها بعض عباده من ذوي الأرواح الشفافة. فكيف بمثل هذه الفتاة الطاهرة منَبتاً وتنشئة ونمواً. إن من المشهود والمعروف تاريخياً أن للرؤيا الصالحة دور كبير في مسير الحركات الرسالية الكبرى. ولقد ذكرت في القرآن وفي السنة الشريفة.. فرؤيا إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، ثم رؤيا يوسف عليه السلام الشهيرة، وكذا رؤيا نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله بعمرةٍ آمنةٍ إلى بيت الله. نماذج شاهدة لدور ومكان الرؤيا الصالحة في مسيرة الإنسان الصالح.

وأما من السنّة الشريفة فلقد روى ابن عباس (رضي الله عنه): (أن أول ما ابتدأ به رسول الله صلى الله عليه وآله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم...). وقد ورد أيضاً أنها جزء من سبعين جزء من النبوة.. فهي إذن شيء من الوحي والإلهام. ولقد روى الكليني رحمه الله في «الكافي» بسند معتبر عن الصادق عليه السلام أنه قال: (رأي المؤمن ورؤياه في آخر الزمان على سبعين جزء من أجزاء النبوة).

ولقد أخبرنا الله في كتابه أنه أوحى إلى أمّ موسى عليها السلام، فكيف تم ذاك الإيحاء؟.لا شك أن الرؤيا الصالحة هي قناة هامة لمثل تلك العناية الربانية. بل أنه سبحانه قص علينا: أنه أوحى إلى النحل. وصحيح أن ذلك قد يفسر على أنه من هدي الغريزة ولكنه سماهُ وحياً. فكيف بإنسان صالح زكي المنبت والسلوك، موصولة روحه بالسماء عن وعي واختيار كالفتاة فاطمة ابنة العبد الصالح السيد صدر الدين آل الصدر إن تلك الرؤيا الصالحة هي ما فسَّر بها المفسرون قوله تبارك وتعالى: (الّذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة). هذا ما أورده الصدوق في «الفقيه» وعنه نقلها المفسرون كعلي بن إبراهيم القمي وغيره.فقد نقلوا جميعا قوله صلى الله عليه وآله وسلم حين سئل عن البشرى هذه؟ فقال صلى الله عليه وآله: (هي الرؤيا الحسنة يراها المؤمن فيبشّر بها في دنياه).

دخلت الحرم من ناحية صحن «كُهنِه»[1] واتجهت إلى الضريح المقدس لأجد هناك شخصاً غارقاً في النور، محفوفاً بجلال وجمال.. خطفني جلاله ليُصعق قلبي بذاك الجلال فبقيت أتملّى تلك الشمائل، وكلما هممت أن أبادر للسلام عليه، ترددت، فالشوق يدفعني والحياء يمنعني، وصرت أراود نفسي حتى وجدتها مندفعة نحوه ببراءة وعنفوان. قلت لـه في خضوع وتخضع، جاثية بين يديه، استلهم قدسه: سلام عليك، أأنت الموعود؟ أأنت صاحب الخضر وعيسى النبي؟ أأنت المهدي وصاحب هذا الأمر؟

قال: بلى أنا هو. فشعرت برنين آسر، حين تحدّث إليّ، وأحسست ببرد محبة تجلو ما بداخلي، قلت: آغا[2] (أي سيدي): الوقوف بين يديك زبدة العمر.

قال: ما حاجتك؟ أي فاطمة؟. قلت: أمّي، أخاف عليها الفوت، وأن تكون من الهالكين، منذ يوم أبي لم يبارحها الحزن، ولم تسله، قد ذابت عافيتها، أسىً ولوعة. هلاّ تأتي دارنا لتقرأ عليها من تراتيل دعائك؟ فحنا على يتمي وقال لي: بلى، أنا آت معك.

فمشيت معه إلى دارنا. وقلت: تفضّل آغا. فصعد إلى عليّة المرحوم والدي، ثم جيء لـه بفنجان (استكان) من الشاي، ووضع أمامه، فأدناه من فيه ولامس شفتيه، ثم أرجعه مكانه، قلت لـه: أتأذن يامولاي أن

---

(١) كلمة «كُهنِه» في اللغة الفارسية تعني القديم.. فهذا الصحن أقدم ساحة ألحقت بالحرم الشريف.

(٢) لغة السيدة العلوية أم جعفر في صغرها كانت الفارسية فقط.

أشرب من بعدك الإستكان؟ فأذن. وصرت أرتشف ما فيه.. وأنا أبثّه مشكاي وأبوح بما في نفسي. قلت: آغا.. هذه الشربة، راعَ بها فؤادي، لم أعهد مثلها من قبل. وقد وقع في قلبي أنه زادي لما هو آت.

وقلت: سيدي إن أمّي مريضة وأخاف أن أفقدها كما فقدت أبي للتوّ، أخاف عليها الفوت. أنشدك أن تدعو الله، لتعيش أمي مائة سنة، فرد علي قائلاً: إن شاء الله. ولم يزد. فاجتاحت قلبي موجة اطمئنان، وشعرت بارتياح بالغ، كأن يداً ربتت على صفحة قلبي. ثم في تلك اللحظات من رؤياي العجيبة، انقدح في ذهني ما كان قد طلبه مني أخي السيد موسى يوماً مّا، إذ كان يعتقد بشفافية روحي، ويعلم مني كثرة الرؤى الصالحة.

فقلت: سيدي: إن أخي موسى عازم على الذهاب إلى النجف الأشرف. وهو يتساءل دوماً عن مستقبل أيامه، ويكاشفني بذلك. إن الحيرة تلفه، فهل سيقدَّر لـه البقاء في مدينة قم؟ أم إنه سيوفق للذهاب إلى النجف الأشرف؟[1] ويواصل مشواره العلمي فيها؟ فأجابني: إن أخاك السيد موسى سوف يتبوأ مقام السيد عبد الحسين شرف الدين في لبنان! وكان السيد عبد الحسين، الذي تربطنا به قرابة ورحم، هو ابن خالة والدي، لا يزال حينها على قيد الحياة.

ثم سألته سؤالاً ثالثاً: عن الآتي من أيام عمري، وعن زوجي

---

(١) كانت النجف في ذلك اليوم هي الحاضرة الكبرى للحوزة العلمية. بينما حوزة قم كانت في بدايات تأسيسها ونهضتها.

المحتمل، وإن كنت خجلى حين سألته عن هذا الشأن. لكنّ استئناسي بحديثه واطمئناني إلى شخصه.. كل ذلك ألهمني شجاعة وقوة، ما كنت أجد مثلهما لولاه.

فأجابني إجابة وافية عن هذه الهواجس. وإني أتذكر الآن بشكل مجمل ومبهم أنه فصّل لي ما ينتظرني. ولكن بعد استيقاظي وجدت أنه لم يبق في خاطري شيء مما أجابني به عن مستقبل أيامي. إلاّ أنني حفظت منه الوعد بمائة عام لعمر أمّي، والإخبار باستقرار السيد موسى في لبنان، وحفظ الدهر معي ذلك. وصدّقه الزمان! حيث عاشت أمي وعمّرت، فبلغت التاسعة والتسعين، حتى أنها صارت تضج من هذه الحياة المتطاولة حين يشتدُّ عليها التعب، وتحاصرها أغلال الشيخوخة، وتهاجمها أمراض الكبر. إضافة إلى أحزانها ولهفتها على ابنها الإمام المغيَّب السيد موسى وحنينها الدائم إليَّ. كانت تكرر حين تقوم وحين تقعد: (أوه من فاطمة خانم.. طلبت من صاحب الزمان أن أعيش مائة سنة. وها أنا أحملها على كاهلي المجهد.. قرنا من الوجائع...).

وأما ما جرى للسيد موسى، فأهل الزمان أدرى بما جرى.. وأما ما أنسيتُه مما يرتبط بشأني، فإني أدرك الآن بعد هذا العمر المنكوب، أنه ليس مما ينسيه الشيطان، بل هذا النسيان كان رحمة تنزلت عليّ من الرحمن الرحيم.. إذ لو كنت ذاكرة لـه لما قبلت وما رضيت أن تجري الأقدار بجوائحها عليَّ كما قد جرت. ولكني أُنسيتُها، واستقبلتها وقبلتها مسلِّمة راضية. فلله المنة والحمد.

❊ ❊ ❊

نذر ونباشير

في تلك الفترة من حياتي.. كنت أعيش الحياة كسائر قريناتي لكن روحي كانت تهوِّم في عوالم ما وراء الدنيا ليلي ونهاري. وكان ذلك ينعكس لي دائما في منامات تترى، كثير منها كان معبراً وذا معاني عجيبة، فلعل الله كان يلهمني بين الحين والآخر لطفا من ألطافه وإشارة من إشاراته من خلال منام مفعم بالرموز.. التي تكفلت الأيام بكشف أستارها وصارت تتجسم لي واقعاً بعدما كانت مثالا (رموزاً في عالم المثال).

ومن ذلك أني عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، سنحت لي آنذاك رؤيا ذات مغزىً عميق، في ليلة من تلك الليالي. فقد بتُّ تلك الليلة قلقة ساهمة ولا أدري ما الذي أسهرني.. ولكنّ سِنةً من الكرى اختطفتني، وغرقت بعدها في النوم. ولا أدري كم استغرق نومي من الوقت، إلاّ أن ذلك سبق الفجر ببرهة وجيزة. إذ رأيت كأنني واقفة مع شقيقاتي: بتول وزهراء ورباب في وسط ساحة الدار التي تظللها أشجار السَّرو. رأيتنا واقفات نتسامر. وإذا بالباب كأنها تطرق. ولما فتحت إحدانا، دخلت امرأة من أهل الأرياف، أعرفها. ولطالما زارتنا في عالم

اليقظة هذه المرأة. وكانت تجلب معها، في كل مرة شيئاً من الفواكه أو المجففات أو الحبوب، فنشتريه منها. كما قد يشتري غيرنا. وكان مما تجلبه أحيانا: واحداً أو اثنين من أجنّة النعاج الحوامل. فلقد جرت العادة عندنا أنه عندما تذبح الشاة وهي حامل، يؤخذ جنينها ويباع. وهو شيء متعارف في إيران. ويدخل في أكلات شعبية مشهورة يسمونها (القوزي).

المهم أنني رأيت هذه المرأة في منامي هذا وقد جلبت معها وحداً من هذه الأجنّة. لكنه في هذه المرة لم يكن يشبه أجنّة الخراف المعتادة في عالم اليقظة. بل كان ـ في الرؤيا ـ مِسخاً شبيها بتلك الأجنّة. فكأنما وضعته المرأة الريفية أمامنا، وخرجت. ولما نظرتُ إليه، لم أجده حِملاً، بل بدا كذئب قبيح، بل كان شيئاً آخر، ثم تحول وحشاً مخيفاً، بل كأنما صار يتبدل ويتغير، ثم كأنه صار ينتفخ ويكبر، وتتمدد أطرافه، حتى كأنما صار بحجم الثور.. كبيرا مترهلا، وجهه بدا لي كالعقرب، أطرافه كالأسنّة، لونه قبيح، وريحه كريه. ثم صار كأنه يتلفت وينظر شزراً، كأنه يبحث عن بغية محددة. وأدركت أنه يرمي بنظراته المرعبة تجاهي بالذات. فامتلأنا منه رعبا، وولت شقيقاتي منه فراراً واتجهن نحو القبو السفلي للبيت (السرداب)، وتركنني وحدي أواجه ذلك الخطر المحدق. وما كان مني إلا أن ولّيت هاربة، فصار ذلك المسخ المرعب يلاحقني في داخل نفس الساحة. إلى أن شعرت بإنهاك شديد، ويأس بالغ من النجاة.

هنا تداركني شعور مميّز بأنني في كابوس جاثمٍ على روحي. ولقد جربت هذا الشعور في كوابيس سابقة. وكنت حينها أدرك أن ما يجري هو مجرد منام. وإذ ذاك كنت أعمد إلى إيقاظ نفسي أو أحاول الطيران إلى الأعلى. وهكذا أدركت هذه المرة أنني أعيش كابوساً مثالياً. وعندها قررت الطيران والارتفاع. فحركت يدي مرفرفة كما الطير يصنع بجناحيه. وطرت.. رأيتني أطير، ارتفع جسدي إلى الأعالي، حتى صرت انظر إلى الأسفل. فرأيت دارنا ومنطقة سكنانا.. بل بلدة قم بكاملها، شاهدتها تحتي تتصاغر شيئاً فشيئاً، كما يشاهده راكب الطائرة اليوم.

وحلقت في نشوة عظيمة، صاعدة متعالية. حتى ولَجت ما نعرفه بالسماء. وسماء بعد سماء. وأنا في خفة متناهية. أكاد أشعرُ بجسدي يتلاشى. ولكن أحاسيسي ومشاعري تتعاظم. وشعور بالرضا يغمر وجداني. إلى أن بلغت قلعة عظيمة رائعة فولجتها طائرة. وهناك صُوِّرت لي عجائب، حقاً هي أغرب من الخيال.. لا يمكن لبشر في الدنيا أن يطّلع عليها. ولا يمكن أن أصف منها بأكثر مما عبر عنه الحديث الشريف:

((فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)).

فهناك وجدت نفسي كأنما أمشي على أرض رُصِفت: رخامها فضة، وترابها الورس والزعفران ورضراضها الدُّر والياقوت. اصطفّت في جُنُباتها أشجار عظيمة وارفة، غُيِّبت عروقها في كثبان المسك، على سواحل أنهار تجري، باطنها عميق، لكنه ظاهر قريب. وظاهرها يترقرق كما البلّور يَشُفّ. متى ما هبّت نسائم ناعسة، حركت أغصان شجرها، فكأنه العزف على أوتارٍ.. ألحانها كالهمس بين حبيبين.

هنالك شعرت ببرد الرضا والسلام يجلو قلبي، ويجلّل كياني. هناك تساءلت: أهو الإنعتاق الأبدي؟ أهذا ما وعدنا به من بعد الموت؟ إن ما أراه لهو المصداق الأكمل لما كنت قرأت وسمعت عنه. هو ما كان والديَّ يبشراننا به: إن أطعنا واستقمنا. ولكن، أين الحور والولدان؟ كذلك تساءلت في نفسي.

والعجيب أنه بمجرد مرور هذا الخاطر والاستفهام في ذهني، انبعثت في وجهي حورية لم تشاهد عيني مثلها حسناً ودِلاً وجمالاً. (نعم خانم)[١].. هكذا ابتدأتني الحورية بالحديث بصوت دافئ كأنه الأناشيد. وتابعت قائلة: (مُريني بأمرك سيدتي).. ففهمت بأن هذا المخلوق الطاهر ينبري للخدمة والطاعة فور التفكير فيه. فخفت أن أكون قد شققت عليها. فأجبتها في خجل وحب بالغين: لا يا عزيزتي، إنه مجرد خاطر، سنح ببالي.

وبينما كنت مشدوهة بما أنا فيه، مرَّ بقربي كائن لطيف، يتلألأ جمالاً وبريقاً، يرفل في أثواب النور، يكاد ضياؤه يخطف الأبصار. فأوحى إليّ بتودّد، أنه ملاك يأتمر بأمري، ويقوم على خدمتي. ثم أبصرت بجانبي كوة أو نافذة، فأحببت أن أتّجه صوبها لأشرف على ما وراءها. وإذا بها تزحف نحوي، وتنخفض لي دنواً. وأصبحت أُطِلُ منها على رياض غنّاء وحدائق مونقة ذات بهجة. وفيها من البدائع والمباهج مالا يتصوّر. ولاحت من بعيد لناظري شجرة خوخ، كأن ثمارها، البدور الناطقة،

---

(١) إلى ذلك الحين من عمر السيدة أم جعفر لم تكن تتقن من العربية إلاّ كلمات محدودة. فكانت الفارسية هي لغة تفكيرها ومنطقها.

وتذكرت عندها أن من صفات الجنّة التي قرأت عنها في يقظتي، أن المرء فيها، متى ما اشتهى شيئا، سعى ذلك الشيء إليه بنفسه. وفي تلك اللحظة، حين حادثت بذلك نفسي، فوجئت بتلك الشجرة المباركة، تحدب علي بحنو حبيب، وتدلي إليّ بغصن منها، وتقدم لي ثمرة على طرفه لتلقمني إياها بين شفتي في دلال أخّاذ. وكأنّ كل شيء من حولي ناطق، يعبِّر عن أنسه بوجودي في بلاغة وشاعرية. وما قضمت من تلك الثمرة، قضمتي الأولى، حتى شعرت بقشرتها المخملية الناعمة تداعب وجناتي، دونما يدٍ أمدُّها، أو جهد أبذله.

وحين قضمتُ منها الثانية، أنهرت في جوفي ماءً كما الرّضاب، كأنها عين قد انبجست بداخلها!

.. نعم إنها الجنّة.

آنئذ تذكرت المرحوم والدي، الذي طالما حدثني عن هذه المشاهد، ورغبني فيها. فهاج شوقي إليه. وأحببت أن أَلْتَقِيَه وأتعرف منه على موضعه ومقامه هنا. وما التفتُّ حتى رأيته قدّس الله روحه، متكأً على أريكة من الذهب الخالص، في نعيم وتدلّل وحبور. ورأيت عن يمينه وشماله آخرين من السادة الهاشميين الأجلاّء. يتجاذب معهم أطراف الحديث في وداعة وهدوء. وقد استردّ شبابه، فصار كأنه في الثلاثين من عمره، نضارةً وجمالاً وجلالاً. قلبه نابض بالسرور. والبشر يطفح من وجهه المشرق. قد قام بين يديه الغلمان بصحاف من الذهب، ملؤها الفاكهة والرياحين.

فاكتفيت بما رأيت من حالهﷺ. وانشغلت بمباهج النعيم اللامتناهي من حولي. وطمعت في التعرف على المزيد والمزيد من روائع دار الرضوان الأبدي. خطوت قليلاً لأراني قد انتقلت بعيداً، حيث الأنهار تجري صافية رقراقة. تشفُّ أعماقها الغائرة ـ ولكن القريبة للمتناول ـ عن أحجار وحصيات انبثت في حنايا قيعانها وعلى ضفافها كاللؤلؤ. دققت النظر وإذا بتلك الحصيات والأحجار تبتسم في وجهي، وكأنها ترحب بي وتشجعني، وتسلِّيني عما كان قد أهمَّني، قبل وصولي إلى هذه الرياض الغنّاء، حتى انتشيت ورضيت.

لم أكن حينها بحاجة إلى أن أسأل عن أي شيء يوجد أو يجري من حولي. فلو لاح لي ما لا أعرفه، لنطق بنفسه معرِّفا بنفسه. ولو تعجبت من شيء لا أفهمه، لأُلهمتُ على الفور ما كنهه!

كل ما هناك: ناطق في صمت، جليٌّ وإن كان في خفاء.. كل شيء يشعرك بأنه قريب إليك، حبيب إلى نفسك. بل كأنه جزء مكمل لكيانك. نعيم لا يَبيد، وحبور لا يضمحل، وسرور لا تشوبه شائبة.

في تلك اللحظات التي تساوي عمراً دائماً، التقيت إحدى قريباتي، التي أدركت مباشرة عند رؤيتي لها أنها لا تزال في دار الدنيا حيّة ترزق. فما الذي أتى بها إلى هنا؟ تفكرت ملياً عن مغزى ذلك. وبعد تبادل التحية سألتها: كيف أتيتِ إلى هنا، وبم نلتِ هذا المقام؟ فأجابت: لقد أديت عمل أم داود(١)، فصُمت لـه ثلاثة أيام، وبعد إتمام العمل، سقطت

---

(١) هذا العمل هو أوراد وأعمال مندوبة، عظيمة الأثر والقيمة، يستحب أن تُؤدى، في كل سنة، في يوم الخامس عشر من رجب.

من سلم الدرج وغبت عن تلك الدار فوجدت نفسي[١] هنا.

استأذنت قريبتي تلك، لأكمل مشواري، مأخوذة بما انْشَدَّ له لباب روحي، أتفرّس في تلك المنازل العاليات، والدرجات المتفاوتات. ثم استوقفتني لافتة، كتب عليها: مستشفى الجنة!! عجبا كيف يكون لهذه الديار الطهر، النقية من أي سوء على الإطلاق، حاجة إلى طبابة؟ إن الله جل وعلا هنا هو الطبيب، وما من مرض ولا حزن ولا ألم؟

دفعني الفضول لاستكشاف ما بداخل هذه المستشفى، فدخلت. وهناك وقعت عيني على سرير رقدت فوقه شقيقتي بتول، وكأنها في حال مخاض. وما لبثت أن وضعت مولودها ثم توفيت.

هنا انتبهت من نومي، وحمدت الله على عدم كون هذه الولادة ثم الوفاة واقعة في عالم اليقظة. إلا أنني بقيت بقية الليل أتفكر في هذا المنام، وهذه الرؤيا المشحونة بكنوز الأسرار والرموز الرائعة، التي أدركت مغزى بعضها سريعا. وبقي بعضها لغزاً كشفته الأيام تباعاً.

لقد تزوجت أختي بتول في حياة المرحوم سيدي الوالد، من طالب علم. لم يكن من أقاربنا، بل لم يكن من السادة الهاشميين. ورغم أن كثيراً من بيوتات العلم والسادة منهم، كانوا يمانعون من مصاهرة غير الهاشمي. غير أن والديﷺ كان حرصه على مصاهرة المؤمن الكفء،

---

(١) هذه المرأة القريبة عافاها الله وأمدّ في عمرها لاتزال على ظهر الأرض تتردد أنفاسها في صدرها، رغم مضي أربع وأربعين سنة على هذه الرؤيا الشائقة، والتي لم أبلغها بشيء عنها أبداً.. خوف أن تستوحش لأن فيها ذكراً لموتها. وإن كانت العاقبة مما يبشّر بها، وتُسترخص الدنيا من أجلها.

مهما كان نسبه، هاشميا كان أو لم يكن. المهم أن يعرف منبته ودينه ومسلكه. وفي الحقيقة وُفّقت العائلة لمصاهرة مثل هذا الرجل الكريم. واعتبرنا وجوده فينا، منة إضافية من المولى الجليل.

فقد تميز من بين أقرانه من أصهار العائلة بتعامله الأبوي، وسماحته وصادق ودّه لكل أفراد البيت، إلا أنّ بتولاً أختي ـ وبفضل من الله ـ لم يقدَّر لها الإنجاب. وهذه اعتبرتها ـ وحدي على الأقل ـ لطفاً إلهياً.

فقد كنت طوال السنين التي عشتها مع أختي بعد تلك الرؤيا أدعو الله ليل نهار ألاّ يقدّر لها إنجاباً. كنت أقول لنفسي لا خير في وليد لا أعرفه، يتسبَّب في حرماني من شقيقة كانت لي أما رؤوفاً، ومحضنا ألجأ إليه، كما كان غيري، يلوذ بها، لحنوها ووادها الذي كانت تمنحه لكل من يحتاج إلى رعاية. ومع أنه لم يكن فارق السن بيني وبينها كبيراً. إلاّ أنني كنت ورباب صغرى أخواتي[1]، نلجأ إليها في كل صغيرة وكبيرة.

لقد قضت بتول مع زوجها «الشيخ هادي طالقاني» أحد عشر عاماً من الوفاق والحب والوئام. انتهت بمأساة فقدها لـه، على أثر حادث أليم، فرحل إلى جنان الخلد، وتركها في غضاضة الشباب لتعود إلى بيت العائلة، ولترجع قطب الرحى للبيت بأسره، للأخوة والأخوات، وأبنائهم وأزواجهم. تشدّ أزر السيدة الوالدة التي كبرت وتعبت.

ودارت رُحى السنين إلى أن حلّ الأجل المحتوم. فبعد كفاح مرير، ومصابرة دامت سنين مع الداء العضال، استسلمت أخيراً (بتول) وانهارت

---

(١) كانت أختي البتول تكبرني بـ خمس سنوات. وتصغرني السيدة رباب بثلاث سنوات.

مقاومتها، حتى جاء يوم، أسلمت فيه الروح لباريها، وانتقلت إلى دار البقاء، لتنال ما أعدّ الله للصابرين.لقد توفيت في سنوات محنتي بالعراق من بعد استشهاد سيدنا أبي جعفر، وأخفي عني خبر وفاتها،حرصا من الأهل ألاّ يزيدوا آلامي. ولم أعلم بوفاتها، إلاّ بعد سنوات طوال.

من ذكرياتي مع شقيقتي بتول. أنها طلبت مني يوماً، أن أذهب مع (ننه گوهر) لنشتري مقداراً كبيراً من الطماطم لتصنع منه رُبّ (معجون) الطماطم، إذ كان ذاك موسمه. اشترينا الطماطم وذهبنا به إلى دار سكنى أختي بتول. نزلت إلى القبو، حيث بيت المؤونة لأجلب أواني الفخار، وذلك للمباشرة في إعداد المعجون، وقد أحببت أن أصنعه لها، تُساعدني (ننه) في ذلك، تطوّعاً لتوفير بعض الراحة لأختي العزيزة. فقد حباني الله القدرة على إنجاز أي عمل، وإتمامه بدقة وسرعة. وإذا أقبلت على العمل، بذلت لـه كلّ همتي وجوارحي. صعدنا إلى الأعلى، وتوجهنا إلى فناء المنزل، حيث يؤدى فيه هذا العمل عادة. فباشرت أغسل الآنية مع ثمرات الطماطم، ثم شرعت في فرمها وعصرها، وأفرغتها في آنيتها لطبخها على النار، وفي أثناء انهماكنا في عملنا، صرخت (ننه) وصارت تولول، والدم ينزف من يدها بغزارة، إذ شقت يدها قطعة من الفخّار كانت حادّة مسنّنة. وبسرعة خاطفة، نزلت سرداب البيت، لآتي بعلبة احتوت على مقص وملقط، وقطن وإبر، ومطهرات للجروح. فقمت بإجراء عملية جراحية كاملة، فقصصت الجلدة المنشقة، ونزعت من الموضع نتف الفخار العالق بالملقط، وذلك بعد أن عقمت كل الأدوات،

ثم قمت بتطهير موضع الجرح، ولففته بعناية، وضمّدته لها، فارتاحت (ننه) واسترخت. وبتول في ذلك كله لا تدري. وكنت في السادسة عشرة من عمري.

* * *

إلى ربوة ذات قرار

انطوت الأيام، لأدرك الثامنة عشرة من عمري، وقد تزوج كل إخوتي وأخواتي. ولم يبق في البيت مع أمي سواي أنا ورباب، أما سماحة السيد موسى، فقد انتقل إلى لبنان واستقر هناك، ليملأ فراغ الإمام عبد الحسين شرف الدين بعد وفاته. متنقلاً بين النجف ولبنان وإيران. وفي النجف تعرف السيد موسى هناك على أبناء عمومتنا، الذين لم نلتقهم فلم يسبق لأحد منهم أن زارنا في إيران، ولامنا إليهم كذلك. صحيح أننا كنا نعرف أسماء شخوصهم، ونتابع أخبارهم التي كانت تصلنا مع زوار العتبات المقدسة في إيران، أو من خلال الرسائل، والتي كانت نادرة في ذلك الوقت. حتى أنني أتذكر أنه قد وصلت يوماً رسالة إلى والدي من ابنة أخيه السيد حيدر والد السيد الشهيد. وأقصد هنا آمنة ابنة عمي، الشهيدة بنت الهدى.

وكم فرح والدي بتلك الرسالة لما رآها، قد كتبتها ابنة أخيه باللغة الفارسية. فانبهر لنباهة وقدرات ابنة أخيه التي اكتسبت الفارسية ممن كنّ يتقِنّها هناك من نساء المحيطين في النجف.

هنالك التحمت الوشائج الصدرية من جديد، حيث توطّدت علاقة السيد موسى بابن عمه السيد الشهيد محمد باقر. فغدت علاقة مثالية، صميمية، كلٌّ منهما كان يعتز بالآخر ويفاخر به ويتفانى في خدمته و يتفداه. لم أر ما حييت أخوةً حميمية خالصة بين اثنين، كالتي كانت بين السيدين «أبي صدري» و«أبي جعفر»[١] الصدر. كل منهما كان ينظر إلى الآخر بقداسة وتقدير بالغ. وحتى إذا تناديا، فلا يسمع منهما إلاّ لفظ: (مولاي/حبيبي/سيدي).

في ليلة فريدة من ليالي تلك السنة عرضت لي رؤيا، فكانت لطفا وميعاداً لرؤية جديدة بكل سرياليتها ورمزيتها فيما بعد: رأيت نفسي في غابات دماوند[٢]، وكنّا في الواقع نذهب إلى هذه المنطقة أحيانا في فصل الصيف، للاستحمام والترويح مع أخواتي المتزوجات وعوائلهن. وقد كان بعضهن يقمن في طهران. ومنطقة دماوند تعد قريبة نسبياً من طهران إلى الشمال منها. وهي منطقة، مرتفعة بديعة، مغرقة بالخضرة والزروع والأشجار الوارفة المثمرة والرياحين العطرة والأزهار المتنوعة، كأنها قطع من الجنان تناثرت على الأرض، تذكرنا بالمعبود وعجائب خلقه، تجري أنهارها في كل اتجاه. وتُرى جداولها تتلوى بين الدروب،

---

(١) لقد تطورت العلاقة بينهما وبلغت حداً جعل السيد موسى لا يستغني عن زيارة العراق بين فترة وأخرى للاجتماع بابن عمه وصديقه ورفيق جهاده وخاصة عندما كانت تضيق الدنيا بأبي صدري، ولا يجد ملجأ يفرّ إليه.. فكان يطير إلى العراق ويحلّ علينا ضيفا (بعد اقتراني بالشهيد)، ولا يخرج من عندنا إلا وقد أزاح مثل الجبال عن صدره.

(٢) مناطق جبلية. خلاّبة. بل هي قمة مرتفعة شهيرة تقع إلى الشمال من طهران.

شرايين حياة لتلك الأرض الساحرة، تنساب مياهها، كأنها البلور. ورؤياي التي أشرت إليها عرضت لي في ليلة غاضية، لم يبدد ظلامها سوى خيوط أشعّة، أُرسلت من قمر مودع في أفول.

رأيت كأنني أمشي في تلك الغابات التي وصفت، قاصدة جهة الينبوع، صاعدة مع التِواء الجداول، مهتدية بعكس اتجاه جريان الماء المنحدر، فالتَقيت فلاحتين من نساء تلك المنطقة، ترتديان ثياب الريف المعتادة. فصعدتا معي إلى قريب من النبع. وفي محادثتي لهما، سألتهما: هل المنطقة آمنة من العيون المتلصصة؟ أأستطيع أن أغتسل في إحدى هذه الترع، دون أن يراني أحد؟ إن هذا الماء الرقراق، قد أغراني صفاؤه وتدفقه وبرودته.

قالتا: نعم تستطيعين ذلك بكل تأكيد وأنت آمنة، فهذه أرض لا يطؤها أحد في مثل هذا الوقت. فرميت بنفسي في الماء، أتقلب فيه كيفما أحببت، قفزاً وعَوْما وغوصاً. وانغمست بكامل وجودي إلى قعر الترعة، حتى لكأنما تلاشى وجودي، وفي العمق وجدت أني ألج عالما مختلفا، فهبت من ذلك، وخرجت مسارعة إلى خارج الماء، أبحث عن عباءتي وخماري. وإذا بي أرى كأن تينك الفلاحتين تحمل إحداهما في يدها قطعة قماش خضراء جذابة مزركشة، حيكت بخيوط الذهب، تثنّت على بعضها ولُفّ بداخلها ثياب خضر من سندس وحرير أخضر. والمرأة الأخرى. كأنها تمسك بقطعة خضراء أخرى تلف بها صندوقاً من العاج يغص بالدر والياقوت واللؤلؤ والمرجان وكل أنواع الأحجار

الكريمة. وفيه من ثمين الزينة ما أراه أول مرة!

فقالت: هيا ارتدي هذه الثياب وتزيني بهذي الحلي. فهم هناك ينتظرونك!

قلت: لا، هذه ليست لي، فأنا قفزت إلى الترعة بكامل ملابسي وها هي تقطر مبتلة، أنا أبحث عن عباءتي وخماري، حيث تركتهما على ضفاف الجدول، ولا أجدهما الآن. فتجادلت معهما على ذلك وألحتّا، ورفضتُ. لكني أذعنت لهما بعد إصرارهما، وتأكيدهما أن هذا كلّه يخصني دون غيري.ورغم إذعاني، إلاّ أن حيرةً داخلتني، وصرت أتساءل في نفسي، أكلّ هذه الحلي والثياب الثمينة لي؟ من أين أتت، ومَاذا يعني ذلك؟ ومن هم أولئك المنتظرون؟ بقيت أقلّب هذه الأسئلة بصوت مسموع إلى أن انتبهت من النوم، وذاك السؤال الحائر يتردد على لساني.

وعندما تيقظت تماماً، تذكرت الرؤيا، «الرؤية»، ووقع في قلبي خاطر، فخجلت واستحييت مما راودني، وظل حيائي يمنعني من أن أذكر منامي لأمي أو إحدى أخواتي. وما هي إلاّ أيّام حتى جاءتني والدتي يوماً تقول: (رأيت البارحة في منامي أن أحد السادة المعممين دخل البيت وبجانبه سيّد آخر يرتدي البنطال، وقد لف ـ الأخير ـ وشاحاً أخضر حول عنقه، كعلامة على كونه سيداً هاشمياً. فصرت أردد بالعربية: جاء سيّد محمد باقر). ولأن أمي لم تكن تحسن الكلام باللغة العربية، ولا تميّز بين ضمائر المذكر والمؤنث، فقد كانت تردد في

منامها: (إجتٍّ سيد محمد باقر) بلهجة عراقية مكسرة.

ومن الجدير ذكره أن أمي لم تكن قد التقت السيد الشهيد إلى يومها ذاك ولا رأته و لا وقع نظرها حتى على صورة لـه(١)، وإن كانت قد سمعت باسمه وعرفت عن شخصيّته إجمالاً.

بعد فترة وجيزة، وفد علينا شقيقي السيد موسى من لبنان يزورنا، وكان قد استقر في تلك الفترة في لبنان استقراراً كاملاً، كما ذكرنا سابقاً، وبعد وصوله بأيام استدعاني السيد موسى وانعزل بي في ركنٍ ما، وفاتحني بتقدم الشهيد السيد محمد باقر ابن عمي لخطبتي فانكمشت وخجلت، وأبديت التردد، بل الرفض، فلم يقبل مني أخي هذا الموقف، وطلب مني تبرير رفضي. فقلت: لقد رُبيت في بيئة مختلفة عن البيئة، التي ربى فيها السيد محمد باقر، وأخاف ألاّ أنسجم مع مجتمع النجف، لاختلاف بعض العادات التي تعودت عليها هنا. ثم إنّ هنا أهلي، ولا أستطيع فراقهم، والدتي عزيزة عليّ لا أقوى على فراقها. ولن يستطيع ابن عمي تلبية رغبتي في زيارة قم متى أردت ذلك، لعسر وضعه المادي، فأنا أعرف أن بيت ابن عمي في العراق يعانون من ضيق ذات اليد، والنجف غربة بالنسبة إلي.

ثم إني أسمع أن رجال العرب يتزوجون مثنى وثلاث ورباع!،

---

(١) رؤيا أمي واضحة المغزى، فقد كانت تعني أن رجلين سيدخلان في العائلة. فالسيد محمد باقر الصدر قد تكهنت به روح أمي في المنام ـ رغم عدم معرفتها التفصيلية السابقة به، وأما الآخر فقد تبيّن أنه السيد حسين شرف الدين زوج أختي رباب.

فأخاف أن يأتي لي بضرة تكدّر عيشي. ثم عليك أن تراعيني وتأخذ بالاعتبار رأيي، فإني أرى بعض الطلبة[١]، يهملون ارتداء الجوارب، تساهلاً منهم وإهمالاً لأقدامهم. فتتشقق أسافل كعوبهم وتتفطر.

هنا أغرب السيد موسى في الضحك، حتى تثنّى وتمايل، واسترسل في ضحكاته وتعليقاته. ولما سكن عن موسى الضحك، قال لي وعلامات الجد[٢] ترتسم في محيّاه: (اسمعي يا فاتي خانم (أي فاطمة):

---

(١) الطلبة: مصطلح شائع في الحوزات العلمية في قم والنجف، يقصد منه طلاب العلوم الدينية صغارهم وكبارهم.

(٢) الذين عايشوا الإمام السيد موسى عن قرب، عرفوا عنه: أنه رغم علوّ مكانته، وقوة شخصيته، ورصانة سلوكه، ورغم جديته الدائمة وصرامته في المواقف التي تتطلب ذلك.. إلاّ أنهم عرفوا عنه أيضاً أنه كان دمثا، حلو المعشر، خفيف الظل، سريع الإبتسامة، قد تجري النكتة على لسانه، يستملح المواقف الظريفة، وقد يشارك فيها، بل قد يصنعها!

وهنا نرى من المناسب التطرق إلى نزر يسير من بعض الخواطر التي تروى عنه، وإن كان محور الكتاب يدور حول حياة شقيقته، زوج السيد الشهيد (أم جعفر)، ولكن حق الوفاء لهذا المجاهد الكبير والسيد الجليل يقتضي ذلك.

من تلك الخواطر حادثة رواها سماحة الحجة السيد عبدالهادي الشاهرودي حفظه الله تشير إلى شيء من سجايا الإمام المغيب. قال: لقد عرفت السيد موسى الصدر ورأيته أول مرة بعد مجيئه إلى النجف في مجلس المرجع المرحوم آية الله السيد عبدالهادي الشيرازي. ففي ذلك المجلس صعد خطيب مشهور آنذاك هو (الشيخ الواعظ الخراساني) رحمه الله. على المنبر، وكان ذلك الخطيب معروفاً بغيرته الدينية وشجاعته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم مداهنته لأحد في ما يراه حقاً. فكان ينتقد على منابره أي سلوك أو تصرف يراه خاطئاً ومُشينا أو منحرفا، ولو صدر من الوجهاء والعلماء. ولقد اتفق في تلك الفترة أن رُكّب لأول مرة في أعلى مآذن الحرم العلوي الشريف مكبرات الصوت الكهربائية، ولم تكن معروفة قبل ذلك. فأغضب هذا الأمر خطيبنا المذكور. إذ اعتبره من المنكرات. وأنتقد على منبره ذلك، مراجع الدّين الذين يرضون بما يرتكب من بدع محرمة في

المجتمع وهم ينظرون ويسمعون وكان مما قال: (وخاصة أن هذه البدعة الجديدة المستوردة من الكفار قد أدخلت إلى حرم القدس والطهارة: حرم أمير المؤمنين﴿ع﴾ واستعمال المكبِّر حرام، فكيف يستفاد منه في أذان الصلاة التي هي عمود الدين؟!، فماذا بقي من ديننا؟ إن هذا أسلوب من أساليب الغزو الفكري الاستعماري ومن مظاهر التغريب المنكرة... الخ).!

كان المجلس يعج بالعلماء والفضلاء من طلاب العلم، وعلى رأسهم صاحب المجلس المرجع السيد عبدالهادي الشيرازي رحمه الله وكان السيد موسى حاضراً ذلك اليوم أيضاً. فلما نزل الخطيب من منبره، لم يصبر السيد موسى على سماع كلام غير مدروس، يُلقى من منبر الحسين﴿ع﴾ على مسمع جماعة من الناس، مما قد يشوش أفكارهم ويخلط المفاهيم عندهم.

فانبرى يناقش الخطيب في محضرالعلماء الجالسين بكلام دل على جانب من فقاهته وفكره الحر ووعيه المتنور،قياسا إلى الثقافة السائدة في الحوزة العلمية آنذاك. فقال: يا حضرة الشيخ من قال لك أن كل ما هو من عند الكفار سيء ومنكر. إن المكبِّر الصوتي مثلا حسن وفيه فوائد ومصالح ننتفع بها لديننا، ورحم الله من ضم عقول الناس إلى عقله. وحتى لو فرض أن مكبِّر الصوت من المشتبهات، فإن لم يكن عندنا دليل على حرمته، فإنّ الدليل قائم على البراءة الشرعية عن كل حرمة مشكوكة.

ثم قال موجهاً حديثه للخطيب: (يا هذا تُب إلى الله، فإنك ارتكبت كبيرة، بالإفتاء بغير علم، وتحريم ما لم تثبت حرمته). فكانت كلمة هزت وجدان الحاضرين، وما كان من الخطيب الواعظ الذي كان من المخلصين الصادقين، الغيورين على حرمات الدِّين، ما كان منه إلاّ أن انخرط في بكاء مر، وقام يعثر في مشيته، إلى أن جلس بين يدي السيد المرجع الشيرازي معلنا توبته. ثم قام وقبّل جبين السيد موسى، وطلب منه المعذرة.

فللّه من ثائر يصدع بأمر الله ويجلو الشبهات، ولله أمين حليم على شريعة جده سيد المرسلين، ولله واعظ قد وجد لـه من نفسه واعظا، لم تأخذه عزّة بإثم ولا كبرٌ على علم.

وفي مقابل تلك الصرامة في الحق والقوة والجدية في حراسة القيم ورفع اللبس عن المفاهيم.. نجد في موقف آخر يروى عنه، جانبا قد لا يبرز منه دائما ولكن تتطلبه بعض المواضع وتمليه شخصيته الساحرة الجامعة لملاكات عديدة مختلفة. وهو جانب المرح والنفس المنشرحة. وننقل هذا الموقف المرح ـ بتصرف ـ من كتاب (محطات تاريخية عن

حياة الإمام موسى الصدر)، تأليف صهره السيد أبي رائد سيد حسين شرف الدين.. الذي روى لـه صديق للإمام المغيب هذه القصّة اللطيفة، حيث ذكر: (أن السيد موسى كان حاضرا في مناسبة احتفال عيد الزهراء عليها السلام الذي يُستظرف فيه عادة صوغ المقالب البريئة، والمزاح والنكات بين الأصدقاء وبين الأساتذة وطلابهم، وتسقط فيه الحواجز بين صغير وكبير، في فرصة مثالية تذوب فيها ـ فيما بين المؤمنين ـ تلك الحدود المعتادة. ففي تلك المناسبة التي أقيمت في بيت المرحوم السيد رضا الصدر في قم، في سنة من تلك السنين وقد حضرها جمع كبير من العلماء والفضلاء كان على رأسهم سماحة الإمام الخميني الكبير قدس الله نفسه.. وكان طعام الضيافة للحفل الذي كان منتظرا أن يقدم، يعدُّ من الأكلات الغنية والعزيزة في تلك الأيام: (الأرز ومرق القيمة) الشهيرة في إيران والعراق، وهنا بادر السيد موسى قبل تقديم وجبة العشاء المنتظرة لحياكة مقلب ضخم بحكم المناسبة، بقيت الأوساط العلمية والمحيطة تتندّر بظرافته زماناً، وذلك أنه ذهب إلى المطبخ أو المكان الذي يُعدُّ فيه طعام العشاء وأوحى للطباخ أن أخاه السيد رضا يريد العشاء.. ولأنه أخوه، لم يتردد الطباخ في دفع القدور المملوءة بالطعام ذاك إليه. فحمّل السيد موسى القدور على عربة تجرها الخيل وذهب بها إلى مكان آخر يقام فيه احتفال مماثل يستحق المحتفلون فيه هذا الطعام الثمين كما الأولون. وكان السيد موسى قد أخبر أستاذه الإمام الخميني بالمقلب واستأذنه فيه.

وطلب السيد الرضا مسؤول الحفل إحضار الطعام في آخر الإحتفال.. ولكن تأخر الطعام، بل لم يكن من طعام ولا شراب ولا أي شيء. وبعد السؤال والتحقيق فهم السيد رضا المقلب وابتلعه على غصّة، وعرف الحاضرون المقلب الذي وقعوا فيه. وبقوا ينتظرون تحضير أو إحضار طعام آخر إلى ساعة متأخرة. وهم في حالة من الجذل والتندُّر بهذا الموقف وأشباهه. وانتشر الخبر في قم على أنّه أكبر مقلب وقع في تلك الليلة من السنة. وفي اليوم التالي عندما حضر الأساتذة والطلاب إلى مجالس درسهم وبحوثهم.. كان طلبة الإمام الخميني ينتظرون أستاذهم إذ كان من المفروض أن يخوض في مطلب علمي جديد. فحين حضر، وجلس على كرسي البحث. ابتدأ الإمام حديثه بأن قال: (أي نعم.. إلى أين توصلنا بالبحث في قضية قدور الرز والقيمة؟).

فانفجر الجميع في ضحكة واحدة. وضحكت معهم قم لأيام وأيام) / عن الكتاب المذكور بتصرف.

إن الخُطّاب يتوالون لخطبتك، وأنت رفضتِ كل من تقدم إلى الآن، وكنا نقول إن من حقك الاختيار. ولقد كنت تعلِّلين الرفض بأنك لا تريدين الارتباط بطالب علم مبتدئ، يتأبط كتاب اللمعة[1] غاديا رائحا إلى درسه أو إلى دروس السطوح الأخرى. وتتشبثين برأيك بأنّك لن تتزوجي إلاّ ممن أتم مشواره في التحصيل العلمي وأصبح يعد من العلماء المجتهدين. وكنا نحترم هذا الطموح الكبير منك. ونثق في رأيك واختيارك. واليوم ها قد وصل رجل السنايا والطموح، ها هو قد أتى طارقا بابك، طالبا قربك. ولئن كانت البيئة قد اختلفت، فلن تختلف القلوب، وأمّا العادات، فإن تغايرت فلسوف تنسلُّ من بين المحبين،

إن هذه الجوانب المتباينة في شخصية السيد موسى الصدر هي التي خلقت منه قائداً شجاعاً وأباً رحيماً ومربياً فاضلاً بلا منافس في مجتمع يعيش على التنافس بل التناقض كثيراً ما.

ولقد قرأنا مرة في إحدى الصحف العربية في الفترة التي أعقبت اختفاء الإمام أو تغييبه في تفاصيل مقابلة مع المخرج السينمائي العالمي المشهور «مصطفى العقاد» الذي أخرج فيلم الرسالة، وفيلم عمر المختار. أنه كان قد تلقى دعوة من السيد الإمام موسى الصدر لزيارة لبنان، فالتقاه وعرض عليه الإمام أن يُخرج فيلما عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب‌عليه السلام وأنّ السيناريو وكثير من التجهيزات والإمكانيات حاضرة. يقول العقاد: إني تحمست للفكرة ولكني اشترطت عليه شرطاً واحداً للقيام بذلك العمل الجبّار: قُلت لـه: إن الوحيد الذي يمكنه أن يلعب دور الإمام علي‌عليه السلام هو أنت لا غير.. لأنني كلما ذكر لي أمير المؤمنين عليٌّ مرّ ببالي خيالك أنت فقط. فإن قبلت أن تقوم بدوره، فلك علي إخراج الفيلم في أقصى سرعة. ولكنه رفض، استصعاباً لهذا الدور.

(١) كتاب «اللمعة الدمشقية» كتاب فقهي، يدرس في الحوزات العلمية في السنوات الأولى من الدراسة فيها.

لتنصهر أرواحهم في بوتقة العشق المتسامي. وإن كنت تهتمين للجورب، فلا يهمّنّك أمره، واعلمي إنه لو توفر لطالب العلم جورب، فلن يتركها ليمر عليها الحول دون أن يرتديها شاكراً. قال ذلك وقد عادت البسمة إلى وجهه الصبوح.

ثم أردف: أما زيارة الأهل فأنا أضمنها لك، متى أحببت المجيء إلى قم، فأنا بخدمتك، ابن عمّك لا شأن لـه بذلك، وأعدكِ أيضاً بأنه لن يتزوج بأخرى.. هذا وعد مني لك وميثاق. تيقني من ذلك، إني لا أُريد لك إلاّ الخير.

وهنا تهدّج صوته و حنى عليّ بكلمات، لازالت تتغلغل في صدري، قال: اعلمي يا فاتي خانم إن هذا الرجل من أعز الناس عليّ. وقد جاء خاطبا أعز أخواتي لديّ. لقد تسنّى لك ما لم يتسنّ لغيرك. تأكدي يا أخية أن السيد محمد باقر، مثله لن يتكرر. فهو وحيد دهره. إني لأشهد أنه صدّيق من الصدّيقين.

عزيزتي: إن فاطمة سيدة النساء لم يكن لها كفء إلاّ علي عليه السلام. وإني أقول الآن: إن فاطمة خانم ليس لها كفؤ إلاّ محمد باقر الصدر، ذرية بعضها من بعض. ثم قال: فاتي خانم، إن لك من الذكاء والفطنة، وقوة الشخصية ما سيجعلك قادرة على تطويع دنياك. ستنجحين، وستكونين لنا قرة عين إن شاء الله.

بعد أن تمت الموافقة على خطبة السيد الشهيد إياي عقد السيد موسى عزمه على الرجوع إلى لبنان مع عائلته، وقرر أن يصطحبنا معه أنا

وأمي وأختي الرباب، ذات الخمسة عشر ر بيعاً. وذلك لهدف التعرف على أجواء البيئة العربية والاندماج فيها. ولتعلم اللغة العربية. إذ لم تسنح لنا قبل هذا الأوان فرصة لذلك. ولا قدّر لنا السفر خارج إيران طوال هذه السنين.

وكان السيدان موسى ومحمد باقر الشهيد، قد اتفقا على إجراء مراسم الزواج في لبنان، لأن الشهيد ما كان يرغب آنذاك في المجيء إلى إيران لإتمام الزواج فيها. إذ كانت ترزح تحت وطأة الشاه المقبور والأوضاع السياسية فيها مضطربة آنذاك. وللشهيد موقف حاسم منها. فكان لبنان بلداً ومكاناً مناسباً وملائماً للطرفين.

***

في لبنان.. التقيت الشهيد

وصلنا إلى لبنان ليستقرَّ بنا المقام في بيت أخي السيد موسى الواقع في مدينة صور. ولأن وصولنا وافق ابتداء العام الدراسي في تلك السنة، لذلك صار لزاما أن ننتظر شهوراً، ريثما تحل أيام العطلة الصيفية، حيث تكون الأجواء والظروف أكثر ملائمة، لإتمام حفل الزواج.

ومرت بالفعل سبعة أشهر أو أكثر، تعلمت خلالها ما أمكنني تعلمه من اللغة العربية، وصرت أتحدثها باللهجة اللبنانية خلال أربعين يوماً. وقد استعنت في ذلك، بكتاب في تعليم اللغة. ومن خلال احتكاكي الدائم ببنات وحفيدات بيت السيد الإمام شرف الدين، وذريته وبني عمومته، الذين تربطنا بهم علاقة الرحم والقرابة.

ولقد استقبلنا آل شرف الدين بحفاوة وترحاب وتجليل وتكريم وعناية. فكنا نجتمع معهم في أكثر الأيام مساء أو ليلاً، إذ كان تزاورنا مستمراً، ولقد استفدنا كثيراً من هذه المجالسة الدائمة، في التعرف على مجمل أوضاع الحياة هناك وفي المنطقة المحيطة. وما يرتبط بذلك من عادات وتقاليد في المأكل والملبس والسفر والزواج وحفلات السهر والأفراح والأتراح. ولطالما اصطحبني بعضهن للتبضع والتسوّق.

كنت أحرص على ارتياد المكتبات التي تعرض للبيع كتبا في مختلف صنوف المعرفة، وقد اشتريت مجموعة من القصص والروايات، من روائع الأدب العالمي، من قبيل (أحدب نوتردام) (الرجل الضاحك) (البؤساء) وغيرها، رغم أني قرأت هذه الروايات المذكورة عندما كنت في قم بترجمتها الفارسية، لذلك لم أجد صعوبة في فهم ترجمتها العربية. لأن الأحداث المروية فيها، كانت حاضرة في ذهني. أتذكر أنني في أثناء قراءتي (أحدب نوتردام) عندما وصلت إلى مقطع كان الحديث فيه عن المئذنة والجرس، جرت في ذهني مقارنة بين الترجمتين: العربية والفارسية. وكلما تعثرت في استيعاب بعض النصوص العربية، كانت ذاكرتي تسعفني، فما كنت قرأته سابقا بالفارسية يساعدني على فهم ما سجل بالعربية. أو لعلي كنت أسأل الذين كانوا من حولي.

في تلك الأشهر السبعة ـ قبل الزواج ـ تسنّى لنا التجوال في ربوع لبنان الجميل، بجباله وسهوله ومنتجعاته، في رعاية سيِّد لبنان يوم ذاك «موسى الصدر»، الذي تربّع على عرش قلوب اللبنانيين على اختلاف طوائفهم، رغم القِصَر النسبي لمدة تواجده في لبنان ذلك اليوم.

وحلّ شهر ذي الحجة الحرام[١] معلنا عن بداية العطلة الصيفية لتلك السنة. وهنا وصل إلى لبنان سماحة السيد الشهيد من العراق مع والدته الجليلة، وأخته العلوية الشهيدة: آمنة (بنت الهدى).

وهناك بدأت الاستعدادات تجري للتحضير للزواج. وقد كان السيد

---

(١) كان ذلك في العام ١٣٨١هـ

موسى حريصا على جعل حفل الزفاف بهيجاً كبيراً، يليق بشأن رجل مثل الشهيد، الذي صار من قبل ذلك الحين، رجلا معروفاً في الآفاق. بكونه فقيهاً فيلسوفاً مفكرا، على صغر سنه نسبيا. ولذلك نوى السيد موسى أن يدعو لـه ثلة كبيرة من رجال الفكر والمجتمع وشخصيات من مختلف الطوائف. وقد حضّر الأجواء والتجهيزات لجعله كالمهرجان الثقافي والاجتماعي، على أن يقام في موقع نادٍ معروف هناك، هو منتدى (الإمام الصادق عليه السلام) إلاّ أنّ الأقدار مضت باتجاه آخر. حيث غيّب الموت قبل ليلة العقد والزفاف قليلاً.. قريبا لنا هو المرحوم السيد محمود شرف الدين، ابن عم الإمام عبد الحسين شرف الدين. وكان من كبار رجال المجتمع. ومن أبرز وجوه آل شرف الدين، حيث عمّ الأسى والحزن كثيراً من الساحات. وجلّل كثيراً من البيوتات ذات الشأن. وقد جهّز رحمه الله، ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف ودفن هناك.

وما كان منّا بالتالي إلاّ إلغاء جميع الترتيبات التي كنا بصدد إنجازها. وتقرر أن يتم الزواج ويحتفل لـه بشكل مختصر. فيقتصر الأمر على احتفال نسائي، تحضره المقربات من العائلة، وذلك في نفس منزل السيد موسى بمدينة صور.

كان ممن حضر الحفل صديقة مقربة إلى نفسي، وتربطني بها علاقة الرحم أيضاً، وقد بذلت لي كثيراً من وقتها وجهودها للتجهيز وتحضير لوازم العرس. سواء بمرافقتي للتبضع والتسوق. أو بالاستعداد لليلة الزفاف، حاولت هذه الصديقة القريبة أن تلتقط لي صوراً، تخلد ذكرى

هذه الليلة. وذلك بآلة تصوير كانت تملكها. ولكني فهمت أنها تريد الاحتفاظ بالصور عندها. فلم يطاوعني قلبي أن أترك صوراً عني في لبنان، وأنا بكامل زينتي ثم أرحل عنها. فلم أتردد في الرفض، ولم يكن ذلك مني لقلة ثقة فيها، فإنها كانت والشهادة لله، امرأة طاهرة، متدينة محبة لي. غير أن ما أقلقني هو أن تتناقل الصور بين الأيدي بغير علمها، فإن الأبناء والبنات يكبرون، وقد تقع بين أيديهم وأيديهن، وهذا ما أخشاه.

في عقد الزواج، أمهرني الشهيد نسخة من كتاب الله المجيد، ومقداراً من المال، هو على طبق السنة المحمدية الشريفة. وهو بمقدار خمسمائة درهم فضة. وأهداني سواراً من الذهب مرصعاً باللؤلؤ(١)، وكان الشهيد قد هيّأ ذلك من حُرِّ ماله ومن يراع قلمه الشريف، إذ أنه كان عصاميا ملتزما بنهج خاص في التعامل مع أموال الحقوق الشرعية. ومن هنا كان حريصاً على أن تكون جميع تكاليف ومصاريف المهر وزفاف العرس، وبيت الزوجية، مما يحصِّله هو بنفسه وبتعبه. ولذلك فقد صبر وتأخر في الزواج إلى أن يتم إنجاز كتابة وطبع سفريه الخالدين: (فلسفتنا واقتصادنا). فلمّا بلّغه الله ذلك كان قد أتمّ الثالثة والثلاثين من عمره المبارك. فاستفاد من عوائد نشر هذين الأثرين العظيمين في ترتيب زواجه. وهكذا اقترن بي وقد أتممت التاسعة عشرة من عمري.

---

(١) إنّ هذا السوار قد سلبه جلاوزة وأزلام الطاغية عند الهجوم على دارنا بعد جريمة إعدام السيد الشهيد.

في صبيحة ليلة العرس جلست معه على مائدة الإفطار في شرفة مطلة على سهل كيفون الخلابة المغرقة ببدائع الطبيعة تداعب وجناتنا وتهدهد خواطرنا نسائم عليلة عُرفت بها كيفون في هذا الوقت من السنة أي شهور الصيف

كان مما دار بيني وبين الشهيد في هذه الجلسة أن ابتدرني بالحديث بعد سويعة صمت وتأمل إبنة العم[١] لا تحسبي أنني اتعرفُك لأول مرة فقد سكنت قلبي وعَرفتْك روحي مذ حدثني عنك سيد موسى لقد عرّفني على شمائلك ووصف لي رجاحة عقلك وعلو همتك وكبر ذاتك وشفافية روحك لقد عرفت منه تفانيك للخير وحبك للغير واعتماداً مني على شمائل الطهر هذه وحرصك على رضا الله وإيثارك للمصلحة وتفانيك لمن تحبين فإن لي إليك طلبتين الأولى منهما أنا أعلم أنك تحبين الجميع كما أنا ولكني أطلب أن تمحضي حبَّك بشكل خاص خمسةً من الناس لي بهم علقة خاصة أمي فإنها أمّي أسعى لإرضائها وأأمل أن تكوني لها بنتاً كابنتها العلوية بنت الهدى وأخي الأكبر السيد إسماعيل الصدر فإنه أخي وعضدي وسندي في الآمال والآلام فأنا بين يديه كالابن أمام أبيه وكالتلميذ قبال أستاذه إنه لي راع وصديق وحبيب ثم أختي وتوأم نفسي آمنة فإنها رغم أنها تصغرني بثلاث سنوات إلاّ أنها صهرت ذاتها في وجودي وفاء وفداء لمقدس مشترك نسعى للوصول إليه إنها رفيقة نضالي

(١) بهذا النداء الحبيب، بقي الشهيد يُناديني إلى اليوم الأخير قبل استشهاده.

وكفاحي. وشريكتي في مسيري ومصيري، ولسوف تبوح بذلك الأيام. وكذلك السيد موسى شقيقك، الذي علّقت عليه كثيراً من آمالي، وتعلّقت به روحي. وأخيراً: الشيخ عبد الحسن البلداوي. فإنه في مقام والدي. وقد تعهدني وأختي العلوية بالرعاية منذ طفولتنا، عندما توفي والدي وأنا في الثالثة من عمري. حتى أنني لا أتذكر إلاّ صورة سديمية عن المرحوم والدي. فكان الشيخ عبد الحسن مسؤولاً عن قضاء حوائج البيت من توفير لوازم المعاش والعلاج وكل الضرورات. عندما كنا في مدينة الكاظمية.

فهؤلاء الخمسة، انسجمي معهم، وأحبّيهم حباً خاصاً كما أحبهم.

أما الطّلِبة الثانية ـ وقد قالها مازحاً في ابتسامة محببة،أشرق لها وجهه ـ: أريد منك أن تنجبي لي فتيات ثلاث، هنّ في حسنهنّ كالذي تصفه الأمهات في أقاصيصهن لأطفالهنّ. ومن بعدهن أتحفيني بصبي يكون قرة عين لي ولك. ولما استفهمته: لِمَ يحبُّ أن يرزق بفتيات قبل الصبي؟ أجاب: إن الولد يحتاج مني لتفرغ وعناية خاصة. فهو يشكل مسؤولية أثقل من مسؤولية تربية البنت، ولست في حال يسمح لي بهذا التفرغ. وأخاف أن أقصِّر في حقه. وأمّا البنات، فإني أعلّق أملاً على قدرتك الخلاقة على رعايتهن وتنشئتهن دون جهد كبير مني. وإني سأكلفك مسؤولية أعلم أنها شاقة، لكنك نعم العون على أمر الدين والدنيا: إن البيت بكل شؤونه أمانة في عنقك.

بقينا في "كيفون" عدة أيام بعد الزواج، من بعدها قرر الشهيد أن

نسافر أسبوعا للترويح والزيارة وذلك إلى بلاد الشام في سوريا. وهناك تشرفنا بزيارة عقيلة البيت الهاشمي السيدة زينب عليها السلام، وطفلة الحسين المظلومة رقية. وسائر مقامات أهل البيت عليهم السلام. وغير ذلك، وهنا أتذكر تماماً أنه قدس الله روحه، لم يفارقه قلمه وأوراقه، التي كان يصطحبها معه حيثما حل وارتحل، وفي كل وقت. إذ أنه كان في تلك الفترة عاكفا على تأليف كتابه المتميز (الأسس المنطقية للإستقراء).

هذا الكتاب كان رفيقي وشريكي في أيامي الأولى، التي اقتحمت فيها حياة السيد الشهيد، فإنه كان رغم حرصه على إعطاء تلك الأيام الأولى نكهتها الخاصة، كونها أيام ترويح و(عسل) وسفر. إلاّ أنه لم يكن يفرغ ساعة من الوقت حتى يباشر للفور إكمال مهمته، بلا أي توانٍ. لقد كنت أسائله أحياناً: ابن عمّ: ألا ينبغي أن تعطي لنفسك إجازة ولو محدودة، عن اشتغالاتك واهتماماتك الدءوبة؟ فكان يرد: إن هذا الدور الذي أقوم به، وهذا العمل الذي اشتغل به، هو لي وجود وحياة، إنه دنياي وآخرتي إنه الهواء الذي أتنفسه، والمستقبل الذي أرنو إليه. وهذا الكتاب على الخصوص، الذي أنا مشتغل بتأليفه (الأسس المنطقية)، أرجو أن يوفقني الله لأن أجعله، إضافة علمية متميزة في حقله(١).

---

(١) هذا ما تم فعلا. فإن الشهيد لما أتم كتابة كتابه هذا، وقدّم للطبع ونشر في الأوساط الحوزية والأكاديمية، استقبل في المحافل العلمية باهتمام وتلهف. وصار الشهيد يهتم كثيراً بهذا الإنتاج الذي حباه به الله واعتبره من بين كتبه الهامة المثيلة، هو حصيلة عمره. ومؤشراً بارزاً على حقيقة سموه العلمي والمعرفي. ولذلك اهتم الشهيد بترجمة الكتاب كثيراً لقناعته بأن اطلاع المفكرين والمتخصصين في الحواضر العلمية الأخرى عليه، سيحقق تفوقاً للفكر

بعد مضي أسبوع في ربوع بلاد الشام، عدنا إلى لبنان. وبقينا فيه ثلاثة أشهر أو تزيد ننتظر زواج شقيقتي الصغرى رباب، التي اقترنت بقريب لنا، هو حفيد للإمام شرف الدين وهو السيد حسين بن السيد محمد علي بن الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين.

ومن ذلك الحين، أقامت السيدة رباب في لبنان، لتغدو ربّة بيت وامرأة فكر ورسالة ومجتمع، كما يعرفها العالم الآن. وقد رجعت أنا مع الشهيد إلى العراق، لأبقى معه الشاهدة على محنة شعب وضياع وطن. ونلت نصيبي من ذلك أوفر نصيب.

وليس الفارق بيني وبين رباب كبيراً، فلقد فجعت كلتانا في «الصدرين» في بحر سنة واحدة. فحملت السيدة رباب، لواء المحرومين ممن أعاد لهم (الإمام موسى الصدر) الأمل، وأنار لهم الطريق في لبنان، وتكفلت بإيصال صوته المغيّب، وصرخاته المكممة إلى كل بقعة في داخل الوطن وخارجه. وتعهدت كثيراً من المؤسسات والمبرّات التي تركها الإمام وراءه، بالإشراف والرعاية ومازالت.

وأمّا أنا فمثلي كمثل شتلة غرستها يد السيد الشهيد الصدر في أرض العراق، وبقي يتعهدها قرابة تسعة عشر عاماً، إلى أن عصفت أعاصير ليل العراق المكفهر، وغدت أرض الرافدين مربضا للشيطان. وتكالبت قوى

الإسلامي الأصيل على مستوى الفكر الإنساني ككل. لأنه يمثل طفرة علمية هائلة في حقله، لسوف تنبهر لـه الجامعات والمعاهد العالمية في أوروبا والعالم كله. لمزيد من التفصيل وما لاقى هذا الكتاب من استقبال وتطورات راجع كتاب (شهيد لأمة وشاهدها) للشيخ النعماني.

الشر، تمطرنا بالسّدَعات، وسعّرت نيرانها تسفعنا بشررها وشرورها. وبات الشعب على الخسف يقتات من عذاباته، ولم يكن «للصدر» أن يقرّ لـه قرار، ولم يكن لـه بد من أن يخرج ليمزق حجب الصمت. فنهض ثائراً، مستنهضاً بصرخاته وبدمائه همماً قد أبادها اليأس والقنوط. ومضى إلى ربه شهيداً، ليتركني أواجه وحدي ذلك المسخ المرعب الذي طاردني في كابوس[(١)] ليلة ليلاء من ليالي صباي. وقد رأيت رؤياي تلك تأولت حقا، ودفعت الثمن غاليا: ربع قرن من النكبات والعذاب، تنثال علي فيها المآسي والأحقاد، كقطع الليل المظلم. فمن بعد الشهيد فرض علي العيش في قعر جحيم البعث الصدامي. في حصار رهيب. كما فُرض على أسلافنا مثله سابقا في خربة الشام من قبل. لكنها دامت معي في ظل من يحموم يزيد العصر ردحا من السنين العجاف. لم يكن لي فيها من زاد ـ بعد الله واللجوء إلى جنبه ورحمته ـ إلا أطلال ذكريات. كان لي في الكثير منها البلسم والسلوى.

من ألصق تلك الذكريات بما كنت أتحدث عنه قبل قليل، هو ما أتذكره في خلال سفرنا عائدين من لبنان إلى العراق عن طريق البر. إذ أننا ركبنا سيارة صغيرة فكان الشهيد قد جلس في المقعد الأمامي، بجانب السائق، ومحلي كان بالخلف. ولأن الطريق يستغرق عادة أكثر من نهار كامل. فقد أراد الشهيد أن نستفيد من هذا الوقت الطويل في شيء نافع. فإنّه لم يكن يهدر أي فرصة، ولا يسمح بضياع أي وقت

---

(١) إشارة إلى الرؤيا التي تقدمت حكايتها في ص٨٧.

يمكن الاستفادة منه. فكان أفضل شيء يمكن أن نفعله في ذلك الظرف، هو متابعة تعلمي للغة العربية.

فبينما كان هو يشتغل بما في يده من كتابة أو قراءة، كانﷺ إلى ذلك يكتب الكلمة بالعربية في راحة يده. ويعرضها لي إلى الوراء حيث كنت جالسة. وأنا بدوري كنت أكررها وأحفظها وأسجلها في دفتر عندي. فكانت حركة ظريفة ورائعة ومفيدة، صرنا نستلطف تذكرها في جلسات سمرنا بين الحين والآخر.

* * *

تحت أفياء الشهيد في العراق

أول محطة نزلنا فيها بعد ذلك السفر الطويل، هي مدينة الكاظمية، إذ نزلنا هناك في بيت السيد المرحوم إسماعيل الصدر، أخي الشهيد. في يومي الأول، وجدت الحرّ في الكاظمية خانقاً. صحيح أن مدينة قم ـ حيث عشت وترعرعت ـ هواؤها حار وجاف صيفاً. ولكني وجدت أن مدن العراق أكثر حرارة بكثير. والذي راعني أكثر هو الفارق الكبير بين أجواء لبنان في جنوبه وربوعه، حيث فارقته للتو، لأصدم بهذا الجوّ المختلف. حتى أنني كنت أعجب كيف يهنأ للأهل والناس هنا أن يتناولوا طعامهم ساخنا. وكيف لهم أن يشربواويناموا، بلا تضجر ولاتأفف؟ والأعجب أنهم كانوا يقدمون الشاي الساخن بعد الإطعام في ذلك الجوّ ولا من وسيلة للتكييف كالذي يستفاد منه اليوم. وبالطبع لم أكن أبدي أي نوع من التبرم أو الضيق، رغم استهوالي وتبرمي في داخلي.. هنالك فكرت بيني وبين نفسي: ماذا إذا جنّ الليل؟ كيف لي أن أنام؟ إن حرارة صيفنا في قم قد تقترب من هذا المستوى ولكنها لا تشتدّ هكذا لأكثر من أسبوعين في كل موسم صيف. ثم يعود الجوّ

ليعتدل بالتدريج. وأما هنا في العراق، فلقد سمعتهم يتحدثون: أن الحر يبقى بهذا المستوى ضيفاً ثقيلاً يجثم على صدر الأيام طوال شهور الصيف القائظة.

والأدهى أننا ما حللنا عندهم ـ ويااللحظ ـ إلاّ في شهر آب اللهّاب[١]، حسبما يصفونه في بلاد الشامات.

لقد اعتاد الأهالي هنا أن يقضوا ليلهم، على أسطح منازلهم، تحت السماء، علّهم يصطادون نسمة تائهة تسفسف من شرق إلى غرب أو من شمال إلى جنوب. فبتُّ ليلتي الأولى أتقلّى وأتقلّب على مضجع يقضّه قيظ الكاظمية، اضطررت في تلك الليلة أن انزل إلى الدور الأسفل، لأرش الماء على نفسي عدة مرات، طلبا للتبرد، أو تخفيف الحرارة الملتهبة في داخلي ومن حولي.

دعينا في يوم من تلك الأيام من قبل عائلة المرحوم السيد محمد الصدر[٢] التي كانت تسكن مدينة بغداد القريبة. وذلك بغية التعرف على قريبتهم العروس الجديدة هذه، والاحتفال بها، وكانت الدعوة ليلا لتناول طعام العشاء. عندما دخلت دارهم وجدتها واسعة متراحبة، تنطق النعمة في نواحيها، ذات حديقة غنّاء. في داخل الدار استروحت جواً بارداً جعلني أتساءل في نفسي: ما لدارهم تختلف؟ إنها غير الدور التي أعرفها

---

(١) شهر آب هو الشهر الثامن الميلادي: أغسطس. حيث شدة التهاب الصيف.

(٢) اسم ارتبط بتاريخ العراق الحديث. فإنه كان رئيسا للوزراء و رئيسا لمجلس الأعيان في بدايات تأسيس الدولة العراقية الحديثة. لعدة مرات.

إلى الآن في العراق. كل شيء فيها متميز، حتى هواؤها... ويا لفرحتي.. حتى شراب الضيافة الذي بادؤونا بتقديمه كان «شربت» أي من شراب البرتقال البارد ولم يكن من الشاي الساخن!

تلفت من حولي باحثة عن مصدر الهواء البارد، فوجدته ينبعث من فتحة صندوق أزرق كبير! ولما سألت الشهيدة بنت الهدى عن هذه الآلة التي تنفخ هواءً بارداً؟

أجابت: إنهم يسمونها (المبرِّدة). فأعجبني ذلك. إنه شيء أتعرف عليه للمرة الأولى في حياتي. ثم سألتها: هل عندكم من هذه الآلة في النجف؟ أجابتني بالنفي. فقلت في نفسي: واويلاه، إني اسمع أن النجف أكثر حراً وقيظاً وجفافا من الكاظمية، فكيف سأتمكن من العيش فيها والحال هذه؟

وقفزت إلى ذهني فكرة، سرعان ما عملت على تنفيذها بعد وصولي إلى النجف. إذ قلت للشهيد هناك فيما بعد: ابن عمي: هذا مقدار من المال من الهدايا التي اجتمعت عندي مما قدم إليّ هدية في أيام زواجنا الأولى. خذها واشترِ لنا بها مبرِّدة، كالتي في بيت ابن عمنا في بغداد. وكذلك أحتاج خزانةً، أجمع فيها أواني المطبخ، وبعض اللوازم الأخرى، التي رأيت البيت يفتقر إليها لضرورتها. وهذا مال يكفي لشرائها. فاجلبها جميعا لنا.

بعد إقامة دامت عدة أيام في مدينة الكاظمية المقدسة، تحركنا متجهين إلى موطني الثاني الحزين، الذي قدر الله لي أن أعيش فيه فصلاً

عبوساً من أيام حياتي.

على مشارف النجف الأشرف، أشار إلي الشهيد بيده. فطمحت بناظري إلى حيث أشار وإذا بمنائر حرم أمير المؤمنين عليه السلام تلوح من بعيد. وكنت لأول مرة في حياتي أطأ أرض جدّنا المرتضى علي عليه السلام. فخفق قلبي وجاشت مشاعر الحبّ والولاء في صدري وندّ من عيني رقراق دمع ساخن، اشتياقاً إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

حللنا في البيت المستأجر الذي كان فيه سكنى السيد الشهيد. والذي كان يقع في حي سكني قريب نسبيا عن الحرم الشريف. وقد ضمتني جوانبه عدداً من السنين(١). وهو بيت متواضع ليس حديث البناء، لكنه لم يكن متهالكا. وقد خصّصت لي منه الغرفة العلّية في طابقه العلوي. أما فناء البيت فقد كان ذا مساحة صغيرة وأجرد، مفروشاً بالأسمنت. قلت للشهيد يوماً: ابن عمّ: أنت تعلم أنني رُبيت في بلد يحبّ أهله ألا تخلو دورهم من الخضرة. وللتشجير عندهم قيمة وأهمية. وكنت بنفسي أتعهد بالرعاية والسقيا، الزروع والأشجار التي كانت في بيت والدي في قم.. لكم افتقد تلك الورود والأزهار والرياحين التي كنت أنميها واحرسها وأحرص على سلامتها. حبذا لو وفرت لي بعض البذور أو الشتلات، وآنية، أستطيع أن أغرسها فيها، فوعدني بذلك. وفي أقرب فرصة سنحت لـه، جلب من بيت قريبنا السيد محمد الصدر في بغداد،

---

(١) في خلال رفقتي للشهيد التي دامت ١٩ عاماً تنقلنا في ثلاثة دور سكنية في النجف: بيت آل بوكلل وبيت نصرالله خلخالي. والبيت الثالث هو بيت الشيخ محي الدين المامقاني.

بعض الشتلات الصغيرة والبذور. وجاء لي بعدد من الصناديق الخشبية ـ مما يستفيد منه المزارعون لتعبئة وتسويق بعض الفواكه والخضار ـ وتوليت أنا تهيئة التربة وإعدادها وغرس تلك البذور فيها.

أتذكر أنني وزعت تلك الصناديق المزروعة في جوانب وزوايا الفناء، وبذلك صار يعدّ بتلك الإمكانيات المتواضعة جُنينة صغيرة[١]، على قياسنا وقدر حالنا.

فأعجب الشهيد ذلك، واعتاد الجلوس هناك وقت العصر، في غالب الأيام، وكان يستروح الجلوس أمام تلك المزروعات والورود. يتنسم أريجها ويديم النظر إليها. ويبدي إعجابه، وراحته، والثناء على هذا الصنيع ومبدعته. وكم كان يعجبه أن يأتي بكتبه، وأدواته وأوراقه، في تلك الباحة الصغيرة المورقة، ليغرق في تأملاته، ويمارس أعماله الفكرية الدائمة من تفكير وقراءة وكتابة وتحضير.

أتذكر أنه في واحدة من تلك الأماسي، قد جلس كعادته في تلك الزاوية، وكنت قد أعددت لـه إبريق الشاي بعناية فائقة، فأحضرته أمامه،

---

(١) كانت للسيدة أم جعفر علاقة عجيبة بهذه الزروع وعشق الخضرة. ولقد روى لنا السيد كامل العميدي الذي قام بنقل جثمان الشهيد في عام ٩٤ إلى موقع المرقد الحالي ـ وسيأتي تفصيل ذلك في آخر الكتاب ـ روى عن أم مشتاق التي كانت تساعد السيدة أم جعفر في شؤون المنزل: أن السيدة أم جعفر كانت قد غيرت دار سكناها (من بعد استشهاد الشهيد بفترة من الزمن) إلى دار أخرى، وعند خروجها من الدار التي كانت تريد الانتقال عنها، كانت أم مشتاق من ورائها فرأت أن جميع أشجار الحمضيات التي كانت السيدة تعتني بها قد ركعت وانحنت وانحطت غصونها إلى الأسفل ذابلة، بمجرد خروج السيدة أم جعفر من المنزل لغير رجعة إليه.

وصرنا نشرب منه أمام تلك المزروعات، وأتذكر هنا أنه رفع استكان (فنجان) الشاي إلى فمه وتذوقه. ثم تنشق بعمق في تلذذ وهيام، ثم قال وهو يحدّ إليّ النظر: (يالَـ الله، إن هذا الشاي شربه حرام.. إنّه هنا كالمسكر، وليس بشاي).

بعد ما اشترى الشهيد المبردة (المكيِّف) التي أشرت إليها فيما مضى، وضعناها في نفس باحة الدار. ولأن الباحة كانت مفتوحة على السماء، فمن الطبيعي أن هواء المبردة بالتالي سوف يتسرب أكثر إلى فوق، بحيث أننا لن نستفيد منه داخل الغرف الموزعة على جوانب الباحة هذه، لهذا طلبت من الشهيد أن يغطيها بشراع كبير ـ من القماش السميك ـ بطريقة يسهل معها طيه وبسطه، ليحفظ البرودة من التسرب، ولكن الشهيد اعتذر عن ذلك بسبب غلاء قيمتها. حينها طلبت منه أن يتكفل لي بالقماش، بأن يشتريه خاماً بالأمتار، وأنا أتكفل بالباقي، حتى تكون العملية أقل كلفة، وكنت في هذه الأيام بالذات ولحسن الحظ قد تلقيت هدية كأنما نزلت إليّ من السماء، وهي آلة الخياطة، خاصتي، التي أرسلتها إليّ والدتي من «قم»، وقد وصلت إليّ، فتلقفتها في سرور، إذ استفدت منها كثيراً هناك. وبالفعل أتى السيد الشهيد بالقماش فخطت منه شراعاً كبيراً، يكفي لتغطية باحة الدار بالطريقة التي أشرت إليها.

.....

هذه الدار التي أتكلم عنها، كانت تقع في محلة (العمارة)[1] بالنجف،

---

(١) محلة العمارة كانت من أقدم وأعرق أحياء النجف، وقد حوت تاريخاً عظيماً، إذ تواجد فيها ↵

وكانت تتبع لمالك من آل بوگلل، وقد استأجرها الشهيد بسبعين ديناراً[(١)] عراقياً سنوياً. وكان الشهيد يوفيها على أقساط ثلاثة، حتى لا يبهضه دفعها في مرة أو مرتين من السنة. ولقد حاول الشهيد أن يستبدل داراً أخرى أفضل حالاً منها مجاملة وإكراما لهذه العروس القادمة من قم، ولكن محاولاته في البحث عن بديل مناسب تعسرت لارتفاع مبلغ الإجارة الذي عرض عليه حيثما ذهب. فقررنا أن نبقى في هذه الدار مع القيام بطلاء جدرانها. وعندما اتفق الشهيد مع عامل دهان، ليقوم بذلك العمل، شرع الدهان فيه اليوم الأول، لنكتشف أن ذلك سيضيف على كاهل السيد الشهيد عبئا مادياً ثقيلاً، فاعتذر منه، عن إتمام العمل، وتوليت المهمة أنا مع الشهيدة بنت الهدى، فدهنت بيدي غرفة الأضياف، وتكفلت الشهيدة بصبغ فناء الدار. فقنعنا بذلك والحمد لله.

بيت السيد الشهيد من حيث الحجم والإمكانيات، كان متواضعاً صغيراً، لكنه كان محطاً لرحال الكثيرين من الإخوان والزوار والأتباع والمحبين، رجالاً ونساءً، على مدار السنة، كانت مسؤوليات الشهيد تتعاظم وتكبر يوماً بعد يوم. فلقد كان مهوىً لقلوب المؤمنين من داخل العراق وخارجه.كان مأوىً يلجأ إليه كل من كان يعرف السيد الشهيد

سابقاً كثير من بيوتات العلماء الكبار والمراجع العظام، ولذلك تعمد النظام الصدامي البائد طمس كل أثر قد يحفظ أي ذكرى للشهيد، فبادر إلى كسح جميع دور المنطقة، ومساواتها بالأرض.

(١) كان الدينار يساوي ذلك اليوم ٤ دولارات تقريباً.

قائدا وعالماً ومرجعاً. قد تعلقت بشخصه طموح الآمال، في صحراء مجدبة باليأس والقنوط من أي تغيير.

لقد وجدت المسؤولية عظيمة في مثل هذا البيت، فلست مجرد زوج وشريكة حياة لرجل يدرِّس مجموعة من طلاب العلم وكفى. إنه آية الله العظمى محمد باقر الصدر. وبهذا فقد حملت على عاتقي مهمة تأمين الجبهة الداخلية للسيد الشهيد. إن مثل هذا البيت كان بحاجة إلى واجهة نسائية تعكس شخصية الشهيد، وتقوم بخدمة من يحل ضيفا على هذه الدار. ولم أجد بداً من القيام بكل ما يتطلبه ذلك، من تدبير شؤون المنزل بكل تفاصيلها، رغم قلة الإمكانيات وضعفها كل ذلك صدر مني بفضل الله، برضا نفس وطيب خاطر.

لَشدّ ما كان الشهيد رقيقا في مشاعره، محبا لخاصته ولمن حوله. حريصاً على ألاّ يكلّف أحداً بأمر يشق عليه، ولا حتى لي أنا: زوجه وأخص خاصته. لقد كان بي شفوقاً محباً، لم يشأ يوماً أن يراني مجهدة في ملاحقة تبعات ما تسبب هو في صنعه. إذ للشهرة والقيادة تبعاتها وأتعابها. ورضيت بذلك كله، وتحملت قسطي الوافر منه، بحب ورجاء فيما عند الله. وهذا ما ينبغي أن تلتزم به المرأة المؤمنة.

إننا نرى قسماً من النساء يتبرّمن إذا ما طلب منهن الزوج القيام ببعض الشؤون المتعارفة ويعتبرنه حكماً ثقيلا مفروضاً عليهن. وقد يقمن به إسقاطاً للواجب والتكليف ليس إلاّ، في مظاهر خالية من مشاعر الدفء والتفاني التي بها تعمر البيوت وتبنى الأسر الناجحة. ولعل

الإنصاف يدعونا لأن نقول: لا تثريب على بعض النساء إذا شعرت بذلك التبرم تجاه شريك لا يستحق. رغم أنها ستؤجر وتثاب، إذا ما صبرت وتفضلت وأعطت. ولكن في حالتي أنا الأمر مختلف تماماً.

لقد كنت أرى السيد الشهيد رجلاً معطاءً، كريم النفس، جواد السجايا، في داخل بيته ومع خواص أهله، رغم ضيق ذات اليد وعسر المعاش. وبذلك عوّضنا الشهيد عن السعة واليسر المادي الذي يراه الكثيرون سبباً وحيداً للسعادة والهناء، عوّضنا عنه بغنى نفسه وكبر روحه وكرم سجاياه الثرّة.. ثم من جهتي كنت مقتنعة مؤمنة بأن مجرد اقتراني بشخصٍ مثل الشهيد هو الثروة الحقيقية.. كانت القناعة بما رزقنا الله زاداً عظيماً عَمَر وجودنا وصان علاقتنا عن أي شائبة، رغم ضغوطات الحياة ومتطلبات المعاش التي لا تنتهي. حتى أن الشهيد مرة كان يتذاكر معي بعض الشؤون المنزلية وتطرق للنعمة العظيمة التي نعيشها وشكر الله على ما ألهمنا من الرضا والدعة.. ولم يترك الفرصة تمر دون أن يوجّه لي عبارات الثناء.. ثم صار يبدي تعجّبه من حدوث بعض المشاكل الزوجية والأزمات العائلية لدى الأسر كافة، باعتبار أن هناك الحب وهناك انصهار كل من الطرفين في الآخر.. مما يمكن معهما أن تذوب أي مشكلة وتختفي أي أزمة. وفي تصوره ينبغي أن تكون جميع الأزمات العائلية والأسرية التي نسمع عنها مجرد افتراضات! لقد كان رجلا مثالياً بحق. إني أتمكن أن أقول غير مبالغة بأنه لم يغاضبني ولو مرة بحسب ما أتذكر طوال تلك السنين التسعة عشرة في رفقته... وكذلك حرصت ألا

أغضبه أو أختلف معه في كل تلك الفترة، غير أني ـ كي لا أجافي الحقيقة ـ أذكر حادثة لم يتكرر مثلها بحمد الله في حياتنا تلك:

كنت يوماً حاملاً مقرباً في أواخر شهري التاسع، فطلبت منه ديناراً واحداً ـ يوم كان الدينار عزيزاً ـ لأشتري مواد غذائية خاصة، لأصنع منها «لوزية»، وهي حلوى خاصة يقدمها العراقيون لأضيافهم في مناسبة تقديم التهاني والتبريكات عند الولادة خاصة. فأحببت أن أهيئ هذه الحلوى قبل أن يفجأني المخاض، فاعتذر عن إعطائي الدينار لشراء اللوز والاحتياجات الأخرى لتلك الحلوى، فتجادلنا سويعة، هو يعتذر بأن مخصصاته من الحقوق الشرعية لا تكفيه لذلك. وأنا أبدي لـه ضرورة الموضوع ووجوب استجابته: (لأنك تعلم أني راضية قانعة بطريقتك في الحياة، وها أنت ترى أني لم أشق عليك يوماً ولم أكلفك ما لا تطيق. ولكن هذا أمر لا نستطيع التخلف عنه، أسوة بغيرنا من المحيطين..).

وبعد تلك المجادلة أخرج ديناراً ووضعه أمامي كالمكرَه وهو يبدي أنه غير راضٍ ظاهراً. فما كان مني إلاّ أن أخذت الدينار ومزقته مزقاً خفيفاً حتى لا أتلفه. وافترقنا على ذلك. ولكنه سرعان ما عاد وهو طافح حباً وتحننا وأصلح الموقف، وأنا أصلحت الدينار واشتريت ما أريد.

كان كثيراً ما يناديني بـ: ابنة عمي. ولكن ما أكثر ما كان يناديني بـ: حوريتي.. نعيمي.. جنتي وفردوسي. وكنت أعلم أنه إنما نادى بها صادقاً مخلصاً، لا مجاملةً ولا تصنعا.. لأني بفضل الله كنت لـه نعيما

وفردوساً في خضم جور الحياة. كان أحياناً يبدي رغبته وخالص أمنيته لو استطاع أن يكتب فيَّ بيتا من الشعر أو في من يحب. ولكن ذلك الفيلسوف العظيم والمفكر المبدع عجز بالفعل عن تحقيق تلك الأمنية. فما تسخرت لـه القوافي يوما ولا لانت لـه البحور.

كذلك كان محمد باقر الصدر في داخل بيته.. لذلك كنت أرى أي جهد يبذل في سبيل هذا «الإنسان» هو بعض الحق الذي يمكن أن يرد لـه شيئاً من جميله، فما كنت أتوانى، ولم أسمح للضجر ولا للملل أن يتطرق إليّ، أو يحجزني عن تقديم أي عون لـه على أداء رسالته.

والشهيد في خارج بيته هو هو في داخله، فلم يكن الشهيد من ذوي الأقنعة، ولم يكن يظهر عليه أمام الناس غير ما كان يبطنه.. فهو المعروف بالتفاني فيمن حوله.. فكان غاية في السخاء والجود في سبيل مبدئه وناسه وأهدافه المقدسة. منسلخاً من حضوص نفسه، متنكراً لذاته، مؤثراً لمصالح الآخرين، حتى لو أثّرت على مصالح بيته. يحتسب كل ذلك عند ربّه جل وعلا. يرجو تجارة لن تبور.

كان قدس الله روحه، بعيد الشأو، متقد الذهن، ملبوباً، ملحوب الطريق، أكرومة الأيام.. العادُّ لفضائله، كمن يدخل الغابة عابثاً يعدُّ أشجارها. قد أتعب من بعده خيرا وفضيلة وعلواً وتساميا وارتفاعاً. قد ألحم ما أسدى من معروف، كان إلهياً في سجاياه، ربانياً في معارفه..

هكذا كان آية الله محمد باقر الصدر.

***

مع الشهيدة بنت الهدى

لم أكن المرأة الوحيدة في هذا البيت. فإنّ الشهيدة بنت الهدى كانت صاحبة شخصية مسؤولة وحساسة، ذات حضور وواقعية. فتقاسمت الأدوار معها. فتحمّلت أنا مسؤولية البيت بما حوى وبمن حوى: الشهيد، أمُّه، أطفاله، أضيافه، وكل الشؤون المتعلقة بذلك. على أن أمّ الشهيد، كانت امرأة كبيرة في السن، وتحتاج إلى رعاية خاصّة، فالتزمت للشهيدة بنت الهدى بالقيام بهذا الدور: أنا للبيت ولأمّها. وهي للشهيد.. تكمِّل دوره وتبلّغ رسالته في الجانب الذي لا يتمكن الشهيد من مباشرة دوره فيه: جانب النساء المؤمنات. ذلك كله تم بتنسيق واتفاق اعتمدناه فيما بيننا.

أمّا هي، فقد أفنت نفسها في شخصية السيد الشهيد. ونذرت[١] حياتها لخدمة مشروعه. فقد كانت تعضده وتخدمه في كل شؤونه التي لم يكن يقدر على إنجازها أيٌّ من أعوانه الرجال.. كانت سفيرة لـه إلى كثير من الساحات والجهات والأفراد.

---

(١) من المعروف أن الشهيدة لم تتزوج، ولعل من أهم أسباب ذلك هذا الأمر.

إن الحديث عن الشهيدة العلوية آمنة الصدر، فيه من الحلاوة والمرارة، الشيء الكثير. فهي امرأة كأنما لم تخلق للدنيا. لم يكن يخالطها أي تعلّق أو ركون إلى شيء من زخارف هذه الحياة أو مباهجها. نعم كانت أنثى كاملة، لها كل ما للأنثى من مطامح وعلائق وأشواق. إلاّ أنّها باعت ذلك كلّه لله.

كنا نراها مصداقاً بارزاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا الآجال التي قد كتبت لهم، لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثواب وخوفاً من العقاب»[(١)].

لقد كانت تعتبر نفسها ضيفاً عابراً، يولي عن قليل.

كنا جميعاً من حولها، نتبنى مفاهيم واحدة، ونعيش من أجل قيم واحدة، نسير نفس المسير، وندرك نفس المصير. لكنها تميزت عن نسائها بخصال تنحني لها الجباه إجلالاً وإكباراً. كانت تحبّ وتبغض كأيٍّ إنسان، إلاّ أنها لم تكن لتحيف على من تبغض، ولا لتأثم فيما تحب. لم تدّعِ ما ليس لها، ولم تجحد حقا هو عليها. تعشق التكامل وتعمل لأجله، وتقر بالنواقص، وتعترف بالحق ولو مراً. فهي لطالما حرصت على أن تكون شاهد صدق للحق، وللحق فقط كانت تمشي على الأرض. كانت رحمها الله ذات إحساس ورقة، مرهفة الشعور. لكن شدّتها، تجاه الخطأ والإثم، تحاكي شدّة الأولياء. إذا عرفت واجباً لزاماً، لم يكن لخطرٍ أو خوفٍ أن يمنعها أو يقف في وجهها أو يعيقها عن أداء

---

(١) كتاب الكافي ـ الجزء ٢ ـ باب المؤمن وعلاماته وصفاته.

تكليفها[(١)]. إذا غضبت يوماً لأمر مسيء، أو من شخص أساء، فإنها تبرز غضبها وتُشدِّد عتابها. كانت صارمة في ذلك. ولكنها أيضاً كانت سريعة الحدب والمحنة على من تغضب. ما كانت تواصل عتابها ولا تطيل عزوفها. بل لم تكن تتركه حتى ترضيه. وذلك منها. كان تجسيداً لكلمة الإمام علي عليه السلام في وصف المؤمن: «نفسه أصلب من الصّلب وهو أذل من العبد».

ليس من المبالغة أن أقول فيها: أنها كانت خارقة في عطائها، مبدعة في إنجازها. لقد تمتعت بنبوغ ذاتي، ومواهب جليلة منذ نعومة أظفارها.

كانت الأنموذج والقدوة، على صعيد السلوك والمعاملة. ولقد كانت عالمة مفكرة، لكنها ما تتلمذت على أحد في خارج بيتها. أرسلتها والدتها ـ في الكاظمية ـ في سن السادسة إلى الملاّ ـ (امرأة تعلم القرآن للفتيات في سنها) ـ وفي أول يوم دخلت آمنة بيت تلك الملاّ، وقع نظرها على التنور مسجوراً، قد ارتفع لهيب ناره وحسيسها، بشكل أفزعها. ففرت عائدة أدراجها إلى أمها. نافرة من بيت هذه الملاّ، ومن كل ملاّ من ورائها. وقد بقيت في البيت تتلقى تعليمها على يد أخوتها: السيد إسماعيل ثم من بعده السيد الشهيد. ولم تتلق تعليماً ولا تثقيفاً من أحد غيرهما إلى أن كبرت ونضجت، وصارت هي تفتح حلقات التعليم والتربية لبنات المؤمنين.

---

(١) تقدم أن الشهيد كان يعتمد عليها كثيراً في إنجاز مهمات عجز عنها الآخرون، وهي المقدام في اللهوات.

من مظاهر وآثار نبوغها أنها عندما كانت فتاة غضة في الحادية عشرة من عمرها، أبدعت مجلة ثقافية صغيرة الحجم، متنوعة في مواضيعها، ثرة في محتوياتها، وصارت تنسخها وتكثِرها، بيدها، ما استطاعت ثم كانت توزعها على الأقارب والمحيطين.

إن الشهيدة عاشت فريدة نوعها في جيل النساء من مجتمع النجف الأشرف وعلى الأخص في مجتمع الحوزة العلمية هناك(١). ذلك المجتمع العلمي العظيم كان يزخر بالعلماء والأدباء والمفكرين والكتاب ومراجع التقليد في الفتيا، والمحققين الكبار في كثير من العلوم. إلاّ أنه كان مجتمعاً ذكورياً في كل هذه الفضائل.

لم يكن أولئك الرجال ـ ومع الأسف ـ ليعكسوا ـ إلاّ نادراً ـ تلك المواهب والإنجازات الكبرى في داخل بيوتاتهم. نساؤهم.. حرث لهم، كما نطق القرآن، ليس أكثر من ذلك!!.

إلاّ أن الشهيدة كانت الإستثناء من ذلك: ذهنيةً متفتحةً و قدرة على الاستيعاب والربط والتحليل والإبداع. ولذلك لم تكن الشهيدة حينها

---

(١) إنّ كثيراً من الذكريات والخواطر التي نوردها هنا عن الشهيدة بنت الهدى قد استقيناها من السيدة الفاضلة أم جعفر أو ممن نصحتنا أم جعفر بالاستقاء والاستفادة منها، وهي العلوية الفاضلة السيدة أم أحمد الشاهرودي. وهي حفيدة المرحوم المرجع الكبير آية الله السيدمحمودالشاهرودي و زوج العلامةالسيدعبدالهادي الشاهرودي، الذي كان تلميذاً للشهيد الصدر، ولقد كانت (خانم شاهرودي) أم أحمد هذه صديقة ولصيقة للشهيدة بنت الهدى، رغم وجود الفارق في العمر بينهما، وتحمل عنها كثيراً من الانطباعات والذكريات. الجدير بالذكر أن السيدة (خانم شاهرودي) قد أسّست حوزة علمية نسائية في مدينة «علي آباد» في شمال إيران تحمل إسم الشهيدة بنت الهدى وفاءً وتخليداً لذكرها.

لتُستوعب وتقبل في مثل المجتمع العلمي في النجف آنذاك.

حتى لقد وُصِمت بأنها المسترجلة أو المتحررة. ومن هنا فإن كثيراً من كتاباتها ونتاجها الفكري، الذي كانت تقدمه كمقالات وعلى حلقات، في مجلة (الأضواء)، كانت تقدّمه باسم مرمّزٍ بحرفين أو ثلاثة. ولقد كان من عادتها أن تفتح مجلسها فيما بعد الظهر، من عصر كل يوم غالبا. وهو مجلس نسائي نوعي نادر مثله آنذاك. كانت تؤمُّه النساء المؤمنات من أجيال مختلفة. فكانت بنت الهدى، تستفيد من ذلك المجلس في ترويج القيم والمفاهيم التربوية الأصيلة. تشجع النساء فيه على القراءة والإطلاع، وتبث فيهنّ روح الثقة بالنفس وعزيمة التغيير بالحق. لقد استطاعت أن تبني جيلاً من الفتيات والنساء الصالحات، اللاتي تحمّلن ومازلن، دوراً كبيراً في حياة المجتمع العراقي، وصبغ تلك الحياة بلون إسلامي أصيل، وذلك من خلال سعيها لرفع المستوى الفكري والشعوري لحضارها.

لَشدّ ما كان يؤذيها ويؤرّقها ذلك التسطيح والتهميش، الّذَين شكلا واقعاً بائساً عاشته المرأة، في مثل ذلك المجتمع المؤمن. ولذلك ركزت جهودها بدعم وتوجيه من الشهيد أخيها لتغيير ذلك الواقع من خلال ذلك المجلس و الأنشطة التي كانت تديرها فيه. حتى أن الكثيرات من النساء المؤمنات، والفاعلات في النشاط الاجتماعي الآن يكثرن من الافتخار بأنهنّ من تلميذات الشهيدة بنت الهدى. مع أنّ الشهيدة لم تكن تلقي دروساً بالمعنى المصطلح.. كبرنامج منظم ويومي مستمر. ولعلّ تفاخرهنّ بذلك نابع من كونهنّ تشرفن بالحضور أحياناً أو دائماً في

ذلك المجلس المشار إليه. وانتهلن من معين أحاديثها المعتادة، التي كانت تشتمل على القصص القرآني والروايات الشريفة ونقل الفتاوى والحديث الموجه عن شؤون المجتمع والبيوت والعوائل والعلاقات الأسرية والتربوية. لكن كل ذلك لم تكن تلقيه على شكل مواد درسية منتظمة، بل كانت دردشات مقصودة مع النساء الزائرات. كانت الشهيدة تحرص وتصرّ على توجيهها، وجعلها هادفة، لغرض الوصول بهنّ إلى ما كانت تصبو إليه.

في يوم من أيامها تلك ألقت كلمة تأبينية في حق الإمام السبط المجتبى الحسن بن علي عليه السلام في ذكرى شهادته، وضمّنتها مقاصد توجيهية وتربوية بنّاءة، فكانت محاضرة مؤثرة في نفوس الحاضرات، ونالت استحسانهنّ، حتى أن بعضهن أبدين إعجابهن و أسفهن على أن هذه الكلمة الغرّاء لم تضبط ولم تسجل على شريط صوتي (كاسيت). فردّت الشهيدة بتلقائية وبساطة: (لا يهم إن كان الله قد سجّلها). ولكن في مقابل ذلك، نذكر هنا: أن الشهيدة كانت قد سجّلت رؤوس نقاط لمحاور كلمتها تلك، وبعض الملاحظات والأفكار الجزئية التي تكلمت عنها ذلك اليوم، في مجموعة من قصاصات الأوراق كانت أمامها أثناء الحديث. وما أن انتهت من إلقائها حتى تبعثرت تلك القصاصات. فرأيناها قد شرعت بحرص واهتمام، تبحث عنها وتجمعها وهي تكرر: (هذه رأس مالي، إني لا أستطيع التهاون فيها).!

وللحق..كانت هذه الكلمات والجهود التربوية الحثيثة، رأسَ مال

ضخماً للشهيدة، بنت به عقولا ونفوساً وأسر مباركة.

في ذلك الوقت، عُرفت واشتُهرت، بأنها مفكرة وكاتبة ناجحة، وكان لكتبها نجاح ورواج في كل الساحات العربية. ولذلك كانت تصلها عوائد مالية جيِّدة عن كتبها تلك. غير أنها ما كانت تدّخر منها شيئاً لنفسها. بل كانت تصرفه جميعه في سبيل الخير والعمل الرسالي.

من المعروف عنها أنها لم تتعلّق يوماً بزبارج الدنيا وبهارجها، رغم أنها ُبذلت بين يديها. وكانت مقتدرة على الأخذ بها من قرنيها. غير أنّها شاءت أن تبني صروحاً للهدى وهي ابنتُه.

لم نرها يوماً إلاّ في هندام حسنٍ جميل. ولكن في تواضع وبساطة. يوماً مّا لاحظت واحدةٌ من المريدات الدائمات أنها [أي الشهيدة] تديم اللبس بالأخضر. فسألتها هذه: علوية، أراك مذواقة وتحبين اللون الأخضر. فكل ما ترتدينه أخضر. فتبسمت الشهيدة وقالت: نعم إن هما إلاّ ثوبان ليس إلاّ!.

كانت تولي الجانب الإجتماعي عناية وأهمية، وترى التواصل الإجتماعي بِرا مطلقا، وعملا صالحاً وضرورة لبناء مجتمع متراحم ومتكافل. فحرصت بشكل دائم على القيام بزيارات متتالية ودءوبة للأهل والجيران والأصدقاء. وكانت تستفيد من أي مناسبة خاصة أو عامة، لتبرز من خلالها حبّها وترحمها ومشاطرتها لمن تزور في آمالهم وأفراحهم و أتراحهم.

لقد رأيناها تهتم بشكل خاص بزيارة العوائل الفقيرة والمهملة

والمهمشة، أو الذين لم يكن لهم سند من أهل أو أقارب أو امتداد اجتماعي معين. نتذكر هنا زوجة أحد طلاّب العلم الإيرانيّين، وكانت حاملاً في شهرها الأخير، ولقد عاشت في النجف بيئة غريبة عنها حيث لا أهل ولا أقارب ولا معارف ولا مال، إلاّ أنها كانت على علاقة بالشهيدة بنت الهدى.

وعندما حان أوان وضعها، تعهدتها الشهيدة. وصارت تباشر خدمتها بنفسها، رغم أنها كانت قادرة على تهيئة امرأة خادم لهذه المرأة الغريبة. إلاّ أنها أبت إلاّ أن تذهب هي إليها يومياً، تطبخ لها طعامها، وتغسل آنيتها وتقش دارها، وتخدم أضيافها إن دخل عليها أحد.

بقدر ما عهدت الشهيدة أمّا بارّة للأسرة، وموجهة حانية لهذا القطاع العريض من المجتمع، بقدر ذلك كنت أراها ربة بيت ناجحة، ماهرة في إدارة شؤون المنزل. فلم يمنعها تفرغها للنشاط الاجتماعي والتربوي من بذل جهودها في خدمة أهل بيتها وخاصتها. وبقدر ما كان القلم سيّالاً بين يديها، حبيباً إلى قلبها، كانت سكّينة المطبخ أيضاً في كثير من الأحيان تتراقص بين أناملها.

كم وكم رأيتها تقشر الباذنجان ـ الأكلةالمفضلة لدى الشهيد وعائلته ـ وعندما كانت رؤوس أصابعها تتلوّن بسواد قشرة الباذنجان، كانت تبادر إلى غسلها، وتعود مسرعة إلى أنيسها الدائم: (القلم ومايسطرون).

ولربّ سائل يسأل: لِمَ لَمْ تتزوج السيدة بنت الهدى إذن مادامت تملك هذه المقوّمات والملاكات لربة بيت ناجحة. ورغم أن الكثيرين

من الأكفاء من أبناء كبار بيوتات النجف العلمية، سادةً هاشميين كانوا أو من غيرهم، قد تقدموا لخطبتها؟

والجواب يكمن في أن الشهيدة كانت ترى أن ساحة العمل الإسلامي في العراق بحاجة إلى انضمام المرأة بكل كفاءة بجانب أخيها الرجل. وكانت صفوف الحركة الإسلامية تفتقد بالفعل هذا العنصر الإنساني الحيوي الفعّال. فعزمت على أن تفرغ نفسها كاملاً لخدمة هذا الجانب المقدس من العمل الرسالي وهو التعهّد بصناعة جيل من النساء الزينبيات، ليرفدن عجلة التحرك نحو الأهداف السماويّة. لقد كانت تؤمن إن من أهم وأشرف أدوار المرأة أن تكون زوجة صالحة وأمّاً بارّة ونواة لأسرة ناجحة. غير أنها كانت ترى أيضاً أن مسؤولية إعداد جيل صالح من النساء لأجل تكامل المجتمع المسلم في العراق، تفتقر إلى من يتفرغ ويتعهّد بتربية مثل هذا الجيل الزينبي. كانت تقول رحمها الله إذا وُجِّه إليها مثل ذلك السؤال: (إني لو تزوجت فقد أسعَد بتربية طفلين أو ثلاثة ولكنّي الآن أكثر سعادة وأشد فرحاً وهياماً، وأنا أرى أمامي هذه الأفواج من الفتيات الطاهرات والنساء الصالحات. إذ وفقني الله لخدمتهن و تنشأتهن بما يرضي الله).

وهي بذلك تشير إلى تعهدها الإشراف والإدارة والتوجيه لعدد من مدارس الفتيات الخاصة والموجهة. وكان تحت يدها آنذاك أربع مدارس تحت مسمى (مدارس الزهراء الأهلية)[1]. ثلاث منها كانت في

---

(١) كان تمويل هذه المدارس يأتي من جهة المرجع السيد الحكيم قدس سره.

بغداد والكاظمية، والرابعة كانت تقع في النجف الأشرف، بالقرب من الحرم الشريف في حي المشراق. ولقد كانت تتردد كثيراً بين النجف وبغداد لهذا الغرض. فكانت هذه المدارس مشاعل نور وهداية، ومصانع للعزة والكرامة الإسلامية. ومحطاً لآمال المؤمنين والمحرومين والفقراء. ومصدر ثقة ومصداقية عند جماهير الناس.

ولذلك كان الإقبال في كل سنة جديدة يتزايد واللهفة تكبر في أنفس الناس لتسجيل فتياتهم في صفوف هذه المدارس النموذجية، على إمكاناتها المتواضعة. مما حدا بالسلطة الطاغوتية الحاقدة في العراق آنذاك لأن تتحرك للقضاء على هذا المشروع الحضاري الكبير.

وصارت سلطات الحزب والدولة تحرك أقزامها لإشاعة جوٍّ من الأساريج والأكاذيب، حول حقيقة وأهداف مثل هذه المدارس وما يجري في داخلها. وصارت توعز لأجهزتها بعرقلة الإجراءات الرسمية المطلوبة لتسيير شؤونها، وتيسير أمورها.

ولما لم ينفع ذلك في محاصرة هذا المشروع وجعل الناس ينكفون عن التعلق به، وزعزعة ثقتهم فيه، عمدت لبعض الإجراءات الشيطانية الفاشلة.

وكمثال على ذلك: أرسلت أجهزة السلطة امرأة من عملاء النظام وذلك لإحداث بلبلة وخوف في أوساط الفتيات الصغار وأهاليهن. فقامت تلك المرأة المشبوهة، بمحاولة اختطاف فتاة صغيرة من مدرسة النجف بالمشراق. إلا أنها افتُضحت وباءت محاولتها بالفشل. وهكذا

جرت أحداث ودسائس أخرى من هذا القبيل.

إلا أن ذلك كله لم ينفع. ويئست السلطة من مواجهة هذا المشروع، الذي ظنته صغيراً.. وأنه يكفي مواجهته من خلال أقزامها.

وما كان من قيادة حزب البعث إلاّ أن تحركت على أعلى مستويات القيادة. فقد صدر قرار من مجلس قيادة الثورة البعثي في عام ١٩٧٢ م، نصَّ على تأميم جميع المدارس الأهلية في العراق كافة.

وكان المستهدف لهذا القرار في الدرجة الأولى القضاء على متاريس العفة والنور وقلاع الحجاب في العراق. وبالرغم من أن القانون السيئ الصيت هذا كان يشمل كل المدارس الأهلية بحسب ما ورد في بنود نصِّه. إلاّ أن السلطة سرعان ما أعادت الشرعية للمدارس الأهلية المسيحية والأرمنية والمدارس الأهلية الأخرى، مع دعم السلطة لها مادياً وإعلامياً. إلاّ مدارس نور الزهراء، فقد بقيت موؤودة.

لم تكن الشهيدة ذات أُفق محدود بحدود ما يدور في حيها أو حتى في مدينتها. بل كانت ذات شخصية واعية عالمة متفتحة، تتلقى بوعي، وتقرأ بنَفَس الناقد. تعشق المطالعة، وتتابع ما يدور حولها من أحداث. تلاحق المستجدات وتتفاعل معها، سواء مستجدات الساحة الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية. كان يعجبها أن تقرأ الشهيد المطهري من خلال كتبه، ونتاجه الفكري المتميز. بل شرعت في ترجمة كتاب لـه، رأته ذا نفع جم، وضرورة ملحة للساحة في العراق، وهو كتاب (مسألة أو فلسفة الحجاب).

ومن الإبداعات المتميزة التي أنجزتها الشهيدة، وسبقت بها زمانها مسألة التوجيه والإرشاد في حملات الحج، في السنين التي وفقت للحج فيها، خاصة على صعيد توجيه النساء من حجاج بيت الله الحرام.

فلقد كانت تحرص أن تلتحق ببعض حملات الحجيج سنوياً ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. لتقوم بأداء هذا الواجب المقدس. إرشاداً وتوجيهاً وتربية. وهو أمر لم يكن متعارفاً بين نفس العلماء الرجال آنذاك. فلقد كان الكثير منهم يستنكف عن أن يقوم بمثل هذه الخدمة. مخافة أن يقلل ذلك من شأنه. أو يلحقه من التعب مالا يطيقه. وإن استدعي أحدهم من قبل صاحب حملة للحج فقد كان يقتصر دوره على إقامة صلاة الجماعة، والجواب على بعض الأسئلة التي قد توجه إليه.

على كل حال، كان مستغرباً ـ إن لم يكن مستهجنا ـ ذلك الأمر عند البعض. فكيف إذا قامت امرأة من بيوتات العلم تخرق هذا العرف وتأتي بشيء جديد، قد يبزّهم ويحرّك الجوّ من حولهم.

ومن هنا فقد رأينا بعض التذمر من نشاط الشهيدة، الذي امتد إلى خارج العراق، وبالخصوص إلى عرصات الحج. وصارت تواجه بعض التهم والشائعات المختلفة:

من قبيل ما أُشيع عنها، من أنّها سافرت إلى الحج بدون غطاء تسدله على محيّا وجهها، ولعل السلطات البعثية كان لها اليد الطولى في ذلك. والقصة هي أن التلفزيون العراقي في نهاية كل موسم حج كان يبث رسالة مصورة، يغطي فيها حدث وصول الحجّاج إلى أرض الوطن. وفي

سنة من تلك السنوات التي حجت فيها الشهيدة، بثّ التلفزيون تلك الرسالة المعتادة، وأظهر مشهداً يبدو فيه الحجاج ينزلون من الطائرة على أرض مطار بغداد. ولما كان الناس ينتظرون ذلك الحدث ويراقبون الشاشة، لرؤية ذويهم من الحجاج، فقد عرف قسم من الناس شخصية بنت الهدى النازلة معهم من خلال هيأتها وسيماء الحشمة والحجاب الكامل الذي تلفعت به.

فقد كانت الوحيدة من الحاجات العراقيات التي غطّت وجهها مع كامل الحجاب، في ذلك المشهد المعروض.

ومع ذلك سرت شائعة بغيضة تقول: لقد رأيناها كاشفة الوجه في المطار. وصار كل من كان يبحث عن فرصة للتشفي أو لتوجيه أي نقد لبيت السيد الشهيد، يتعلق بذلك الغثاء، وينعق مع الناعقين.

أمثال هذه الشائعة كانت تتكرر بين حين وآخر عن الشهيد الصدر، أو عن واحد من خاصته وأهله. وليس ذلك مستغرباً. فهو جزء من الحرب النفسية. وصورة من صور الحصار الذي كان النظام يحاول فرضه على السيد الشهيد وآله.

لذلك كانت الشهيدة بنت الهدى، تكثر من الدعاء على الطاغية صدام وأعوانه ونظامه. ولقد سمعتها[1] مرات وهي تقول: (أنا ممن سيجثو للخصومة بين يدي الله عزّوجلّ يوم القيامة. ولأشكونّ صداما وكل من عاونه وأمده، وأحاكمه على صعيد محكمة الحساب الإلهي، على رؤوس

---

(١) الكلام هنا للفاضلة العلوية السيدة (خانم شاهرودي).

الأشهاد)[١].

كانت الشهيدة في وقارها وثباتها وقوة قلبها، أمثولة فريدة، أستطيع القول: أنها شابهت عمتنا الكبرى زينب عقيلة بني هاشمعليها السلام. فرغم حيائها الدائم وأدبها الجم، ولباقتها في الحديث، إلا أنها لم تدع للخوف والجزع طريقاً إلى قلبها الكبير.

جُرأتها في طرح ما تعتقده حقاً، واضحة وجلية، فلقد عرفتها المحافل الخاصة والعامة، تتكلم وتنتقد وتوجه وتلوم، وتحرض ضد الظلم والظالمين بكل شجاعة وحكمة. رغم القلاقل والاضطرابات والأوضاع الحرجة التي كانت تمر علينا في العراق، ويفرضها علينا النظام البائد،

ورغم وسائل الإرهاب والتخويف التي كانت توجهها السُلطة الغاشمة إلى بيت السيد الشهيد سراً وعلانية، إلا أنني[٢] لم أجدها جازعة قط، إلا في يوم يتيم، حيث كانت أجواء النجف متوترة قلقة. وفي ذلك اليوم دخلت بيت السيد الشهيد كالمعتاد، فرأيت وجوماً يعلو الوجوه. ورأيت الشهيدة في وضع المضطرب القلق، بل شُدِهتُ واندهشتُ عندما رأيتها للمرة الأولى تبكي، فخفت واضطربت، فهل حصل مكروه لا قدّر الله؟.

---

(١) تقول كلمتها هذه متمثلة بكلمة جدّها أمير المؤمنينعليه السلام: (أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله يوم القيامة).

(٢) مازال الكلام هنا للسيدة أم أحمد الشاهرودي حفظها الله.

ثم عرفت أن السبب أنهم كانوا ينتظرون عودة السيد الشهيد إلى البيت وقد تأخر في الرجوع على غير عادته. ولم يعرفوا لـه مكاناً. وكان هذا هو سبب اضطراب الشهيدة أخته. ولكن المفارقة أنني دخلت عليها مرة أخرى وكان الجو العام متكهرباً، والترقب والتوتر كانا يصبغان الساحات ويضطرمان في القلوب، فالسيد الشهيد كان معتقلاً في واحدة من جرائم الإعتقال المتكررة التي تعرّض لها. إلا أنها في هذه المرة، كانت ـ كعادتها دائماً ـ في كامل وقارها وثبات جنانها، تلهج بالدعاء والذكر، بينما أنا التي كنت خائفة على مصير هذا الرجل العظيم وعلى مصير الأمة من ورائه.

استقبلتني ورحبت بي كالمعتاد في حنوٍ وودٍّ. فسألتها ذلك اليوم: ما الحل وما العمل تجاه هذه التطورات السيئة من اجتراء واجتراح النظام على حريم العلماء والدين، وسلبيّة الأمة في موقفها؟ فأجابت في ثبات وثقة: (إنه دور العلماء ومسؤولياتهم، ولن يستطيع غيرهم أن يحرك ساكناً إن بقيت الحوزة والعلماء في سكون مطبق وصمت كصمت المقابر. وما النصر إلاّ من عند الله).

***

ام الشهيد.. تلك الثكول

في لبنان التقيت لأول مرّة أم الشهيد، قبيل زواجي منه بقليل، فرأيتها امرأة جليلة، عظيمة القدر، ذات مهابة وجهامة. كبيرة في السن. إذ كانت في السابعة والستين من عمرها. وقد لاحظت عليها أنها دائمة الاتشاح بالسواد. وبقيت مجللة به إلى أن توفاها الله، لم ترفعه عنها يوما منذ عرفتها.

كانت حليفة المصحف الشريف وسجادة الصلاة. لم تستغن عنهما يوماً. ولم تنقطع عن الذكر ما أمكنها. دفعني ما لاحظته منها لأن أتساءل وأتفحص عن دواخل هذه المرأة الجليلة: فما سبب هذا المظهر الحزين الدائم؟

لقد عرفت فيما بعد أنها امرأة ابتليت بلاءً مراً، في جميع أدوار حياتها. فقد قدّر لها أن تنجب سبعة من البنين، وسبعاً من البنات، دفنتهم جميعاً كلهم في حياتها. أحد عشر منهم توفوا صغاراً، لكن حتى الثلاثة الذين بقوا وعاشوا منهم وهم المرحوم السيد إسماعيل الصدر، وسيدنا الشهيد وأختهما الشهيدة بنت الهدى، هؤلاء أيضاً سبقوها إلى الدار الآخرة، وشاء الله أن تفجع بهم، فلم يبق لها من أولئك الأربعة عشر من

فلذات كبدها من يقف منهم على قبرها، بعدما دُفنت غريبة مظلومة، عن عمر ناهز السادسة والثمانين رحمها الله.

كان المرحوم السيد إسماعيل، هو الابن الحادي عشر في سلسلة ولائدها، ثم ولدت من بعده طفلاً اختاره الله في صغره كمن سبقه، وكان شهيدنا الصدر هو صاحب الرقم ١٣ في تلك السلسلة التليدة.

وآخر حلقات تلك السلسلة هي الشهيدة بنت الهدى. فخْرُ جيلها وعميدة نساء عصرها.

الأب المرحوم السيد حيدر الصدر، ودّع عائلته وارتحل عنها، وكان عمر الشهيدة ابنته شهوراً معدودة. وهكذا خيّم شراع الحزن على وجود هذه المرأة الصابرة، المستسلمة لقدرها ولربها. فإن خسائرها لم تقتصر على فقْد ولدها، بل ابتليت كذلك في جميع قراباتها وذويها من الإخوان والأخوات. وهكذا عاشت في غربة لَفّتها وصبغت وجودها، واختتمت أحزانها بداهية فقدها للشهيدين الأخيرين من ولدها.

تلك هي الحاجة الفاضلة سليلة بيت العلم والشرف "بتول" ابنة المرجع الكبير الشيخ عبد الحسين آل ياسين. وإخوانها ثلة من مراجع الدين المعروفين في النجف الأشرف: الشيخ محمد رضا آل ياسين أشهرهم وأفضلهم علماً، والشيخ راضي، ثم الشيخ مرتضى آل ياسين، أما أخواتها فهنّ خالات السيد الشهيد وأزواج أعمامه كما سلف.

كانت أم الشهيد تخيط ملابسها السوداء بيدها، وبوسائلها اليدوية البسيطة: الخيط والإبرة لا غير. وكان الشهيد كثيراً ما يلاطفها، ويحاول أن يخفف عنها أحزانها الدائمة. كان يقول لها: تعزي بنا فنحن اليوم

بجوارك. ونحن الذين بقينا لك. لقد اجتهد كثيراً للتغيير من وضعها النفسي. وإدخال السرور على قلبها وخاصة بعد افتقادها ابنها السيد إسماعيل. وأودع التراب وهي حية ترزق، على أنها لم تجزع ولم تعترض على قدر الله. لكن هذا شاق على قلب الأم. وفي الأخير تعلقت أكثر، وصبت كل آمالها على السيد الشهيد وأخته بنت الهدى. اللذَين ما فتئا يحاولان التعويض عليها، إلى أن أجرى الله مقاديره بحسب ما شاء وله الحمد.

من جهتي، منذ دخلت بيت الشهيد، فقد أحببتها وأحبتني، فغدت لي أمّاً، وصرت لها كبنت الهدى، وحاولت أن أوحي لها بأن تعتبرني كإحدى بناتها اللاتي افتقدتهن، وأنا عوض من الله لها.

وكانت على قدر استطاعتها قد اختصّت ابنتي الكبرى بمزيد من الرعاية والحب، حتى أنّي كنت أشتغل تماماً بشؤون البيت دون أن أقلق ذرة على ابنتي الرضيعة ما دامت تحت نظر وعناية جدتها، إلى أن كبرت.

كنت أجلس بجانب الحاجة أم الشهيد فترات طويلة، نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث، وفرط سعادتها وانجذابها عند ما كان يتجه الحديث إلى ماضي الذكريات. كانت تحدثني عن ماضي الأجداد والآباء وأحداث العراق، والأهل والناس.

من تلك الذكريات التي حدثتني بها أن السيد الشهيد عاش يتيما، قد رحل عنه والده (السيد حيدر) وللشهيد ثلاث سنوات. وكان رجلاً

حنوناً، وزوجاً محباً، وأباً رؤوفاً، كان من العلماء الأفذاذ ومن المجتهدين البارعين. قالت عنه: إنه كان لي خير معين على محنتي التي لازمتني بفقد الولد والأحباب، صابراً ومشجعاً، ذاكراً ومذكراً. ثم تتأوّه بتفجع لتقول: آه.. كم افتقده وأشعر بالغربة من بعده.. أني لأنعُم وأسعَد بشذى تلك الذكريات.

إن السيد حيدر زوجي عالم معروف في أوساط العلماء والفقهاء. وقد كان من مراجع التقليد وأئمة الفتيا، ولـه ذكر جميل في بعض الكتب والمجلاّت(١).

ويستمر هدير الذكريات على لسان أم الشهيد عن زوجها المرحوم فتقول: إن ليلة وفاته أحدث شرخاً في قلبي وزلزالاً في وجودي، لم أجد بعده قراراً، فقد اجتمعت عليّ بعده عساكر الهم وتكاثرت. لقد كنت في السابعة والثلاثين من عمري، وترك لي طفلة رضيعة ـ هي بنت الهدى ـ مع فتىً في الثالثة، مع أخٍ لهما في بدايات شبابه ـ هو السيد

---

(١) لعلها تشير بذلك إلى ما أثبته الشيخ محمد رضا النعماني في كتابه (سنوات المحنة) نقلا عن مجلة (النجف) العدد ٣ ففي موضوع لها نقلت مقالة جميلة عن الإمام عبد الحسين شرف الدين في حق المرحوم السيد حيدر الصدر، فقد كتب عنه: (لقد عرفته طفلاً، فكان من ذوي العقول الوافرة، والأحلام الراجحة، والأذهان الصافية، كان وهو مراهق أو في أوائل بلوغه، لا يسبَر غوره، ولا تفتح العين على مثله في سنّه. تدور على لسانه مطالب الشيخ الأنصاري ومن تأخر عنه من أئمة الفقه والأصول، ولـه دلو بين دلائهم، وقد ملأه إلى عقد الكَرب، يقبل على العلم بعقله ولبّه وفراسته. فينمو في اليوم،مالا ينمو غيره في الأسبوع.مارأت عيني مثله في هذه الخصيصة، وقد رأيته قبل وفاته بفترة يسيرة وقد استقر من جولته، في غاية الفضل، لا تدركها همم العلماء. ولا تبلغها عزائم المجتهدين).

إسماعيل ـ ولكن قبل ذلك، ترك فلذات لكبدي وكبده توزعت رموسهم بين قبور الموتى.

توفي في مدينة الكاظمية، في ليلة مدلهمة من ليالي البؤس والفقر الذي كنا نصالِيه في تستر مطبق.. مع أنه كان مرجعاً للتقليد من كبار المراجع. غير أن العفة والنزاهة لم تسمحا لـه بالاستفادة من موقعه لأخذ أكثر مما كان يراه فوق حقه، حتى لقد بتنا في الليلة التي أعقبت وفاته بدون طعام عشاء للأطفال، إذ أنه كان يتصرف في أي مبلغ حق شرعي يصله في نفس يومه، بعد أن يأخذ منه لنفسه ما يتبلّغ به وعائلته.. ويبقى اليوم الآخر رهناً بما قد يصله. وهكذا قضينا ليلتنا تلك، يقض الحزن مضجعنا، وينهش الجوع مطاوينا! لخلوّ الدار مما قد نقتات به. وبقي الحال على هذا العسر والضيق شهراً كاملاً بعد وفاته، إلى أن تطوّع المرحوم الشيخ عبد الحسن البلداوي، الذي كان من أعوان وأيادي المرحوم السيد حيدر، فبذل وقته وجهده لرعاية العائلة. فاحتوى فتاها الكبير السيد إسماعيل، وتعهد الطفلين (الشهيدين لاحقاً): محمد باقر وأخته الرضيعة آمنة. ولذلك تعلقا به وكانا يعتبرانه عمّاً للأسرة، ولم يعرفا ظلاً لرجلٍ حانٍ بعد أبيهما غيره.

هذا بالطبع مع متابعة الأخوال والأهل والأخوان. إلاّ أن الشيخ عبدالحسن كرّس نفسه لتلك المهمّة الخيِّرة.

مما روته الحاجّة الفاضلة عن تلك الأيام الصعبة، حادثة لطيفة لافتِة، بل عجيبة! قالت: أن الفتى الصغير سيد محمد باقر الذي كان قد تخطى

بالكاد سنيّاته الثلاث جاءني يوماً يشكو الجوع، وهو يلح في طلب أكلة يحبها وهي شهيرة في العراق، وهي خبر اللحم. كان ذلك بعد صلاة الظهر، فصار يزيد إلحاحاً ويصرخ طالباً ما يشتهيه، تحت ضغط الجوع الذي كان يعصر أمعاءه. قلت: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، من أين آتي لك الآن يا بني بخبز اللحم، وما من لحم في البيت(١). هاك اكتفِ بكسرات الخبز هذه. فلم يقتنع الطفل وصار يبكي، محتجا على اعتذاري وعجزي عن توفير هذه الطلبِة لـه. وتحايلت عليه بقطعة من الكعك. ثم غسلت لـه وجهه، وأقنعته بقولي: (بأننا سنخرج إلى بيت والدي، وقد تجد بغيتك هناك إن شاء الله).

وكان من عادتي يومياً تقريباً أن أذهب إلى بيت والدي، أقضي فترة العصر هناك، وأعود عند الغروب. وبعد عودتي ذلك ا ليوم إلى البيت قبيل الغروب، نزلت إلى قبو البيت (السرداب)، واتجهت إلى صوب البئر، لكي استعدّ لتحضير طعام العشاء. وكنّا في السابق إذا أردنا أن نحتفظ ببعض ما يتبقى من الأطعمة المطبوخة أو البيض أو الجبن بعيداً عن التلف، نعمد إلى جعله في إناء خاص من سعف النخيل، ونعلقه في داخل فوهة البئر في أسفل الدار. لأنه أبرد مكان في البيت على الإطلاق ونجعله بطريقة يحفظ معها الطعام عن الحشرات والتلف معاً.

عندما دخلت القبو واقتربت قليلاً من موقع البئر، أثار استغرابي شيء

---

(١) المعلوم أن القصابين في ذلك الزمان لم يكونوا ليبقوا في حوانيتهم إلى ساعة الظهر. فلم تكن المبردات يومذاك قد وصلت حتى يحتفظ باللحم سالماً طوال ساعات النهار أو أكثر.

لم أعهده من قبل، لقد شممت رائحة تشبه الشواء أو اللحم المحمّر (المكبّب). تلفت من حولي يمنة ويسرةً. فلم أجد على أرض القبو غير ما كنت أعهده هناك. ولكني لاحظت أني كلما اقتربت من البئر كلما تأكّدت الرائحة وتكثفت. وما أطللت برأسي داخل فتحة البئر، حتى فوجئت بمقدار من خبز اللحم الطازج والساخن كأنه للتو أخرج من تنوره ووضع في هذا المكان. فاستغربت وثارت دهشتي، لأن أحداً غيري لا يصل إلى هنا في العادة. ولما أن سألت ابني السيد إسماعيل والشيخ البلداوي الذي كان قد حضر بعد عودنا لبعض شؤونه، أبديا دهشتهما، ونفيا أي علاقة أو علم بالموضوع!.. قلت لنفسي: على كل حال، من يرفض رزقاً من السماء؟... أخذته متلهفة ووضعته أمام الأطفال، وأقبلنا عليه نأكل منه، كما لم نأكل مثله قطُّ: لذة وهناءً و(ريّاً) أيضاً، حيث لم نشعر بأيِّ عطش أو رغبة في شراب بعده.. ولله المنة).

سمعت هذه الرواية من المرحومة الحاجة، فزادتني شهية وطمعاً في الاستزادة من أحاديثها عن ماضي السيد الشهيد (زوجي)، لعلي استشرف ملامح «المستقبل» الذي ينتظر هذا الرجل الفريد.

ذكرت لي أنها كانت يوماً، معه خارج المنزل، وهو في عمر الخامسة، قالت: (وعند عودنا، وقبيل دخولنا إلى الدار، رأيته قد انكبّ إلى الأرض يبحث عن شيءٍ مّا. فقلت: سيِّد محمد باقر، هيّا لندخل، إن الجو بارد، وليس الوقت يسمح بالتأخر واللعب، فأجاب: لا يا أمّاه، لست ألعب، وإنما أنا أبحث عن قلمي الذي سقط مني هنا. فقلت: لا تهتم يا

حبيبي، تعال وسأشتري لك غيره. ولكنّه أصر على البحث، فسبقته ودخلت. وإذا به يدخل بعد هنيهة، وبيده قلم رصاص صغير بحجم إصبعه. أي كان القلم تقريباً يلفظ أنفاس آخر أيامه، لكثرة بريه واستخدامه.! فتعجبت من تعلقه بهذا القلم وحرصه عليه وشدة اعتزازه به، رغم بذلي الجديد لـه عوضا عنه.

وحكت لي رحمها الله أيضاً: أنها نادته يوماً وهو في عمر السادسة، تقول: (وكررت النداء: سيد محمد باقر. سيد محمد باقر. فلم أسمع لـه جواباً. وفزعت، لأنني كنت شفوقة بدرجة مفرطة على هذين الطفلين.. كونهما بقيّة الله لي من نثار أحشائي. خاصة مع يتمهما والحرمان الذي يلفهما. ثم ناديت على أخيه سيد إسماعيل ليبحث عنه. وهو بدوره بعد اليأس من العثور على الفتى، استدعى الشيخ البلداوي ليشترك معنا في البحث. وبعد مزيد من البحث والتعب، وقع عليه الشيخ عبد الحسن، في مكان لم يدُر في خُلْد أحد، أن قد يوجد فيه ذلك الطفل اليتيم. لقد وجده منشغلاً مستغرقاً في عالمٍ وحده. وذلك في زاوية من زوايا الدار المهملة، كان قد استغرق في تهيئة مكان يسع جسده الصغير في داخل فجوة قديمة، قد أحدثها الزمن في جدار[1] متهرئ من تلك الناحية المهملة من الدار. ومثل هذه الفجوة أو الشرخ، كان العراقيون يسمونها (كتّة) ولقد وُجد «محمد باقر» في داخل الكتّة، يعدّ مكانا يحوي جسمه الصغير

---

(١) كانت طريقة البناء القديمة تقتضي بأن تكون الجدران سميكة، بحيث يبلغ سمك الجدار أكثر من نصف متر.

آنذاك كصومعة للعزلة! صار الفتى يلجأ إليها كثيراً ليديم الخلوة والتأمّل.

وقد كنّا نسمع منه في تلك الأحايين عبارات كبيرة لا تصدر في العادة عمّن هو في سنِّه، وكانت تصدر منه مواقف ومشاعر عجيبة هي في مغزاها وخلفياتها أكبر من تجربة ست سنين.

وعندما كبر الصبي ضاقت عليه تلك (الكتة)، فتوجّه إلى مخزن صغير كان يعلو سقف إحدى حجر البيت، ذي مساحة صغيرة، وكان ذلك المخزن قليل الإنارة، ضعيف التهوية [كنا نسمِّيه «الكنجينة»(١)] وقد صار يلجأ إليه محمد باقر ويجلس فيه ساعات متوالية يتأمل ويفكر ويكتب.

كان الناظر إلى ذلك الصبي يكتشف فيه ـ بسهولة ـ رجولة قبل أوانها، ونضجا مبكرا. لكنّه في مقابل ذلك كان إلى جانب التّوقد في ذهنه والنضج في مشاعره، كان كثير العلة في جسده، لا تبارحه الأسقام إلا قليلاً..إلاّ أن ذلك لم يكن يهدّ من إرادته، ولا ليغير من عزائمه وخصائصه شيئاً.

وتسترسل أم الشهيد لتقول: وكبر الطفل وصار مهيأً ـ من حيث العمر ـ للالتحاق بصفوف مدارس البنين، رغم أنه كان قد تعدى المراحل الأولى لتعلم القراءة والكتابة بل لما بعدها. وسُجِّل طالباً في مدارس منتدى النشر الابتدائية بالكاظمية. وسرعان ما نال إعجاب الجميع من حولـه، تلاميذ ومدرسين وإدارة. واشتهر نبوغه وأدبه

(١) هي كلمة فارسية مستعملة في العراق تعني (الخزانة).

وتميّزه. وصار مضرب مثلٍ لكل من يريد أن يَنْصب قدوة لابنه: (هذا زميلك محمد باقر الصدر في عمرك، فلتكن مثله).

لقد صار الفتى أعجوبة لمن حوله،فتحول إلى قطب رحى في مدرسته، يكثر الزملاء من التحلق حوله، ليسمعوا. ويحب الأساتذة أن يحادثوه، ليلتقطوا من درر حديثه.

عندما كانت تخرج مواكب العزاء، أو وفود الأفراح في المناسبات الدينية المختلفة، كان السيد (محمد باقر الفتى) في مقدم تلك المواكب والوفود، المتجهة إلى حرم الكاظمين عليهما السلام وهناك كان يرتقي المنصة.

ولربما وضعوا تحت قدميه كرسياً يرتقي عليه، ليبرز شخصه للجميع، فيلقي الأحاديث، بل وكان يرتجل الخطب في التأبين والرثاء والمواعظ والإرشاد[١]. ففي إحدى المناسبات تلك، وكانت ذكرى ميلاد الإمام الحسين عليه السلام وضعت المنصة، للحفل البهيج في الصحن الكاظمي الشريف، وهناك ارتجل كلمة بليغة بالمناسبة على صغر سنِّه، حتى أن خاله آية الله الشيخ "راضي آل ياسين" الذي كان حاضرا، لم يتمالك نفسه لشدة إعجابه بما خاطب به السيد للجمهور. فقام وقال بصوت مرتفع مسموع: أحسنت، أحسنت يارافعيَّ العراق[٢].

هنا تذكر الحاجة الفاضلة أم الشهيد: أنها لما رأت هذا النبوغ وهذه

---

(١) من المعروف أن للسيد الشهيد نتاجات فكرية قديمة مند بدايات عمره. ولذلك لا يستغرب منه إبداع عظيم مثل كتاب (فدك في التاريخ) الذي كتبه في السابعة عشرة من عمره.

(٢) تشبيها لـه بالكاتب الفذ والمفكر والأديب الكبير المعروف: مصطفى صادق الرافعي.

العبقرية المبكرة لفتاها. تفتق الأمل في نفسها عن طموح مشرق لمستقبله. فهو مادام قد حباه الله بهذا التفوّق، فلسوف يكون نعم من يحيي سيرة أجداده، ورأت فيه خير امتداد لسلسلة من الأسماء اللامعة المباركة، التي حلقت في سماء الفقاهة والمجد، تاريخاً ممتداً. وصارت تشجعه على الاستعداد للتوجه إلى النجف الأشرف للالتحاق بركب العلماء من أجداده وأسلافه..

ولكن في هذه الفترة أيضاً، والفتى كان بين ربيعه العاشر والحادي عشر، وُجد في أوساط الأهل اتجاه آخر، يغذّيه قريبهم الوجيه السيد محمد الصدر، رئيس وزراء العراق الأسبق، الذي صار يأمل في السيد الشهيد أيضاً أن يكون لـه شأن كبير ومؤثر في مستقبل العراق، بعد ما عرف منه ذلك التميز. وسمع ورأى بنفسه كثيراً من مظاهر النبوغ والعبقرية من الصبي. فكان يغتنم الفرصة للحديث معه كلما جمعه به مجلس. بل صار يدعوه للذهاب معه إلى مزرعته خارج بغداد، ويصطحبه معه على صهوة جواده، فيحادثه ويمنّيه لتشجيعه ودفعه لمواصلة الدراسات الأكاديمية المتخصصة، ووعده بالدّعم والتأييد. وتهيئة الفرص لـه ليتسنمّ أعلى المراتب العلمية والاعتبارية في العراق. ولكنّ الشهيد ـ تقول أمه ـ أنه كان على حداثة سنه، راسخ الفكرة واضح الاتجاه، فكان يجيب على ذلك الرجل الكبير والمحسن الكريم: أن الاتجاه إلى الحوزة العلمية هو خياره واختياره، على الرغم من أنه كان يعي تماماً الضائقة المادية التي كنا نعيشها، ويدرك أنه لو اتجه إلى

الخيار الآخر، فإنه سيتمكن من رقبة الدنيا، وسيأخذها عريضة بكلتا يديه.

وتوضح الحاجة المرحومة أم الشهيد: أنّ لكلا هاذين الاتجاهين ـ في محاولة رسم مستقبل الفتى النابغ ـ كان هناك أنصار ومؤيدون لكل واحد من الخيارين المذكورين في أوساط أفراد الأسرة والأقارب والمحبين.

ولكن الشهيد قد حسم خياره مبكراً. وبدأنا نرى منه بعض التصرفات، أو نسمع منه تركيزاً على بعض الكلمات التي يشير من خلالها إلى ذلك الحسم والعزم والإصرار على ما اختار.

ولن أنسى تلك الأيام التي رأيناه فيها، قد غيّر من سلوكه الغذائي، فقد مرّ عليه يوم لم يتناول فيه شيئاً من الطعام، عدا قطعة جافة من الخبز، مع شيء من الماء طوال يومه. فسكتُ أنا أمُّه على مضض ولم أكلمه. لأني أعرف ولدي أنّه إذا صمم على شيء، فإني أولا أثق في حكمته على صغر سنه. ثم إني كنت أيأس من محاولة صدّه عما يعزم عليه. ولكني ازددت قلقاً عندما كرر نفس السلوك في اليوم الثاني. وهكذا انصرم اليوم الثالث على نفس المنوال، ولعلّ الرابع كذلك أيضاً. حتى أثار انتباه المحيطين ودهشتهم. وسرى النبأ عند الجميع الذين كانوا يتلهفون لسماع أخباره ويراقبونه، ويأملون فيه الكثير. ولكن مثل هذا التصرف لم يكن ليرضي أحداً خوفاً على سلامته. مع أنه كما قدمت لم يكن يخلو عادة من الأسقام والعلل.

ولما تكرر عليه السؤال القلق: عن هذا العزوف عن الطعام، وهذا التصرف الذي اعتبره البعض إيذاءً لنفسه؟ برّر الفتى ذلك التصرف حين واجهناه محتجين على مسلكه المؤذي ـ في نظرنا ـ أجاب قائلاً: (إن من يقدر على أن يعيش أيّاماً على القليل من الخبز والماء القراح. فلن يضره فقر متوقع، ولن يزيده البؤس جوعاً، ولن يخاف من الله الذي «هو يتولى الصالحين» حيفاً ولا جوراً).

وهكذا أفحم وألجم كل من كان يثبطه عن الإلتحاق بركب أسلافه على طرق العلم. وشكل بذلك إعلاناً منه للجميع وإعلاما بما اختاره. وحجة دامغة على صوابية اختياره.

تلك الساعة كانت بداية حاسمة لاشتغاله بعلوم الحوزة الشرعية، حيث بدأ يتلقى مقدمات الدراسات الحوزية بشكل فردي، وبمساعدة وتوجيه أولي من أخيه السيد إسماعيل، وطوى المراحل الأولى، وما يسمى بعلوم السطح دون أستاذ. وسرعان ما تأهّل لأبحاث الخارج في النجف، التي أنهاها بسرعة أيضاً.

وهكذا تم انتقال العائلة إلى النجف مع الفتى الموفق السيد محمد باقر الصدر ومن أجله، منذ ذلك اليوم.

بانتقالنا إلى النجف الأشرف، ودخول السيد محمد باقر إلى مجالس العلماء وبحوث الخارج، بدأ يتردد اسمه في الأوساط كظاهرة ملفتة، وغدا رقماً صعباً في المعادلة الصعبة التي تحكم الحوزة العلمية بأعرافها وقوانينها وتراتبيّتها. فهذا الفتى اليافع الذي لم يقلّد في الفروع الشرعية

فقيها ـ غير نفسه ـ مذ بلغ سن التكليف الشرعي كما كان يؤكد هو بنفسه. وكان معروفاً آنذاك أنه بلغ مرتبة الاجتهاد قبل أن يجاوز العشرين من عمره. ثم لم تمض سنيّات معدودة من بعد مجيئه إلى النجف، حتى استقلّ هو بمنبر للتدريس. وصار يلقي أبحاث الخارج العليا على تلاميذه وعمره يناهز السادسة والعشرين. وكان الشيب قد كسا وجوه بعض حضاره وتلاميذه.

يذكر هنا أن سماحة المرحوم آية الله العظمى الشيخ محمد رضا آل ياسين ﷺ[1] كان لـه مجلس درس في أبحاث الفقه والأصول العليا وقت مجيء السيد الشهيد ابن الثانية عشرة إلى النجف.

فصار الفتى يحضر مجلس الدرس أمام ناظري خاله المرجع. والخال كان يظن، أنّ الصبيّ إنما يأتي تبرّكا واستئناساً ليس إلاّ.

وفي يوم طرح الأستاذ ـ الخال ـ مسألة علمية عويصة، وطلب من حضّاره أن يغدوا عليه في اليوم اللاحق يحمل كل واحد منهم في جعبته نقداً أو إشكالاً علمياً أو تعليقاً على رأيه في تلك المسألة. ففوجئ الأستاذ ـ الخال ـ بذلك الفتى يحضر في اليوم الآخر أول القوم، ويبادره قبل تجمعهم[2] بطرح النقود والإشكالات على الرأي الذي طرحه خاله الأستاذ، الذي بقي يستمع فاغراً فاه من الدهشة والتعجب لهذه العبقرية

---

(١) وهو خال السيد الشهيد ﷺ.

(٢) يبدو أن ذلك كان تأدباً وحصافة من السيد الشهيد، حتى لا يحرج الآخرين من العلماء وحضّار البحث، الذين لم يوفقوا لما اهتدى هو إليه.

الفريدة. وهذه أول شرارة انقدحت في سماء النجف، لتكشف عن واقع هذا الفتى المعجزة. الذي صارت المجالس العلمية تتكلم عنه وتعدّد مآثره العلمية، حتى أنه بعد مضي سنوات قليلة على ذلك، عندما أشرف المرجع الديني الشيخ مرتضى آل ياسين، الخال الآخر للشهيد، عندما أشرف على الوفاة وكان على فراش الموت، سألته إحدى بناته: إلى من نرجع في التقليد من بعدك يا أبي؟ قال لها: عليكم بحجة الله السيد محمد باقر الصدر، فهو حجة الله عليكم.

* * *

الباب الثاني

الشهيد كما تقرأه أم جعفر

الشهيد في مجتمع النجف الاشرف

لقد أدخلت عروساً على السيد الشهيد وهو رجل كامل، قد بلغ شأوه، في ذلك المجتمع النوعي.. وكان عمره عند اقتراننا سبعاً وعشرين عاماً. وقد عُرف آنذاك واشتهر عنه اجتهاده، وتسنّمه أعلى المراتب العلمية. لـه طروحاته الفكرية المتميزة ونظرياته المبدعة، في كلّ الحقول العلمية. وله اسمه وأتباعه ومريدوه وأنشطته الجهادية في المجتمع. كان بيته بيت مرجعية تقريباً، وإن لم يطرح نفسه في ذلك التاريخ كمرجع للتقليد، احتراماً للفطاحل من كبار مراجع التقليد المعروفين ذلك اليوم. بل إنه دعم تلك المرجعيات بكل ما يستطيع، رغم أنّ لـه مؤاخذاته وملاحظاته الخاصة على وضعية المرجعية ككل. ودورها وطريقة تعاطيها مع الأوضاع والأحداث، سواء الداخلية منها أو العالمية.

لقد رأيته مذ تعرفت عليه وارتبطت به يحمل همّ «المرجعية الرشيدة». فكان ينادي بها،ويستخدم كل أدواته المتوفرة من خلال دروسه وتلامذته وكتاباته ومجالسه، لنشر مفهومها والدعوة إلى العمل من أجل إقامة ومَأسسة هذا الصرح البنّاء، في بيوتات المرجعية الموجودة فعلاً.

لمْ يقصد من ذلك بناء مجد شخصي ولا كان يتأمل يوماً أن تنصرف الأنظار إليه، وهو الذي انسلخ عن ذاته، وذوّب كل أنانياته وصهر وجوده فناءً في ذات الله وجهاداً في رضاه، ورضاه لا غير.

بل قد عرفه الجميع بالتواضع والأدب الجم ونكران الذات. حتى أنّه لم يكن يقبل أي إطراء أو ثناء من أحد. ولم يكن يرضى بإضافة الألقاب إلى جانب اسمه المبارك على أيٍّ من مؤلفاته أو مقالاته. بل كان يدفع الآخرين من طلاّبه ومريديه لتبني هذا الخلق الكريم. وأنّ (من كان حقيقته جوزة، فلن تصنع منه الألقاب جوهرة، ومن كان جوهره حقيقةً، فلن تتبدّل حقيقته أو تنقلب إلى جوزة، إذا ما نودي باسمه عارياً عن تلك الألقاب).

من ضمن البرامج التي اعتاد السيد الشهيد الحرص على إجرائها دورياً مسألة إقامة مجالس العزاء، في بعض المناسبات وخاصة في ذكرى وفاة النبي الأعظمﷺ ووفاة الإمام السجاد، والإمام الكاظمعليهما السلام. وكان يستضيف عدداً من الخطباء المعتبرين في النجف، كالشيخ المرحوم عبد الحميد الهلالي، وابنه الشيخ جعفر، والشيخ شاكر القرشي، وغيرهم كثيرون، وفي مرة، استضاف الشهيد خطيباً بارعاً، كنا نحبّ ـ نحن نسوة البيت ـ الاستماع إليه، وهو الشيخ الإيرواني رحمه الله، ثم إنه استأذن السيد الشهيد، بعدما أنهى قراءة المجلس في أن يلقي قصيدة في ذكر الشهيد ومدحه. فرفض الشهيد، وألحّ الخطيب، ولكن الشهيد أصرّ على الرفض بشدة، حتى استسلم الآخر أمام مهابة السيد الشهيد.

إن تواضعه وانسلاخه عن حظوظ ذاته، هو الذي دفعه ليزجر خادم المجلس (البراني) المرحوم الحاج عباس، المؤمن والمحب المخلص عما كان يتفوّه به أحيانا. فقد كان يدفعه إعجابه بسيّده (الشهيد) لأن يكرر أمام الشهيد والملأ الحاضرين قوله: سيدنا؛ إنّك لست فقط ابن أمير المؤمنين بل أنك أنت بنفسك أمير للمؤمنين، فكان يبدو على محيّا الشهيد الانزعاج، فيزجر الحاج عن ذلك ويأمره بالكف وتقوى الله.

بالطبع: هذا الحاج الطيب كان قد فجع بعد إعلان إعدام الشهيد، وآلمه النبأ أشدّ الإيلام، حتى لقد أصيبت مقاتله بذلك النبأ، وسرعان ما خسرناه من بعد الشهيد، فقد توفاه الله إلى رحمته بكمده وحزنه وغمه.

وفي حادثة أخرى: أتذكر أن شائعة سرت في أوساط بعض المحبين والأتباع، من أنّ هناك رواية تنسب إلى النبيﷺ، تتضمن الحديث عن أحوال آخر الزمان وانحراف أهله وأخلاقهم وأنه يأتي في ذلك الزمان رجل من ولدي، يبقر العلم بقراً، وأنه وأصحابه سيتعرضون لألوان من الظلم والاضطهاد والتهوين حتى من قومهم. وأنهم سيكونون كالغيوم المتفرقة في فصل الخريف. وأن المقصود بذلك هو السيد الصدر وأتباعه.فوقف الشهيد أمام هذه الشائعة، ومنع من انتشارها. وكان يعاتب من يعرف أنه يقف وراءها.

إن الحديث عن أخلاقيات الشهيد حديث يطول ذكره. فمعاملته مع الناس من حوله. ومشاعره تجاه المؤمنين، وعواطفه الجياشة تجاه الأصدقاء والضعفاء والمحتاجين، بلغت مستوىً، جعل البعض يعيبه

عليه. ما كان يسمع خبراً يسيئه عن بعض أصدقائه، أو حتى طلابه، أو أي إنسان آخر يتعرّض لألم أو مصاب، حتى تنهمر عيناه بغزير الدموع. كما حصل أيام تسفير طلابه(١) من قبل النظام البائد. فقد كان يودّع الواحد منهم وهو في حالة من الأسى، وهو يقول: والله يعزّ عليّ فراقكم.

ومن القضايا التي تأثر لها فآلمته وأحزنته، حين نُقل له خبر وفاة تلميذه السيد عبد الغني الأردبيلي، فتفجع له ورثاه رثاءً بليغاً. وكذلك تأثر بنفس الدرجة لرحيل صديقه الوفي والحبيب إلى قلبه المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية(٢).

لقد عهدته دائماً يسوي بين أطفاله، وبين من يسمّيهم أولاده من تلامذته والمحيطين به من حيث الحب والرعاية والتحنن الذي كان يبرز منه تجاههم. كان يشعر بأبوة صادقة تجاههم وتواضعه وتنازله عن حقوقه الشخصية لأجل طلابه، وتفانيه في حبّهم، وإيثاره لهم بوقته وجهده، وكل ما يقع في يده من إمكانات، كان أمراً ملموساً.

لم يحلم يوماً أن يكون له دارٌ خاصة مملوكة له، ولم يسع أن يملك من حطام الدنيا، ما هو من الأمور المعتادة عند سائر الناس. نعم

---

(١) تعرض مجموعات من طلابه ومريديه عدة مرات للترحيل والتسفير القسري عن العراق سواء إلى إيران أو اللبنانيون منهم إلى لبنان، وكان منهم سماحة المرحوم الشهيد السيد عباس الموسوي ﷺ وسماحة الأمين العام السيد حسن نصر الله ﷺ.

(٢) كان للسيد الشهيد علاقة صداقة وأخوة حميمية مع المرحوم الشيخ مغنية. وكان المرحوم الشيخ يرى للسيد الشهيد موقعية وأثراً متميزاً عن غيره، وكم كرر الشيخ على مسامع السيد الشهيد: (لولاك لأصبحت شيوعياً كغيري مما أراه).

كان يأمل كثيراً في أن تتوفر قطعة أرض كافية، ليوقفها مدفناً لـه ولمن أحبّ من تلامذته وخواصه. وحتى هذا الأمر المشروع والنزيه، لم يتحقق لـه. بل قد غُدِرِ بليل، وقتل في الظلام، ثم أُخفي قبره عقدين ونصف من الزمان، إلى أن شاء الله أن يظهره كالشمس قد أشرقت، رغم ما حاول الطغاة أن يطفئوا نوره، وأبى الله.

كان السيد الشهيد مستعداً، تمام الاستعداد، لو نكل الجميع عن تحمل الأدوار الصعبة، للتصدي بنفسه إن رأى الضرورة تقتضي ذلك. لقد كان يرى أن المرجعية يجب أن تبقى دائماً متقدمة في الصف الأول من صفوف المواجهة: مجاهدةً للطاغوت، ومحارَبةً للفساد، وأسوةً في مشاركة الفقراء والمحرومين آلامهم وهمومهم.

كان دائماً يكرر: (إن مرجع التقليد الذي تقاد إليه رقاب الأموال الشرعية، باعتباره خير أمين مستأمَن عليها، يجب أن يكون آخر من ينعم بمأكل ومشرب أو بملبس ومفرش، وأشباه ذلك. ألم يقل نبي الهدى ﷺ (ليشرب ساقي القوم آخرهم)؟ فهكذا يجب أن يعيش المرجع كسائر طلبة الحوزة ولا يتميز عنهم بشيء).

لذلك فإنّ السيد الشهيد لم يدّخر لنفسه إلاّ ثوباً[1] واحداً وقباءً واحداً. يديم ويكرر غسلهما ولبسهما، ليس غير. وتبريره في ذلك إذا سئل: ليس لي إلاّ جسد واحد. فعلام الإكثار منها؟!

وأتذكر هنا أنني سألته في الأيام الأولى من اقتراننا بعيد الزواج، قلت

---

(١) هو ما يسمّى بالدشداشة في العراق وبلدان الخليج العربية.

لـه: أين ملابسك؟ فأجاب بتلقائية: (لقد ارتديتها)! ولم يجبني بأكثر من ذلك. أي لم يكن عنده غير ذلك.

غير أن أمّه كانت حاضرة، فعلقت على سؤالي وجوابه، موجّهة حديثها إليه: (أرأيت؟ ألم أقل لك إن امرأتك يوماً مّا، ستسألك عمّا تلبس وترتدي؟). فلم يزد على أن تبسم من قولها وهو يهزّ رأسه.

لقد عرفت من أحاديث الحاجة المرحومة أمّه: أنه كان في زمن مضى، يتقاسم ثوبا واحداً، هو مع أخيه المرحوم السيد إسماعيل، الذي كان أطول قداً منه. وذلك عندما كانت حالتهم المادية في ضيق وضنك، ولم يكن الثوب في مقاسه، صالحاً تماماً لأيٍّ منهما. بل كان أقصر من قامة السيد إسماعيل، لأنه الكبير منهما، في الوقت الذي كان الشهيد إذا لبسه، سحبه سحبا على الأرض إلاّ أن يرفعه بيديه، وهو يمشي، فكان كل منهما يرتديه إذا أراد الخروج من المنزل، مما يضطر الآخر إلى البقاء في الدار.

كلمته يوماً عن هذا الموضوع، قلت: حسنا تلك حالة استثنائية، وقد مضت ببؤسها وحقرها وفقرها. فما الداعي الآن والأموال تنكب بين يديك أن تقتصر على اقتناء ثوب واحد وقباء واحد؟! فأجاب: إني أُريد أن أواسي أفقر إخواني وأبنائي الطلبة، وأعزيهم عما هم فيه، من ضيق الحال، «ليحبرني الله حُلة خضراء في يوم القيامة»[١].

كم وكم أُهدي إليه من أنواع التحف والهدايا الفاخرة، من أقمشة

---

(١) دعا لنفسه بما هو مضمون حديث عن رسول الله ﷺ بهذا المعنى.

وعباءات، وعطور راقية وأموال سائلة من قبل محبِّيه ومريديه في سائر أنحاء العراق وخارجه. فكان يتقبّلها ممتناً شاكراً. إلاّ أنه لم يكن ليستأثر بشيء منها لنفسه. بل كان يقدمها بدوره هدايا لمن يراه مستحقاً لها.

لقد أهدى إليه يوماً شخص من «آل عطية»، سيارة جديدة فاخرة، فتقبلها وشكر لمهديها صنيعه. وما شاهد من تلك السيارة إلا مفاتيحها، لأنه سرعان ما أمر ببيعها وصرف ثمنها في شؤون طلاب العلم المستحقين.

وفي مرة أخرى كان قد عرض للبيع بيتٌ في الجوار، قريباً من الدار التي كنا نسكنها. فسمع بذلك أحد المحبّين من المؤمنين، وعرض على السيد الشهيد أن يشتري لـه تلك الدار ويملّكه إياها، لأنه كان يعلم أن دارنا قديمة ومستأجرة. فلم يقبل ذلك السيد الشهيد. وقال: إني مكتفٍ ولست بحاجة إلى دار ولكن في الطلبة من هو أحوج إلى مثله. ثم إن الشهيد أخذ بيد ذلك الشخص المحب الطيب وطلب منه أن يرافقه إلى شارع قريب هو شارع الإمام زين العابدين عليه السلام المنتهي إلى الحرم العلوي الشريف، وأوقفه هناك على قطعة من الأرض جرداء، معروضة للبيع. وقال لـه: إن كان لديك من مال، ورغبة في الثواب والأجر، فاشترِ هذه الأرض وأوقفها، ولسوف نبنيها شققا سكنية، تخصص لطلاب العلم في الحوزة.

ولقد تم شراء الأرض من قبل ذلك المحسن جزاه الله خير الجزاء. إلا أن الزمن لم يمهل السيد الشهيد. فقد عاجله القدر، وأحب الله لـه أن

يرتفق إليه قبل أن تتحقق فكرة البناء تلك.

كل ما ذكرته هنا من أمثلة على إيثاره، إنما هو مما كان يقدم إليه على سبيل الهدية الشخصية، وباسمه لأجل شؤونه الخاصة. وأما ما كان يقدم إليه بعنوان الحقوق الشرعية، فذلك كان لـه حسابه الخاص عنده. وكان يرسم حوله خطوطا حمراء وصفراء وسوداء. فلا تمتدّ إليه يد بغير إذنه.

وقد كان يشرف هو على تقسيمه وصرفه ووضعه في مواضعه.

ولقد كان على رأس كل شهر، يأمرني أن أجلس بجانبه بالقرب من خزانةٍ[1] مفاتحها بيده. كانت في الغرفة العلوية من البيت. فكان هو يحسب مقداراً معيناً لكل طالب علم، ويأمرني، فأضعها بدوري في ظرفه الخاص فأكتب اسماً معينا، بحسب السجل الذي كان عنده. ليقوم هو بأخذها إلى مسؤول توزيع الشهريات، على طلاب العلوم الدينية. وكنت أرى مئات الألوف من الدنانير تسيل بين يديه، وأنا أعينه على توزيعها وأداء الأمانة إلى أهلها. فلم يكن ليزيد لنفسه أو لأهله شيئاً منها ولو ديناراً واحد، أكثر مما كان يقسمه بين طلابه أو المحتاجين. وقد يتفق أحيانا أن يصله ريع بعض ما يقدم للطبع والنشر من نتاجه الفكري، ومتى ما وصله شيء من ذلك، كان يمتنع عن أخذ سهمه المعتاد الخاص به من الحقوق الشرعية تلك، وذلك حتى يوفره لغيره.

* * *

---

(١) كنا نسمّيها القاسة.

الشهيد في داخل بيته

كنا نكيف حياتنا وحاجاتنا المعاشية مع مقدار المدخول الشهري الذي يمكن أن نتوفر عليه، سواء من مصدر إنتاج الشهيد الفكري أو من سهمه المعتاد من الحقوق الشرعية. ولاشك أن ما يدخل علينا، لم يكن كافياً لتأمين كل ما تحتاج إليه أسرة كاملة كأسرتي. ولكني بحمد الله، مع التسلح بالصبر والقناعة وحسن التدبير، والتنازل عن الكثير، والاستعانة على صعوبات الحياة ومتطلباتها بمهارات كنت أتمتع بها، استطعت أن أتكيف وأتجمل. ولم يكن الآخرون يرون من الشهيد وبيته إلا جميلاً.

لقد امتلكت آلة خياطة، وهي التي أرسلتها إليّ أمي، كما ذكرت سابقاً، من قم، فكنت أخيط لي ولأطفالي كل الثياب التي يحتاجون إليها للمناسبات والأعياد، والمواسم المختلفة. لقد تعودت أن أشتري الصوف الخام من لبنان أو ترسله إلي شقيقتي رباب التي استقرت هناك. أو كنت أحصل عليه منفوشا ثم أقوم بتنظيفه وغزله ثم صبغه باللون الذي أريد، وأقوم بحياكته قطعا من الملابس والرياش، ستراً ودفئاً وجمالاً.

كنت أبذل جهداً كبيراً، وأعمل فكرتي، وأسأل مَن حولي، كي

استفيد أفضل استفادة من الإمكانات المتواضعة المبذولة لي.

ولئن قدَّر الله لنا أن نعيش على الكفاف الاختياري، فإن ذلك لا يعني أن نبتلى بالإهمال والتخلف، والمنظر الكريه. والأتربة المتراكمة، والبعد عن الجمال والنظافة والتنظيف. ولئن كان الإنسان جميلاً في داخله، ويستلهم الجمال من مبدعه، فلن يصدر منه إلاّ كل جميل. أوَليس علينا أن نتخلق بأخلاق الله؟ أوَليس لنا في جدِّنا المصطفى سيِّد الجمال، ونبيِّ الجمال في هذا الوجود أسوة حسنة وجميلة؟

لقد حباني الله بثلاث بنات، ثمّ بالسيد محمّد جعفر، ثمّ بابنتين(١).

---

(١) حين وُلدت ابنتي الكبرى، أنشأت فيها عمّتها الشهيدة بنت الهدى كلمات مقفاة:

... يا آسرة الأرواح يا نجمة تلمع في الصباح * ... يا آسرة القلوب يا نجمة تلمع في الغروب

فاعجب الشهيد بهذه الكلمات.. وصار يناديها في أكثر الأحيان بـ (آسرة القلوب).

وأمّا أختها الثانية فكان يكثر من تسميتها بـ (أمّ أبيها).

والثالثة سمّاها بـ (الزُهرة) نسبة للكوكب الوضّاء، وقد ولدت بعد حملٍ دام ستّة أشهر في لبنان ومعها توأم لها، أسميتها ابتهال، توفيت توأمها بعد ١٨ يوماً ودفنت في ساحة برج البراجنة. والذي تولى دفنها سماحة الشيخ عبد الأمير قبلان. وقال عندها: (لقد تفضّل علينا آل الصدر، وأبوا إلاّ أن يتركوا بيننا بضعة منهم وإن في مقبرة).

أمّا الرابعة، فعند إنجابها اضطررت للبقاء في المستشفى أكثر من المعتاد؛ لظروف صحية. ولكنّ الشهيد لم يطق ابتعادي عن البيت أكثر من يوم واحد، فأرسل لي مع أخته الشهيدة بنت الهدى هدية مالية يعبّر بها عن حبّه وامتنانه ومعها رسالة خطيّة ابتدأها بـ (غاليتي الحبيبة...) ضمّنها تهنئته بالسلامة ودعاءه لي بالعافية وطلب مني فيها أن أغادر المستشفى وأنّه هو سيقوم برعايتي وتوفير كل ما يلزم، فليس لـه صبر على الفراق. وعندما كبرت، ولكثرة ما كانت تطرحه من أسئلة على والدها، وبسبب اهتمامها الكبير بالجواب وبالبحث عن المعارف ومصادرها من روايات وغيرها، فلذلك كان يناديها بـ (لقمان الحكيم).

فنشّأتُهن وأخاهن على تقبل هذا النمط الصارم من العيش. وطريقة أبيهن القائد، والوالد الذي يرى نفسه مسؤولاً عن الألوف والملايين من المؤمنين في شرق الأرض وغربها.. في كيفية تعاطيه مع شؤون الدنيا والدِّين والناس والظروف. فكبر أطفالي وهم يرون بيتهم بيت ريادة. وكهفاً للفقراء والمحاويج، الذين تدربوا على حبّهم والتعاطف معهم، وعدم الاستعلاء عليهم.

☜

وأمّا الصغرى فقد تولعت بها الشهيدة بنت الهدى مع أنّها أحبّت كل وُلد السيد الشهيد واعتنت بهم ودلّلتهم. ولكن باعتبار أنّها الصغرى، فقد احتلّت مكانة خاصة في قلب الشهيدة.. ثمّ إنّ الشهيدة كانت تحبُ أيضاً أن تخفف عنّي أعباء البيت والأبناء، ولذلك تعهدت بالعناية الكاملة وتحملت المسؤولية الشاقة بالنسبة إلى ابنتي الصغرى التي كان والدها يناديها بـ(منتزه أبيها)، تدليلاً لها؛ لأنها كانت تجلو عنه الهم.

وأكثر من ذلك: كان الشهيد قد وزع مسمّيات انتاجاته الفكرية على بناته هؤلاء وألصق بكل واحدة منهن اسماً لها من أسماء بنات فكره: فواحدة منهن: «فلسفتنا»، والثانية: «اقتصادنا»، وثالثة: «أسس» ورابعة «فدك» والخامسة «الفتاوى الواضحة».

أمّا السيّد جعفر، فقد جاء إلى الدنيا بعدما رزقنا «بثلاث بنات»، فبعدما رُزقناهنّ قلت للشهيد مرة: خذ، فها قد وفيت لك بما طلبت مني في أول يوم لزواجنا في «كيفون» في لبنان. وجاء دور الابن الذكر.. هنالك نذرت لله إن رزقني بعدهن ولداً، لأقيمنّ مجلس عزاء تأبينا للإمام زين العابدين عليه السلام في كل ذكرى سنوية لاستشهاده. فاستجاب الله وقضى حاجتنا. فما مرت سنة إلا وقد أهلّ السيد جعفر.. فوفينا بنذرنا ما استطعنا.. عدا تلك السنوات العجاف التي أعقبت استشهاد الشهيد، حين كنا نعيش حصار الطاغية كما سيأتي تفصيله فيما سيأتي. ولقد فرح الشهيد بمجيء السيد جعفر إلى الدنيا، وعقّ عنه وأولم. أقول هذا، مع أنه من الأمور المعتادة عند كل رجل وفي كل عائلة. ولكن بالنسبة لنا لم يكن معتاداً، لأن فرحة الشهيد هذه هي من المناسبات السعيدة القليلة التي عاشها البيت والشهيد في حياتنا معه. ولذلك فإننا نعتز بها ونعتبرها أمراً غير عادي. وخلافاً لما جرى عليه السيّد الشهيد مع بناته، فلم يطلق على سيّد جعفر لقباً ما، بل بقي عنده هو سيِّد جعفر.

كان الأب الشهيد قد خصص لبناته اللاتي كن يترددن على المدرسة ـ التابعة للزعيم الديني الكبير آية الله السيد الخوئي ـ في تلك الأيام، لكل واحدة منهن «يومية» مقدارها درهم عراقي ـ أي خمسين فلسا ـ مصروفا يومياً لأيام الدراسة، يستطعن من خلاله شراء شيء يأكلنه من حانوت المدرسة.

وفي أحد المواسم كثر بيع الموز في ذلك الحانوت المدرسي: ستون فلساً للموزة الواحدة ـ فاشتكت البنات لأبيهن، قصور (يوميتهن) عن ثمن موزة لكل واحدة منهن. وحرمانهن من التمتع والتلذذ بأكل الموز، وطالبنه بإضافة عشرة فلوس لكل واحدة منهن حتى يستطعن ذلك.

فأجاب الشهيد: إنه من الممكن أن أضيف لكن ذلك. ولكنّي أسألكن: هل كل الفتيات في المدرسة، يقدرن على شراء الموز؟ فأجبنه بالنفي، فقال: فما الفريق الأكثر منهن: اللاتي يقدرن عليه، أم اللاتي يعجزن عنه. فلما أجبن: بأن الأكثرية منهن لا يشترينه!

قال: فلتكنّ إذن من الأكثرية اللاتي لا يستطعن شراء الموز، ولا تتميّزن عنهن. فلجأت البنات إلى حيلة، وهي أن يجمعن «يوميّاتهن» مع بعضها بما يكفي لشراء موزتين يقتسمنهما بالتناوب!

ولقد كان الشهيد شديد التعلق بعياله وأطفاله، محبّاً لهم، رقيقاً في معاملتهم، جيّاش العاطفة تجاههم.

إن مرض منهم أحدٌ يوماً، فإنه يصير شغل الشهيد الشاغل.صحيح أنه لم يكن ذلك ليصرفه عن أداء مهامّه العظيمة والكثيرة، إلاّ أنه يبقى

مهتما لأجله، إلى أن يبرؤ. فكان مثلا، بمجرد أن يدخل البيت، يسارع إلى ذلك المريض من العيال أو المريضة ليطمئن عليه، قبل أن يضع عنه شيئاً من ملابسه: يحبس نبضه ويتحسس حرارة بدنه، واضعاً يده على جبهة المريض. وعادة ما كان يفعل ذلك وهو مشتغل بقراءة سورة الفاتحة بقصد الاستشفاء. يا الله.. كم كان ذلك المنظر الأبوي المهيب والرائع، يسري به الدفء والرحمة والحب في أوصال ذلك البيت.

إنني أتذكر هنا أن الكبرى من البنات في صغرها كانت محمومة في يوم مّا. ولما دخل الشهيد البيت توجّه مباشرة في لهفة وحنوٍّ إليها، فاندفع جميع أفراد البيت بقلوبهم وحواسهم معه بشكل لافت إلى صوب الفتاة المريضة. هناك التفتت أختها التي تصغرها إلى ذلك الاهتمام وتلك العناية فلما رأت ذلك القدر من حنوٍّ وعطف أبيها ثم أهل البيت معه، تحركت مشاعرها وأشواقها.. وتمنّت أن تكون هي المريضة بدل أختها. وما كان منها إلاّ أن انتظرت فترة حتى خرج أبوها من البيت، فبقيت تترصد لـه عند دخولـه. وما أن أحسّت بمقدمه، حتى ألقت بنفسها على الفراش، تتمارض وتتأوّه وتئن، في حركة تمثيلية بريئة حلوة، تستدر بذلك عطفه الغالي.

ففهم الشهيد رأساً وتوجه إليها في الحال، فاحتضنها وأخذ يلاطفها ويقبّلها وهو يقول: حبّوبتي.. أين يؤلمك يا نور عيني؟

فردت في براءة: آه.. إن شعري يؤلمني يا أبت!!! وكان الكل يرقب ذلك المنظر، فانفجر الجميع في موجة من الضحك والتعليقات. ممّا حدا

بها أن تجعل وجهها بين يديها، في دلٍّ وخجل.

في يومٍ كنت أتكلم معه ـ قدّس الله روحه ـ عن شؤون البيت والعيال وهموم العائلة، وعن شؤون شخصيته وموقعه ومسؤولياته الكبيرة، فعهد إليّ شؤون العيال وتأديبهم وملاحقة التفاصيل في حياتهم اليومية. كان يقول: إنّ الأطفال من أهم مسؤولياتك، أنتِ تعلمين أنّي أقضي شطراً عظيماً من يومي خارج المنزل، ولا أستطيع أن ألتقي بالأطفال إلاّ في ساعات محدودة من كل يوم. اجعلي تأديبهم ومحاسبتهم من شؤونك أنتِ. لأني لا أُريد أن يحملوا عني إلاّ ذكريات طيِّبة، بعد هذه الدنيا «القصيرة».

إلاّ أن ذلك لا يعني أنه كان مهملاً لشؤون العيال، تاركاً حبلهم على غاربي. بل كان كثير السؤال عنهم، دائم الاهتمام بأحوالهم. بل كان يتدخل أحيانا بشخصه، لحل بعض المعضلات التي أعجز عنها، أو لا أتفرغ لها.

فأذكر إن إحدى البنات اشتكت يوماً من صعوبة المادة الدراسية التي كانت تراجعها لأجل الامتحان النهائي في السنة، وكان ذلك على ما أتذكر في مادة الرياضيات. فتفرغ السيد الشهيد يومها للبنت، وشرع يشرح لها قواعد تلك الدروس. وما قام عنها حتى تيقن بأنّها استوعبت تلك المطالب كلها. ورغم أن بناته كنّ في أعمار صغيرة، إلا أنه كان يشعرهنّ باحترام كبير، ويحسسهن بأنه أفضل صديق يمكن أن يلجأن إليه. وكثيراً ما كان يعاملهن معاملة الكبار. حتى أنه في عدد من المرات

عندما كان يريد أن يتّخذ قراراً مصيرياً أو يهم العائلة ككل، كان يجمع جميع أفراد العائلة من أمّه وأخته رحمهما الله، حتى أصغر طفل في البيت. ويطلعهم جميعاً على قراره، ويجعل الجميع يشارك في مسؤولية وتبعات هذا القرار، حتى لو كان ذلك القرار من قبيل مواجهة السلطة، أو الذهاب إلى دائرة الأمن.

كان واسع الصدر لطلباتهم ومشاكلهم وضجيجهم. ورغم أنه كان دائم الاشتغال بالكتابة والتحضير والتفكير، والمطالعة(١) أحياناً. ورغم صغر مساحة البيت، إلاّ أني لم أره يوماً قد تضجر أو تأفف من صراخهم ولعبهم. كان كل من الطرفين يشتغل بشأنه. وكأن الشهيد في عالم منفصل عمّا يجري حوله، ساعة انشغاله بالتدوين والكتابة.

كان السيد الشهيد دائم التأمل، غزير الفكرة، كثير التسجيل والتدوين والكتابة. حتى لقد كانت أنامل يده اليسرى التي يكتب بها عادة، تتورم أحياناً! فكنت أعجن لـه عجينة ألف بها يده، ثم يعاود الكتابة مباشرة. لم يكن ليشغله عن ذلك شاغل. فإنه كان مولعاً بالكتابة والقرطاس والقلم.

يتابع كل الإصدارات والإثارات الهامة. خاصة تلك المرتبطة بشؤون الدّين والمذهب. بل كل ما يهم صميم الوجود الإنساني على هذا الكوكب. ثم يديم الفكرة فيها، فيقلبها ويعرضها على أصول فكره

---

(١) سئل سماحة العلامة السيد كمال الحيدري: صف لنا أستاذك السيد الشهيد؟ فقال: هذا السؤال وجّه إلى السيد الأستاذ الشهيد نفسه، فأجاب: (إن محمد باقر الصدر يساوي ١٠٪ مطالعة. و ٩٠٪ تفكّر.

ومعتقده ليخلق من ذلك كله إبداعاً فكرياً متميزاً.. كشفاً للزيغ، وجلاء للظلمات، إشعاعا من مشكاة نور الحق الذي صهر وجوده لأجله.

هذه هي غلّة العمر الذي قضيته معه.. ليس من دينار ولا درهم.. ولكن أسفار في الفقه والأصول والشريعة والفكر الإنساني الرفيع. لقد بلغ من العلم أطوريه.

عشقه للقلم، وعلاقته بالتأليف، كان مما يحيرني. كنت أتساءل: لم هذا الجهد المتواصل، والعمل الدؤوب والسعي الحثيث بلا انقطاع، وحرص على الإنجاز يلازمه بلا راحة ولا انفكاك.. لم هذه الكتابة المتواصلة بلهاث، وكأن الرجل ملاحق، يخاف أن يُدرك. وما انكشف لي سرُّ ذلك إلاّ بعد حين. بعدما أفل شخصه وغاب رسمه. حينها أدركت أنه كان يسعى، لأن يفرغ كل مخزونه قبل أن يُدرك، كأنما كان يُدرِك أن ليس في الوقت متسع. كان يسابق الأيام ليؤدي دوره بالكيفية التي اختارها، والتي اتضحت معالمها مع مرور الزمن. كأنما كان متيقنا من أن عوْدَه سريع إلى حيث منتهاه، من حيث بدأ.

* * *

رحلة إلى الله

بعدما مضى على اقتراني بالشهيد خمس سنوات، رزقنا فيها بطفلتين. وبعد أن بلغت الثانية منهما فطامها[1]، وصرت أطمئن إلى أنهايمكن أن تستغني عني، لو غبت عن البيت فترة، هناك جهرت للسيد الشهيد بحلم طال كتماني لـه في حنايا قلبي، ظل يراودني فترة طويلة ولكن لعلمي بعدم قدرة السيد الشهيد على جعله واقعاً، فقد كنت أكتمه، وذلك هو الانطلاق إلى رحاب البيت العتيق، الذي جعله الله للناس مثابة وأمنا وقياماً.

وأعاقني عن ذلك أيضاً أمر آخر، وهو إصابتي في مدة مضت، بمرض اليرقان الذي لازمني فترة. وكان قد عم الابتلاء بهذا المرض كثيراً في تلك الأيام. ثم إن الله منّ عليّ بالشفاء منه.

---

(١) قبيل إتمامها سنتها الثانية، بدأنا نسقيها حليب البقر الطازج، ابتعاداً عن حليب الأطفال المجفف. وتطلّب هذا الأمر وجود الحليب طازجاً وسليماً بشكل دائم في البيت. ولكن واجهتنا مشكلة أن ليس عندنا في البيت ثلاّجة مبردة. فاضطررنا أن نرهن قطعة من السجاد العجمي صغيرة أهديت إلي أبان زواجي، فرهناها في المصرف (البنك) وأخذنا في مقابل رهنها قرضاً استطعنا به شراء ثلاّجة لأول مرة.

وبعدها وصلني شيء من المال من الوطن الأم «قم» المقدسة، وذلك كان إرثي من والدي قدس الله نفسه، وكان قدر المبلغ سبعة آلاف تومان إيراني، فادّخرتها لمثل هذا اليوم، حيث يمكن أن يتحقق الحلم. ثم إني صارحت الشهيد برغبتي في أداء ذلك الفرض الإلهي العظيم. واعتذر الشهيد كما توقعت. ولكن قلت لـه: إنني أدعوك للحج معي بهذا المبلغ المدّخر عندي، فهو كاف لكلينا، خاصة وأن زوج أخيك المرحوم إسماعيل: العلوية أم السيد حسين الصدر، أيضاً هي راغبة في الحج. وهي تملك أيضاً قسطاً من المال،من إرث لها كذلك، ولسوف يكفي مجموع المبلغين بعد ضمهما إلى بعضهما لنا نحن الثلاثة. في رحلة مبرورة إلى حج بيت الله. فوافق الشهيد على شرط اشترطه على كلتينا: وهو أن يكون السفر للحج فقط، وتكون رحلتنا عبادية محضة، نؤدي فيها فرض ربنا لا غير. وألاّ نذكر في هذا السفر السوق ولا التسوّق. فقبلنا وهكذا كان.

فتحركنا لترتيب أمور السفر من إعداد الأوراق الرسمية، والاجراءات الضرورية، واتفق الشهيد مع أحد المؤمنين من أصحاب السيارات، وهو الحاج حسُّون الذي كان يكنى بـ «أبو علاء»، والذي جعل من رحلتنا ـ شكر الله لـه ذلك ـ رحلة ميسرة بدماثة خلقه، واستجابته لكل ما يطلب منه، من دون ملل و لا تضجر.

ومن جهتي أنا، أخذت أعدّ العدة اللازمة، من مأكل وملبس. فخصصت حقيبة من حقائب السفر لحمل الحبوبات من أرز وغيره،

ومقادير من النواشف والسكّر والشاي. ولم أنس اصطحاب موقد صغير، وفّقنا بسببه لاختصار جزءٍ كبير من النفقات وتكاليف السفر.

ثم قد أمّنت الطفلتين عند جدتهما أمّ السيد الشهيد حتى أذن الله لنا في يوم مبرور من أيام شهر ذي القعدة الحرام من تلك السنة[١]، وتحركت فيه السيارة.. وتحركت معها قلوبنا وأشواقنا، متلهفةً للقاء المحبوب. كان الشهيد اتخذ موقعه، في الكرسي بجانب السائق. ومن ورائه، تقاسمت المقعد الخلفي مع العلوية أم السيد حسين، زوج أخي الشهيد، وهي ابنة عمٍ لنا معاً (المرحوم آية الله السيد محمد جواد الصدر)، وألسنتنا تلهج بذكر الله، والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ... وأرواحنا تكاد لا تقر في أجسادها. وأما القلوب فقد قفزت من مكانها، ولا جرم، فإنّ «محلّها إلى البيت العتيق».

حل المساء وقد أدركنا الليل ونحن في الكويت. وصرنا نبحث عن مكان للمبيت فيه. ونزلنا في أحد فنادق العاصمة. ورغم أن للشهيد هناك معارف وأصدقاء ومحبين، إلاّ أنه شاء أن تكون حجتنا خفية خالصة، بلا ضجيج، ولا حاشية ولا أتباع.

رحب بنا مسؤول الاستقبال في الفندق وأخذ يعرض علينا خدماته، ومميزات الإقامة في فندقه، ومن أهمّها حسبما قال: وجود أحد الأسواق الراقية قريباً من الفندق، وأستطيع أن أدلكم عليه.

فتبادلت النظر مع السيد الشهيد وأنا أبتسم لـه، وكأني أقول لـه:

---

(١) كان ذلك سنة ١٣٨٧ هـ

خذ.. هذا في أول الطريق. لسنا نحن من ذكر السوق، بل هو مضيفك.

في صباح اليوم التالي توجهنا إلى الحدود السعودية، وبتنا ليلتنا الثانية في فندق في مدينة الدمام، في المنطقة الشرقية. ثم واصلنا الطريق حتى مدينة الرسول ﷺ.. وهناك نزلنا في دار، من الدور التابعة لشيعة(١) المدينة المنورة المعدة للإيجار ونزول الزائرين. ولكنّا وجدناهم آنئذ فئة من الناس محرومة تعيش الفقر والإهمال في تلك السنين، يعيشون في بيوت متهالكة تفتقر إلى أبسط الخدمات المدنية العادية. فحتى الماء، كانوا يجلبونه إلى بيوتهم على العربات اليدوية في براميل. ويخزنون الماء عندهم في خزانات من الصفيح.

ولم أتحمل هذا الوضع. إذ كنت قد ربيت ونشأت في بيئة أكثر تمدناً من هذه الجهة في إيران ثم في العراق. ووجدت مسألة التطهير والنظافة، مسألة شائكة وعويصة شاقة علي. مع أن مبلغ الإجارة كان مناسباً لنا إذ لم يكن ليكلفنا كثيراً. والأهالي كانوا على درجة عالية من الطيبة والطهارة والتديّن. إلا أن الوضع لم يكن محتملاً من جهتي لناحية توفر إسالة الماء.

فطلبت من الشهيد تغيير مكان إقامتنا، والانتقال إلى مكان أنظف

---

(١) وهم الذين يطلق عليهم هناك «النخاولة»، كما يسمّون باللهجة الحجازية في الحجاز. وأصلها «النخالوة» أي الفلاحين الذين يعملون في مزارع النخيل، وهم في الأصل ـ كما في بعض المصادر ـ من نسل وذراري عبيد كانوا للإمام الحسن السبط عليه السلام، الذين كانوا يشتغلون لـه في الزراعة. ثم أعتقهم ووهبهم الحرية والصنعة والكرامة، بعد أن علّمهم معالم الدين الحق.
ولذلك كانوا على مدى التاريخ المتعاقب من شيعته الثابتين في المدينة المنورة.

وأكثر وفرة للماء وأسهل في استخدامه. فقال: إن ذلك يقتضي أن يكون مبلغ الإجارة مضاعفا وهذا يتطلب بالتالي الاقتصاد في مصروف المأكل والمشرب. ووافقنا على ذلك. فانتقلنا إلى فندق في شارع رئيس مطلٍ على الحرم الشريف، والبقيع معا، وهناك استقرَّ بنا المقام، وطاب لنا حينها حتى القيام بالطبخ. إذ مضت علينا عدة أيام منذ خرجنا من العراق، ولم نطعم أكلا من طبخ أيدينا. إذ كان اعتمادنا طوال أيام متوالية، على الخبز والنواشف.

ولكن مع طيب الاقامة في الفندق ذاك، تسنى لنا أن نستمتع بتناول ما تطبخه أيدينا، فحتى الفسنجون(١)، تمكنا من إعداده هناك مرة وحيدة لم تتكرر في تلك السفرة.

بالطبع كنا قد بادرنا متلهفين بكل شوق، في أول ساعات وصولنا إلى يثرب الطيبة لزيارة النبي المصطفىﷺ. فمبجرد وضع متاعنا، وبعد الاغتسال والتهيؤ للزيارة، خرجنا مهرولين تدفعنا أمواج من الحب والشوق هاجت وجاشت في الصدور، للقاء الحبيب، والسلام على نبي السلام، ساكن طيبة المباركة.

إني لا أستطيع الآن أن أعبِّر عن تلك المشاعر التي اختلجتني لأول مرة رمقَت فيها عيناي تلك ا لقبة الخضراء الشامخة. ولعل أصدق الكلمات التي يمكن أن تعكس تلك الأحاسيس الصادقة التي كانت تجتاحني، هو قول محبة مثلي وجهت نداءها وشدوها إلى رسول

---

(١) هي من الأكلات الخاصة والمعتنى بها في إيران والعراق، ولها شهرة هناك.

الصدق والحب:

(باسمك المبارك.. باسم محمد الميمون.. أنت النبي..

بشارة الرحمة لعالم الإمكان.. أنت النذير لعالم يتهدده الإفك والطغيان.

أنت الرسول.. رسول السلام في كل آن.. بك نملك أن نفتح أبواب السماوات.. دعاءً وعروجاً ووصلاً بالحبيب،

أيها الحبيب:

أستوهبك ما أوقر ظهري، وأقض مضجعي. أستوهب منك ذنوبي.. وأمدّ إليك اليد مستجدية.. مستعطية.. غفرانا ورضوانا.

في محضر قدسك الأقدس.. في حلو إسمك.. عطر السنديان والريحان.. في روض حمدك.. أي محمد..

أتَنسَّم أريج الجنان..

عجبا لحروف الهجاء كيف الْتَقَت لترسم اسمك!.. لكن.. فلينقضِ عجبي.. ألم ترسم هذه الأحرف قرآنا تنزّل من مقام أحمديتك.. تنزل به الأمين على قلبك.

يا أحمد السماوات، ويا محمد الأرضين.. ذكرك صَلاتي.. يا فرحة نفسي وصِلاتي..

ما كلفت البحث عن قوافي تمجدك.. فالقوافي تبعثرت.. تناثرت.. تكسرت. ليس هو بالشعر، ولا بالنثر. إن هو إلا سبحات روح جابت بعض معانيك.

إن هو إلاّ نفحات فيض.. جدتَ بها عليّ متكرما.

أضرع إليك توسلا..

أنر قلبي.. يا سراج الوجود

فأنت الحبيب.. يا مشكاة الحب والقداسة.. يا رنين الخلود والأبدية، يا صدى الأزل.. أيها السرُّ الإلهي المعلَن.. رحمة للعالمين)[1].

* * *

(١) من يراع قلم الكاتبة.

في رحاب البيت العتيق

بعد تصرّم عشرة أيام تامة في ظلال محمد الأمين، والأئمة الطاهرين صلّى الله عليهم أجمعين، توجهنا إلى مكة المكرمة استعداداً للحج. فمن مسجد الشجرة حيث أحرمنا، انطلقنا صوب المشاعر المقدسة، تلبي أرواحنا وقلوبنا ذلك النداء الموغل قِدَماً في التاريخ: أذان أبينا الخليل إبراهيم عليه السلام واتجهنا بوجودنا كله إلى ربِّ البيت والمقام.. وإله الحلِّ والحرام.. نلبي ونكرر:

(لبيك اللهم لبيك.. لبيك ذا المعارج لبيك.. لبيك تستغني ويُفتَقر إليك.... لبيك..).

دخلنا مكة المكرمة، واتجهنا إلى البيت الحرام، التفتُّ إلى الشهيد ونحن على أعتاب الحرم الشريف فرأيته كأنه قد ذهل وجوده ومَن حوله حينذاك. أتممنا أعمال عمرة التمتع في يسر. إذ لم يكن هناك أعداد كبيرة من الحجاج آنذاك في مثل تلك الأيام.

بقينا في مكة، قبل التحرك نحو عرفات عدة أيام، نكرر الزيارة والطواف في البيت العتيق. ولا أنسى هنا أنني أتيت يوماً مع السيد

الشهيد إلى المسجد الحرام وبعد الطواف حول البيت، رمى الشهيد بنفسه على شاذروان الكعبة متعلقاً بأستارها، وكان ذلك في داخل حِجر إسماعيل تحت الميزاب، وقد تحاذفت عيناه بالدموع، وسالت مسيل الجداول تخضل محاسن وجهه، ولكن في صمت وأناة، قد اضطرب كيانه. لقد كنت أراه يرتعد كسعفة في مهب ريح. جلست جانبا، أقرأ بعض الأوراد والأذكار حينا.. وأرقبه حينا آخر.. حتى إذا سكت أنينه الخافت، وانفتل مما كان فيه، توجه إلى خلف مقام «إبراهيم». وقد كنت قريبة منه هناك. فشاهدته قد بقي واقفاً خلف المقام مشدوهاً، قد انشدّ وجوده إلى الكعبة الشريفة.. ولكني لاحظت أن عينيه بدتا كالزائغتين، وقد انخطف لونه وخيِّل لي أنه يترنَّح، فخفت عليه من السّقوط.

فأسرعت إلى بئر زمزم، ورجعت ومعي شيء من مائها المبارك، ورششت منه على وجهه، وقدمت إليه إناء الماء وقلت: هاك ابن عمٍّ فاشرب من هذا الماء. وهنا التفتَ إلى ناحيتي موجها إليّ نظرة عتاب، قائلاً في نبرة كلها أسف: ماذا فعلتِ يا ابنة العم، هلاّ تركتِني وما كنت فيه. فرددت: خفت عليك أن تسقط، لقد أشفقت عليك من الهلاك.

وأقبل يوم الله.. يوم الحج الأكبر، وصعدنا مع الصاعدين إلى عرصات المعرفة، المباركة: "عرفة".. تلك الأرض الموغلة في ضمير الوجود، حيث وقف هناك يوماً أنبياء الله المرسلون وأولياؤه الطاهرون.. وفي تصعيدنا كان الشهيد يحدثنا عن هذه المشاعر والشعائر المقدسة وتاريخها وعظمتها والمعاني العامرة في أجوائها، وأريج النبوات

المتعاقبة المنبعث منها.

في يوم التاسع.. يوم الحسين عليه السلام ويوم الأولياء والصدّيقين.. رأيت الشهيد قد أخذ موقفه على ذلك الصعيد الطاهر مشتغلاً بأذكار ذلك اليوم وأوراده وهو في أحوالٍ وأهوال لم أشهده في مثلها من قبل.. ولكني في هذه المرة عندما عرفت أنه بدأ يفقد إحساسه بوجوده، تركته يسترسل في عروجه حتى لا أقطع عليه نشوة الروح في أبهج عرس ملكوتي، منفوجٍ بطيب الوصال.. وصار يقرأ دعاء الإمام الحسين عليه السلام المعروف والمختص بذلك اليوم العظيم. وفي دعائه ذاك أحسست أنه لم يكن يشعر بما يجري من حوله.. لقد كان يهيم عارجاً في سماوات عوالم أخرى غير هذا العالم، تارة يناجي وتارة يسكت متأملاً، وعيناه تتفجر دموعا قد التهبت لها الأجفان، وتارة يسبّح، وقد ينخرط فجأة في نوبة من البكاء المرير.. تلك حالة ما رأيت لها مثيلاً في حياته، إن تلك الحالة كانت انعكاسات وجدانية لذروة تعلقه بالمعبود. صحيح أني كنت لطالما استيقظت في بهيم الليل، فأراه صافاً قدميه بين يدي الجليل. فكنت أبقى مستيقظة مرافقة له، أسبح معه في عالمه، ثم أتأمل ما قد تنتابه من حالات روحية مختلفة. لقد كان يخيَّل إليّ عندها، أحياناً، لطول سجوده أنه قد قُبِض. أو أنه يقوم بعد ذلك واقفاً ليطيل القراءة.. فإذا نشر كفّيه للدعاء، تهدّج صوته وخنقته عبرته.. فأسمعه يناجي طويلا، ثم قد يختفي صوته.. فيبقى ساكناً واجماً في وقوفه حتى يركع.. ذلك كان ديدنه، ولكن ليس كمثل يوم عرفة ما يشبهه.

وأرى هنا فرصة للاستطراد في الحديث قليلا عن علاقته الروحية بالله تلك، التي امتدّت وانعكست أيضاً في علاقته بأنبياء الله وأوليائه.. بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وبالأئمة الطاهرين عليهم السلام، التي كانت علاقة شفّافة حية وطرية.

فإذا تكلم عن أحدهم عليهم السلام فكأنه يراه ويجالسه.. وإذا ذكرهم أو تطرّق لبعض ما جرى عليهم في إحدى محاضراته فلربما استعبر، وقد يعجز عن إتمام كلامه إلاّ بعد توقفٍ لهنيئة من الزمن.

كان لـه برنامج عبادي لقراءة بعض الزيارات المخصوصة لعامة أئمة أهل البيت عليهم السلام أو لخصوص الإمام الحسين عليه السلام، من قبيل الزيارة الجامعة ودعاء الندبة وزيارة عاشوراء، وكان يعتبر أنّ هذه المأثورات وغيرها إنما هي علائق ووشائج بين السماء والأرض ينبغي أن يُتعبَّد بها حرفياً، لأنها باب عريضة إلى الملإ الأعلى.. ووسيلة لامحيص عنها لاستنزال الفيض والرحمة.

لقد كان شديد الحرص على الذهاب إلى كربلاء كل ليلة جمعة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ولم يفته ذلك إلا ّنادرا، وهو ما يؤكده أيضا مدير مكتبه سماحة السيد محمود الخطيب حفظه الله، الذي كان يرافقه بشكل دائم في تلك الزيارات. ويذكر السيد الخطيب أن المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية كان في رفقتهما في إحدى المرات، وعندما واجه الشهيد الضريح المقدّس بدأ يقرأ مضامين زيارة عاشوراء، فكان صوته مسموعاً.. وقد ظهر من تهدُّجه بالغ التأثر والتفاعل مع تلك المضامين،

وكان الدمع منه إذ ذاك هتولاً.. بل طفق يبكي بحرقة وتفجع فجذب حزين صوته وبكائه مَن كان يسمعه من الزوّار، حتى تحلّق حوله جماعة ممن تفاعلوا معه بتفاعله. كان مشهداً مؤثراً ومميزاً ـ بحسب نقل البعض ممن كان حاضراً.

وفي أثناء ما كان الشهيد مشتغلا بتلك الزيارة والقراءة والمناجاة والبكاء، تساءل السيد الخطيب أمام المرحوم الشيخ مغنية عن سبب شدة البكاء الذي يلازم السيد الشهيد في مثل هذه الحالات، وعن خصوصيّة الوضع الذي كان يعيشه إذا اشتغل بالزيارة فأجاب الشيخ‎ﷺ: (إنه يعرف من يخاطب ويدرك تماما حقائق ومعاني المضامين التي يقرأها في الزيارة).

من أعظم المنن والألطاف التي حظي بها السيد الشهيد في مكة تلك السنة، أن وفِّق للدخول إلى داخل الكعبة المشرفة، من خلال مشاركته في إجراء مراسم غسل البيت العتيق شرّفه الله، وذلك أنه وجِّهت إليه دعوة رسمية من قِبل المسؤولين في إدارة سدانة البيت الحرام، لأجل هذه المشاركة.، فرغم أنّا حاولنا أن تكون سفرتنا هذه خفيفة خفيّة بلا ضجيج ولا شواغل ولا أتباع،إلا أن الكثيرين علموا بوجوده. وأعتقد أن سماحة الإمام الحكيم، الذي اتّفق أن حجّته المشهورة كانت متوافقة مع حجتنا في ذاك العام، هو الذي أعلن عن وجود سماحة السيد الشهيد بين الحجاج في ذلك الموسم. وهذا ما دفع البعض للاعتناء والاهتمام بحضوره في مراسم غسل الكعبة الشريفة. وهكذا وجِّهت إليه الدعوة

المذكورة.

اذكر هنا أن السيد الشهيد دخل عليَّ منزلنا ـ حيث كنّا نقيم ـ بعد انتهاء تلك المراسم المباركة، وشحوبٌ كشحوب الموتى يصبغ محيّا وجهه. ولما أراد أن يتخفف من ثيابه طلباً لشيء من الراحة. قلت لـه: صبرا ابن عمي، قبل أن ترفع شيئاً من ثيابك، انفض عليَّ عباءتك، لعلّي أنال من بركات ما علق بها من غبار الكعبة. وبالفعل أخذها ونفضها عليَّ مرتين. ثم رمى بنفسه ليستريح.

أدينا مناسك الحج، وشهدنا منافعه. وقضى حجاج بيت الله تفثهم. سقى الله تلك الأيام.. إن تلك الرشفات من مياه زمزم، لا تزال ينبوعاً في داخلي، تتجدّد، كلما أظمأتني بوائق الدهر. وإن تلك العرصات والحرمات والمشاعر المقدسات لا يزال غبارها وهواؤها أريجاً تتنسمه الروح حياة وقوة، كلما ضاقت فسحة الحياة.

واقترب الوداع، وأخذنا نستعد للرحيل، ونأخذ للسفر أهبته. وقبيل اليوم الأخير، دعي السيد الشهيد من قبل الإمام السيد الحكيمؒ لحضور مأدبة غداء، كان قد رتَّبها على أثر مؤتمر كبير أقامه الإمام، حضره جمع من أعلام المسلمين من مختلف الطوائف الذين أتوا حجاجاً في تلك السنة. وعندما حضر السيد الشهيد، وجدها مأدبة عظيمة، عامرة بألوان الطيبات. وذلك مراعاة لوزن الضيوف الذين أتوا من كل فج عميق. لكن السيد الشهيد مع ذلك، تشاغل ببعض ما وجد أمامه من الخضرة أو الماء، عن تناول أي شيء مما تطيب لـه النفس، وتلذ لـه العين. دون أن

يلحظ ذلك منه أحد!

وفي النهاية رجع إلى منزلنا ذاك، وبادر قائلاً: ابنة عمي، هاتِ ما عندك، إن وُجد عندك ما يؤكل. فاستغربت كلامه: ألم ترجع للتوّ من مأدبة الأكابر تلك؟؟.

أجاب: نعم ولكني ما كنت لأنعم بشيء من لذاتها، وأنتِ قد رضيتِ لنفسكِ بقطعة من الخبز، وشيء من الإدام الخفيف!. وكنا حقا قد حزمنا أمتعتنا، بعد أن اتفقنا على أن نكتفي في يومنا الأخير من إقامتنا بقوت المسافرين العجلين، ولم يكن بين يديَّ حينها بالفعل، إلاّ شيء من الخبز والقليل من الجبن والخيار مع الشاي. فتناولنا غداءنا شاكرين.

ودّعنا البيت الحرام للمرة الأخيرة، بعد أن أدّينا فرض ربنا. وكانت الحجة الوحيدة في حياتنا. فالشهيد لم يتمكّن من الحج من بعد تلك السنة. وإن كان وفّق لعمرة قبل استشهاده بقليل، تحت حراب الطاغوت[١]. وحتى أنا لم أوفق لحجة أخرى. غير أني وفقت لمصاحبة السيد الشهيد في العمرة التي أشرت إليها.

بعد ظهيرة يومنا الأخير في مكة المكرمة، حملنا متاعنا وركبنا العربة (السيارة)، ميممين وجهنا صوب الوطن، حامدين شاكرين ربنا، على ما وفقنا وهدانا ورزقنا من بهيمة الأنعام.

من الخواطر الظريفة، التي يطيب لي تذكرها عندما تمر على ذهني الآن: أننا في مرحلة من مراحل طريق العودة، توّه سائقنا (أبو علاء)

---

(١) سيأتي ذكر ذلك في فصل قادم.

طريقه عند مفترق طرق. ولقد كان السيد الشهيد مشغولاً طوال الطريق إمّا بالمطالعة، أو الاستغراق في الكتابة. فلما رأيت السائق متحيّراً، أشرت إليه من الخلف ـ حيث كنت أقعد ـ إلى جهة اليمين، وقلت: إن من هناك طريقنا الصحيح. فلم يقتنع السائق. واتّجه إلى وجهة أخرى وتوغّل فيها مسافة،إلى أن أدرك أن الطريق غير الطريق. وسرعان ما سأل أحدهم، فأرشده إلى الجهة السابلة التي كنت أصرّ على صحتها. وهكذا عاد أدراجه إلى نفس الجهة، فشعرت بزهو وثقة، وصار السائق بعدها إذا تحير، يسألني عن اتجاهه: هل هو صحيح أم لا.

* * *

الشهيد والمرجعية الرشيدة

في عام ١٩٧٠ م اختار الله جل وعلا، الإمام المرجع السيد الحكيم إلى جواره. ولفّ الحزن، وأوشحة السواد خواصر العراق والبلاد الإسلامية المحيطة. وكانت مرجعية الإمام الحكيم صمّام أمان للأمة والوطن. ذوداً عن حريم الدين، وراية وحدة للأمة. وركنا شديداً يأوي إليه كل المصلحين، وطلاّب التغيير والبناء والإصلاح. في ظلّه لم تتجرأ سلطة حاقدة على الجأر بصراحة بمعاداة حركة دينية، أو شعيرة مذهبية أو حرب على المتدينين صريحة وجماعية، نعم كانت السلطات الجائرة تفعل بعض ذلك، بعناوين مختلفة وأكاذيب مختلقة، تسرّجها على الشعب والناس. تطلقها هنا وهناك. لكن هيهات لها أن تعلن عن أهدافها بصراحة. إلاّ أنّه في السنة الأخيرة من حياة السيد المرجع الحكيم، تعرضت مرجعيته لمحاولات يائسة من قبل النظام البعثي، لأجل هزّ هيبتها والنيل من حرمتها. فكان للسيد الشهيد موقف[1] علوي

---

(١) يمكن معرفة التفصيل عن هذا الحديث بالرجوع إلى كتاب (سنوات المحنة وأيام الحصار) للشيخ النعماني.

حيدري متميّز، قام به وحده، في حين نكص الآخرون عن فعل شيء يذكر، عدا مجرّد الدعاء والصلاة.

ففي عام ١٩٦٩ م وُجِّهت تهمة خطيرة للمرحوم "السيد مهدي" نجل الإمام الحكيم من قِبل أجهزة السلطة المعادية للإسلام بالتجسس والعمالة للأجنبي.. والشهيد السيد مهدي كان يمثل ركناً أساسياً لفاعلية مرجعية والده وتحركها ونشاطها واكتسابها ذلك البعد الشعبي الكبير وتجذرها في أعماق الجماهير. فعلم الشهيد الصدر آنذاك بعزم السلطة على تحطيم تلك الدّعامة الأساسية للمرجعية وهزّ ثقة الناس في الحوزة والعلماء بتوجيه تهمة التجسس إلى المرحوم السيد مهدي. فشارك سيدنا الشهيد بفعالية وتنسيق مع مرجعية الإمام الحكيمؓ، لإقامة مهرجان كبير، واجتماع جماهيري حاشد، يعبِّر عن مستوى تغلغل المرجعية الدينية، وامتدادها في أوساط الأمة وقوتها وتجذرها. وخطّط لمحاصرة مكر الطغاة بجعل السيد مهدي هو الذي يلقي كلمة المرجعية، حتى يعطيه ذلك البعد الجماهيري المطلوب، ويسقط بذلك سلاح الشيطان من يده. وحصل الاجتماع في الصحن العلوي الشريف، وكان حاشداً مهيباً، ضم كل طبقات المجتمع العراقي وفئاته. وعبّرت الجماهير باجتماعها ذاك عن موقفها ودعمها الواضح والتام للمرجعية الدينية الرشيدة.

وكان من شأن ذلك الحشد الذي عُدَّ من أكبر التظاهرات الشعبية في العراق آنذاك، أن يحذِّر السلطة، ويردعها عن تنفيذ جريمتها، إلاّ أن

المخطط كان كبيراً ومدعوماً من الخارج، وكانت تلك الجريمة أولى حلقاته.

فإنه بعد تلك التظاهرة، حاصرت السلطة بأزلامها، بيت السيد الإمام الحكيم، ومنعت من الدخول إليه والخروج منه. وامتنع بالفعل عن ذلك حتى أقرب المقربين، خوفاً من غضب السلطة الجائرة وبطشها.

وهنا كان للسيد الشهيد موقفه البطولي الخالد، فقد كسر الحصار، وكان أول داخل على الإمام الحكيم. وكان يعلم أنه يعرض بذلك، حياته لخطر كبير، خاصة وأن خصمه هو سلطة حزب البعث المعروف بدمويته وتوحشه. ولكنه لم يأبه لذلك كلّه. فقد حقق ما كان يراه تكليفاً شرعياً.

تلك الحادثة المشهودة، ودور الشهيد الواضح فيها، كانت أول إسفين دقه السيد الشهيد، لتحديد أو لخلق نوعية العلاقة التي سترتبط بل ستفصل بينه وبين سلطة الشر مستقبلاً.

من بعد تلك الحادثة فكّر الشهيد في ضرورة خرق الحصار والتكتيم الإعلامي الذي فرضته السلطات لطمس أي معلومة عما يجري في العراق، وبالتحديد في حاضرة الحوزة العلمية: النجف الاشرف وزعامتها الدينية المجاهدة. ولذلك عزم ﷺ على السفر إلى لبنان، نافذة العالم العربي على الدنيا بأسرها.. وهكذا سافرنا إلى لبنان، حيث يوجد كثير من تلامذته وأصدقائه هناك، بل كان هناك "صدرنا" المجاهد الآخر، وهو شقيقي (أبوصدري): الإمام السيد موسى. ولقد كان الهدف من هذه الرحلة، إيصال صوت الحق والمرجعية الرشيدة إلى أسماع العالم في

خارج العراق.

وبعد وصولنا، اجتمع الشهيد مع الإمام السيد موسى، ومعه جماعة كبيرة من العلماء، ورجال الدين الذين أصدروا على أثر ذلك بيانا استنكاريا ضد ما يجري في النجف، يستنهضون فيه زعماء العالم العربي والمسلمين والهيئات الدولية، ويناشدون العالم للتدخل ومعالجة الأوضاع السيئة هناك.

وقد قام الإمام السيد موسى باعتباره "رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى" بإرسال برقيات إلى جميع رؤساء وزعماء الدول العربية والإسلامية باسم المجلس في لبنان، يوضح لهم فيها ما جرى في العراق من محن وإحن، ويستصرخهم فيها لنصرة المظلومين. وقد تجاوب معه بعضهم، وأجابه على برقيته، كالرئيس جمال عبدالناصر والملك السعودي فيصل، والرئيس اليمني الأرياني.

ومن الأنشطة التي جرت في لبنان لتأليب الرأي العام خارج العراق، أن وزِّعت بيانات على الصحف تفضح النظام البعثي، وملصقات جدارية، تشرح الأوضاع في العراق. ولقد نقل لي السيد الشهيد: أن السفارة العراقية في بيروت بذلت جهوداً كبيرة من خلال اتصالاتها مع الصحف والمراكز الإعلامية، لكي لا تتفاعل مع الموضوع. وقام أركان السفارة بتحركات محمومة، في سبيل المراوغة وتشويه الحقائق ومحاولة التستر والتغطية، في نشاط مضاد لما قمنا به من إجراءات لفضح النظام.

هذا من جانب السيد الشهيد وجهاده وجهوده لنصرة دينه وشعبه.

وأما أنا فكنت أخوض جهاداً على صعيد آخر. فقد كنت أعاني من ثقل حملي الثالث، بجانب مسؤوليتي عن الطفلتين الأوليين، اللتين اصطحبناهما معنا إلى لبنان ـ ولأن مراحل السفر كانت متعبة بين العراق ولبنان، ثم لم تكن لنا فرصة للراحة، والتقاط الأنفاس، وبالتالي لم يتوفر لي جو من الاستقرار والراحة في أثناء السفر، وأنا في ثقلي ومعاناتي. لذلك كلّه، لم يُتح لذلك الحمل أن يؤتي ثمرته كما ينبغي، بالرغم من وجود أهل لنا وأقارب في لبنان، قاموا بما قدروا عليه من العناية الفائقة بي. ومع ذلك فقد عاجلني الطلق في غير أوانه. ووضعت حملي، الذي تبين أنه توأم أنثى. توفيت إحداهما بعد ١٨ يوماً، كما ذكرنا من قبل، وبقيت ثانيتهما تكابد آلام الحياة من علة وسقم وفقد وظلم متوالٍ. انصبَّ على رأسها ورؤوسنا جميعاً إلى يومنا هذا.

بعد سفر العودة إلى العراق، هناك شعر الشهيد أنه حقق انتصاراً جزئياً، ووُفِّق لتمزيق الستار الحديدي، الذي كان مفروضاً على المرجعية، المتمثلة في الإمام الحكيم. الأمر الذي أربك برامج السلطة الغاشمة وأفشل جهودها الشيطانية، ومما أدى إلى انفراج نسبي في أوضاع النجف والمرجعية. وزاد الشهيد قرباً والتصاقاً بالسيد الإمام الحكيم، على أن السيد المرجع الحكيم، كان يكنّ للسيد الشهيد مشاعر حميمية خاصة، ويبدي أبوة ورعاية متميزة، وخصوصاً لما كان يراه فيه من تميُّز ويأمل فيه من خير للدين وللعراق والأمة. والشهيد من جهته كان يرى في الإمام الحكيم ذلك الرجل القائد الشجاع، والفقيه الواعي

المسؤول. فجنّد الشهيد كل طاقاته وجهوده وتلامذته لدعم هذه المرجعية الرشيدة. والدفاع عنها، والاستماتة في سبيل عزتها، لأنها عزة للإسلام والبلاد والعباد. وكان يثق في تشخيص السيد الحكيم للأوضاع، وتوصيفه للأحداث، ويستجيب لأطروحاته، ويتفاعل مع رأيه في الشؤون العامة. ومن ذلك مثلاً: أن الإمام الحكيم، عندما طُرح عليه موضوع حزب الدعوة الإسلامية، كان من رأي السيد الحكيم وجوب بقاء النشاط الإسلامي الجهادي قائما، مع أهمية ابتعاد العلماء المعروفين وطلاب الحوزة عن صفوف التنظيم، لما في انخراطهم مع الآخرين في الصفوف التنظيمية، من ضرر يعود على الحوزة العلمية بشكل كبير. ولقد أرسل الإمام الحكيم إلى الشهيد من يبلّغه برأيه ذاك. فتقبّل الشهيد موقف المرجعية، وأرسل بدوره إلى قيادة الحزب من يبلّغهم بضرورة الفصل بين رجال ونشاطات حزب الدعوة الإسلامية، وبين رجال العلم والحوزة العلمية، وأكد ضرورة بقاء التنظيم، وأهمية استمرار العمل الحزبي الجهادي، وأنّه استجابة لمقتضيات الظروف والأوضاع التي شخصها الإمام المرجع، فقد قرر هو (الشهيد) أن يبقى بمعزل ومنأى عن صفوف التنظيم: باعتبار أن شخصية الفقيه المجتهد يجب أن تكون أرفع وأعلى من أن تتأطّر بإطار أو أن تنتمي إلى جهة أو اسم معين، لأن الفقيه أب للجميع وراعٍ للجميع.

لا أدري: هل أنّ الأوضاع والأحداث كانت ستتخذ منحىً آخر أقل بؤساً وشقاءً، لو بقي الإمام الحكيم حياً على ظهر الأرض فترة أطول؟ أم

أنه قدر كان مكتوباً على كل حال، والمهم أن الزمن لم يطل بعد تلك الأحداث المؤلمة التي مرّ ذكرها. فما هي إلاّ شهور معدودات، إلاّ ونفاجأ صبيحة أحد الأيام[1] بالصيحة تعلو، والشوارع تغلي ضاجّة في بكاء ونحيب و افتجاع، فقد رحل الإمام في وقت أحوج ما تكون البلاد والعباد بحاجة إلى رجل مثله.. أدى الأمانة وعرج إلى ربٍ كريم وتركنا لهمها وغمها، نواجه أيامنا نبحث عن خلف.. يحمل أمانة الأنبياء بكل شجاعة كما كان السيد الإمام الحكيم. وفقد الشهيد بذلك خير أب وسندٍ لـه وللحركة الإسلامية والجهادية في تلك الأرض الحزينة.

وتعددت من بعد الإمام الحكيم، مراكز الزعامة الدينية، وتعددت بيوت المرجعية، ففقدت ذلك الوهج السابق بكل أبعاده الإيجابية. صحيح أن للتعدية إيجابيات أيضاً. ولكن بشرط أن يؤدي المجموع دور القائد الواحد «الحكيم»، وبنفس القوة الشعبية المتغلغلة، ثم بشرط أن يحمل المجموع، نفس الآلام والآمال و الطموحات والهموم الشعبية التي كانت القيادة الحكيمة الموحدة تعكسها، وتناضل من أجلها، بتلك الشجاعة وبذلك الإصرار. وبذلك النَفس الجهادي الدءوب. وهذه بعض المعالم الكبرى للمرجعية الرشيدة التي كان السيد الشهيد يدعو إليها، ويدعمها، فإذ رأى السيد الشهيد تلك البيوتات العلمية المتعددة على عراقتها وعظمة شأنها علمياً وروحياً وأخلاقياً وشعبياً أيضاً، إلاّ أنها لم تعد تسدُّ فراغ القائد الموحَّد الحكيم. فإن الشهيد، الذي كان أعظم طاقة

---

(١) وقع ذلك في صبيحة يوم ٢٧ ربيع الأول عام ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م.

محركة للجهد الإسلامي ككل، بالتنسيق والاستناد إلى مرجعية السيد الراحل الحكيم، اضطر أمام ذلك الوضع الجديد أن يتصدّى بنفسه لبعض مسؤوليات المرجعية الرشيدة.

وشيئاً فشيئاً، رأى كثير من المؤمنين والمجاهدين والمتحركين من أبناء وأتباع الحوزة العلمية أو من سائر الفئات الاجتماعية الأخرى، لزام أن يعتمدوا كلية على الرجوع إلى الإمام السيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر، باعتباره يمثل الأمل الكبير لقيادة الأمة بكل فئاتها وتوجهاتها، وليس الحوزة وحدها فقط، في ظل مفهومه الذي كان يطرحه ويمارسه عن المرجعية الرشيدة. وصار السيد المرجع الصدر يوالي طرح أفكاره التجديدية أو يؤكد على ضرورة التغيير على صعيد الحوزة والمجتمع.

كان يعتقد أن من أهم أسباب عدم اقتدار الحوزة في مقابل مخططات الشياطين الحاكمة ومؤامراتهم وكيدهم للدين والأمة، هو عدم قدرة الحوزة على التجديد والتجدد، وعدم الرغبة في الانعتاق عن الأساليب والمناهج التي عمّرت قرونا متطاولة، وأبناؤها يلوكون نفس المناهج والمقررات، ويدورون في نفس الحلقات، ويتخلقون بنفس السلوكيات ويحملون نفس المفاهيم الاجتماعية والنظرات الاجتهادية في العمل الإجتماعي والعلاقة مع السلطة وجميع الجدليات الفكرية الجديدة.

كان يعتقد بكل ذلك، بجانب إيمانه العميق بوجود الجوانب الإجابية

العظيمة التي تختزنها هذه المؤسسة الدينية العريقة، والذخائر العلمية والروحية والفكرية الثرة التي لا تزال الحوزة تتحف بها أجيال الأمة، في ماضيها وحاضرها. ولكن مع ذلك كان يؤمنﷺ بأنه يجب التحرك لإصلاح ما يجب إصلاحه في مناهج الطرح والتلقي وأساليب التدريس ووسائل التعليم، وطرقه وأساليب المعيشة في أوساط الحوزة العلمية.

لقد كانت لـه أفكار وبرامج طموحة لخدمة منتسبي الحوزة من رؤساء ومرؤوسين، من أساتذة وطلاب. لم يكن عنده مقبولاً أن تكون أروقة الحوزة ملجأ ومأوى لكل نطيحة ومتردية من أفراد الناس. فتتلقى صفوف الدراسة فيها سنوياً، عدداً من الكسالى والفاشلين في حياتهم، ليتسلقوا أكتاف الناس، ويكونوا عالة على المجتمع.

كان يطمح لجعل الحوزة ميادين علم وورش عمل لصنع حضارة أخلاقية وعلمية جديدة، في خضم هذا البحر المادي الهائج.. فكان حريصاً على توفير الأجواء الكفيلة باستقطاب أفضل طاقات الأمة وشبابها.

كان يقول: أن ليس ميادين الطب والهندسة وسائر العلوم المدنية، بأولى من ميادين وساحات ورثة الأنبياء وأمناء الرسل، ومنصة خلافة الله في الأرض، بتلك الطاقات والعقول المبدعة والخبرات المتفتقة.

إن بيد أركان الحوزة العلمية من المقدّرات والإمكانات المادية والمعنوية ـ إذا ما استُفيد منها بتخطيط سليم، وذكاء وتوازن ـ ما يؤهل هذه الحوزة لصنع جيوش من المفكرين والمبدعين والقادة الهداة.

كان عازماً على بناء مدن سكنية، وجامعات علمية ومراكز فكرية ومؤسسات إعلامية كبيرة، كلها تحت لواء الحوزة وزعاماتها الروحية.

ولكن أنّى لمثل تلك القيم المخلَصة الجديدة أن تقتلع ترائا، تعاقبت أجيال على تقبله واعتناقه والإلتزام به، حتى صار مقدساً قداسة السماء؟

نعم، إنها حقيقة مرة، واجهها الشهيد وعانى من أجلها عقبات ومرارات متتالية، لم يكن آخرها استشهاده على يد أبغض خلق الله إليه.

* * *

الشهيد الممتحن

لم تكن العقبات التي واجهت الشهيد والصدود الذي لاقاه والحرب التي شُنّت ضده، مقتصرة على جبهة واحدة، ولا كانت تُشنُّ من جهة واحدة.. لهان الخطب إذن لو كانت كذلك.. إلا أن قدر السيد الشهيد حتم عليه أن يبتلى بزمن لا يفهمه، وبيئة تقصر عن النهوض إلى ما كان يطمح إليه. لاشك أنه كان سابقاً لزمانه.. ولقد غصّت هذه الدنيا الضيقة بلقمة إسمها السيد الشهيد الصدر. ولو كان الأمر مقتصراً على معاداة السلطة الغاشمة لهان. ولكن الأنكى من ذلك أن يتلقى ما لم يكن يتوقعه من قبل مَن أحرق (الشهيد) شمعة حياته لأجل عزهم ومستقبلهم وعظمة دينهم وصلاح دنياهم.

إن لمحنة السيد الشهيد حديث مُرّ يطول. والحقيقة التي أعلنها هنا أن كتاب «سنوات المحنة» للشيخ النعماني أماط اللثام عن جزء من وجوه المعاناة التي عاشها سيدنا الصدر الشهيد وأهل بيته وليست كل الحقيقة. فما كان يجري من معاناة لهو أمر أمرٌ من أن يستمرأ. وأكبر من أن يقال أو ينشر. لكني أريد هنا أن أتكلم من داخل بيته، عما حلّ به وبعائلته من ظلامات لايعلم بها إلاّ الله.

فمنذ العام ١٩٦٨ م حيث حلّ الشؤم على جبين العراق بانقلاب البعث واغتصابهم السلطة وتمكنهم من رقبة الأمة.. عَرف السيد الشهيد بنظره الثاقب أن الحقبة القادمة ستحفل بأعاصير هوجاء. تحمل في باطن دواماتها كل ويل للعراق من آثارها المدمرة.

في الحقيقة كنت أعجب من السيد الشهيد عندما كان يدور الكلام معه حول النظام الذي تسلم السلطة فقد كان شديد التشاؤم من مستقبل العراق تحت حراب هؤلاء.. لقد كان يؤكد على حقيقة رجال النظام وخاصة صدّامهم الصنم الماحق. وأن هؤلاء حفنة من الحفاة اللصوص.. وقد سُلِّم العراق فريسة بين أيديهم، نتيجة مخطط أعدت تفاصيله من وراء المحيطات.

ومن خلالهم فرض على العراق أسوء وأخطر وأشرس نظام سياسي على الإطلاق في التاريخ المعاصر. هكذا كان قد رأى السيد الشهيد، والحق أنّا رأينا كيف استعجل هذا النظام سريعاً إنزال الضربات القاصمة بأهم مرتكزات العزة والقداسة في العراق: الزعامة الدينية ومجاهدي الشعب العراقي المظلوم.. فالشهيد عرفهم من بدايتهم والواقع صدّق ما كان يُحذِّر منه ويؤكد عليه.

وفي المقابل صار النظام أيضاً يدرس جميع مكونات القوة الحقيقية لدى الطرف الذي يقف في مقابله.

لقد عرف أركان النظام، بما أوتوا من وسائل دعم وخبرة من قبل أسيادهم، عرفوا أن ليس قوى اليسار بمختلف فئاتهم، ولا تكتلات الوطنيين الليبراليين، على اختلاف طبقاتهم، ممن يمكن أن يشكلوا

مكامن خطر يحسب لها حساب، فأولئك ما كانوا إلاّ كأحجارٍ تناثرت، ورُفعت من الطريق بكل يسر. وإنما القوة كل القوة والمنعة، وجدوها تكمن في المارد الإسلامي الذي استعمر[١] النجف الأشرف أم القرى وما حولها. ولذلك رأينا أن أقوى الضربات قد أنزلت على النجف لهدِّ كيان المرجعية، من أجل تفتيت صفوف الأمة الموالية لها واستسلام جميع القوى من ورائها حتى الإنهيار. ولذلك تصدّى الشهيد ـ كما تقدم ـ للدفاع عنها إلى الأخير، بكل ما استطاع أن يتسلح به ويناله من إرث الأنبياء.

وبتلك المواقف الصدرية العظيمة، عرفت السلطة الغاشمة أن مكمن الخطر.. كل الخطر في هذا الرجل الفريد. ومن حينذاك فتح الملف الأمنيُّ الأخطر، في عراق البعث. وابتدأ الصراع. لقد اتخذت المواجهة بين الشهيد والسلطة الغاشمة مظاهر متعددة، لست في صدد تعدادها، فهي كثيرة ومتنوعة من حرب نفسية بسلاح الشائعات إلى التهديدات المتلاحقة، إلى تأليب الغافلين والمضَلّلين، إلى الاستفادة من النقود اللاذعة من قبل الحاسدين.. الخ.. الخ وصولاً إلى تنفيذ انتهاكات خطيرة بحق المقام المقدس لكبار العلماء والمراجع، ما كان ليتجرؤوا على الإقدام عليها، لولا التخاذل والرعب الذي كان يهيمن على نفوس الكثيرين، فيسكتون في كل مرة وفي كل مفردة، والطاغوت يزيد ويتشجع ويتجبر بلا رادع. وهكذا تجرأ على اعتساف سلسلة من

---

(١) استقاءً من قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

الاعتقالات الوحشية فرضها على السيد الشهيد على فترات متفرقة. فلقد تعرض قدس الله نفسه للاعتقال أربع مرات، كان آخرها المرة التي استشهد فيها ولاقى فيها ربّه.

وأوّل جرائم الاعتقال تلك فرضت عليه عندما كان مرة[1] راقداً في مستشفى النجف، ليخضع للعلاج على أثر دواء تناولـه بالخطأ مما عرّضه لتسمم أُدخل لأجله المستشفى عدة ليال وفي ليلة من تلك الليالي البائسة، داهم رجال أمن الطاغية الدار، يسألون عنه، فلما أجبتهم بأنه في المستشفى، ولأنهم لا يتمتعون بأيٍّ من الشيم الإنسانية النبيلة، لذلك لم يرتدعوا عن التوجه إلى المستشفى وتطويقها، وفرض الحصار عليها. وبالذات على الغرفة التي رقد فيها الشهيد مريضاً.

هنا أأذن لنفسي أن أتوقف قليلاً، لأسرد لكم شيئاً من ذاكرتي، عن تلك المستشفى ـ المعتقل والشهيد الراقد فيها، تحت حراب العسكر. فلقد ذهبت إليه في أول زيارة لـه في غرفة العناية بالمستشفى، ترافقني الشهيدة بنت الهدى، فوجدته في غرفة كأنها خربة، قد تراكم التراب، في كل مكان من زواياها وعلى جدرانها، وتلطخت جوانبها بأشكال من البقع والأوساخ، وسرير متهالك قد فُرش عليه فراش متهتك ومتسخ. فلم أتحمل تلك المناظر الكريهة والحالة السيئة. فشمّرت عن ساعديّ، وشرعت أنظف الغرفة، زاوية زاوية، وقطعة قطعة.. كنساً وتغسيلاً، وتنظيفاً، حتى عاد كل شيء فيها يلمع بريقاً.

---

(١) حدث ذلك في شهر رجب من عام ١٣٩٢هـ.

فالتفت إليّ الشهيد وتبسم ضاحكاً منتشياً لتصرّفي، وهو يقول: الله أكبر.. من مثلي لـه زوجة تحرص على راحته ونظافته حتى في معتقله.

وخافت سُلطات البعث من أن ينتشر خبر وجوده في المستشفى تحت حرابهم، فنقلوه مكبّلاً بالأغلال رغم مرضه، إلى مستشفى الكوفة، لكي يكون أبعد عن أعين الناس، وليكون أكثر عزلة، حيث يوجد هناك قسم خاص للمعتقلين في المستشفى. وبعد مدة مضت على هاتيك الشاكلة أرجعوه مرة أخرى معتقلاً إلى مستشفى النجف، ليطلق سراحه منها أخيراً.

وعاود الجلاوزة اعتقاله في عام ١٩٧٧ م الموافق لـ ١٣٩٧ هـ حيث كانت انتفاضة «صفر» المظفرة قد أقضّت مضاجع الكافرين. وكان اتهام السلطة المجرمة الذي وجّهته إلى الشهيد آنذاك، أنّه هو الذي كان وراء كل ما حصل من أحداث.. وبعد ذلك أُطلق سراح الشهيد سريعاً، ولعلّ ذلك كان بسبب الخوف من أن تزداد الساحة اضطراماً ضد السلطة.

ومرّت سنتان ونيف. قبل اعتقاله الثالث.. فكانت ـ تلك السنتان ـ أشبه بهدنة مضطربة بين جبهة الشهيد وبين سلطة الشرّ الصدامي، سادها التوتر والترقب والحذر.

وتسنّى لنا في هذه الفترة ـ وبالتحديد في شهر رجب/١٣٩٨هـ ـ أن نحظى بعمرة أخرى لبيت الله الحرام مع الشهيد.. فقد جمع كل أفراد العائلة وأبلغنا برغبته في أداء العمرة وزيارة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام، وأنّه يريدنا جميعاً لمرافقته بما في ذلك المرحومة أمّه، رغم كبر سنّها وثقلها، والمرحومة أخته الشهيدة بنت الهدى. وقد اصطحبنا

معنا ابنتنا الكبرى المتزوجة من ابن عمّها السيد حسين الصدر[١] مع جميع الأطفال، وكان في معيّتنا أيضاً الشيخ محمد رضا النعماني، وكذلك سماحة آية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي[٢] مع عائلته.

فسافرنا جميعاً قاصدين بيت الله الحرام عن طريق الجو، وأجهزة الحقد تحصي علينا خطواتنا، بل تعدّ أنفاسنا. وحللنا في الديار المقدسة[٣]، ورجال أمن البعث أمامنا ومن خلفنا، يتابعوننا أولاً بأول، وبشكل صريح وبلا أي مواربة، حتى أننا عندما أقمنا في فندق، استأجروا غرفاً لهم تقابل غرفنا، ومنهم من كان ينتظر عند المداخل لمراقبة أي تحرك دخولاً أو خروجاً. وحتى الشهيدة بنت الهدى، استأجروا غرفة في مقابل غرفتها لامرأة منهم مكلفة برصد ومراقبة الشهيدة، ولم يتركونا، إلاّ عند رجوعنا إلى الوطن.. السجن الكبير.

وفي ١٦ رجب من العام ١٣٩٩ هـ بعيد انتصار الثورة الاسلامية في إيران، تعرض الشهيد للاعتقال مرة ثالثة، وكانت الأجواء السياسية متوترة في داخل العراق والمنطقة من حوله. في تلك الفترة استطاع الطاغوت أن

---

(١) هي البنت الوحيدة التي تزوّجت في حياة أبيها الشهيد، وتولّى هو بنفسه عقد قرانها.

(٢) وهو من أبرز تلامذة الشهيد.. ويشغل الآن مسؤولية رئاسة السلطة القضائية في الجمهورية الاسلامية.

(٣) كان الشهيد الصدر قد خطّط للالتقاء والاجتماع بسماحة الإمام السيد موسى في رحاب بيت الله، للتباحث معه والتنسيق فيما يمكن القيام به في تلك الفترة لتفعيل الأنشطة الجهادية ضد نظام البعث في الخارج.ولكن الشهيد غيّر خطّته بعدملاحظة تلك الإجراءات الأمنية المشدّدة وأرسل إلى سماحة السيد موسى بألاّ يحضر. والمعروف أن سماحة الإمام السيد موسى قد اختُطف وغيّب بعيد تلك الفترة بقليل.

يكمّم الأفواه، ويسكت أي صرخة تنطلق من أي حنجرة ثائرة، بعد وجبات الإعدام المتتالية والجماعية لخيرة أبناء العراق. إلاّ السيد الشهيد لم يقدر الطاغوت على إخافته ودفعه ليلتزم الصمت الحرام، مما دفع بالسلطات الجائرة لاتخاذ قرار جديد باعتقاله لإسكاته ووأد أقوى وآخر صوت بقي يقاومهم ويفضحهم، دون أي اكتراث منه لطاحونة إرهابهم.. فأقدموا على جريمة محاصرة البيت واقتياد سماحته تحت الحراب، وأخذوه معهم إلى حيث مركباتهم تنتظر.

وهناك انبرت توأم روحه: الشهيدة بنت الهدى وخرجت عليهم في سيماء زينب وحيدريّة عليعليه السلام فوقفت أمام أقزامهم خارج الدار تعنّفهم وتوبّخهم بكلمات بليغة، فأقامت بذلك عليهم الحجة، وعلى من سمعها من الناس. ثم انتظرت ريثما يقترب وقت الصلاة المفروضة لتضمن اجتماع أكبر عدد من الناس في الحرم العلويّ الشريف، وعندئذ خرجت وحدها حتى وقفت بكل صلابة وجرأة في صحن الحرم المبارك ونادت بأعلى صوتها معرفة بنفسها قائلة: «الظليمة.. الظليمة يا جدّاه يا أمير المؤمنين ها هم قد اعتقلوا ولدك الصدر. يا جدّاه يا أمير المؤمنين: إني أشكو إلى الله وإليك ما يجري ويوقع علينا من ظلم واضطهاد». ثم توجهت إلى الناس ونادت فيهم، كأنّ لبؤة تزأر من عرينها فقالت: «يا أيها العراقيون الشرفاء.. هل تسكتون، وإمامكم يقتاد للسجون ويعذّب؟ ماذا ستقولون غداً لجدّنا أمير المؤمنين؟ إن سألكم عن سكوتكم وتخاذلكم؟، اخرجوا وتظاهروا واحتجوا».

كانت السلطة عازمة في هذه المرة على إدامة اعتقال الشهيد، وتهيئة الأمر للتخلص منه نهائياً. ولكن يبدو أن الأمور لم تكن تحت السيطرة تماماً، ويظهر أنها خافت من غليان الشارع، فأطلقته.. ولكن أبقت عليه أسيراً حبيس منزلـه تحت الحصار. فإنه بعيد وصوله ﷺ إلى البيت، اتصل رئيس دائرة الأمن مباشرة، وأبلغنا بفرض الإقامة الجبرية والحجز داخل البيت، وفُرض الحصار الجائر من ذلك اليوم.

وطوّق المنزل بزبانية حَجّاج زمانه، وأقيمت حواجز المراقبة والتفتيش على مداخل الحيّ والزقاق الذي كانت تقع فيه دارنا(١)، ثم قُطِعَت عنا جميع منافذ الاتصال، بل قطعوا عنا حتى شريان الحياة.. فلم يعد يصلنا ماء ولا كهرباء، ولم يُسمح بدخول ولا بخروج أحد من وإلى الدار. أي كلّنا كنا رهن الاعتقال أو الاحتجاز، في أسوء صور الحبس والمحاصرة، وأبشعها. وأرجعونا بذلك إلى شعاب جدّنا «مؤمن قريش» أبي طالب رضوان الله عليه. فعشنا الجوع والألم والحرمان والغربة.. كانت محنة حقيقية. وإني لأعجب الآن لأرواحنا، كيف لم تغادر أجسادها، رغم أننا كنا نواجه الموت في كل يوم عدة مرات.

---

(١) في هذه الفترة كنا نسكن بيتا موقوفاً هو بيت الشيخ عبدالله المامقاني ﷺ (صاحب تنقيح المقال)، وهو في الواقع عبارة عن مقبرة تقع في القبو لآل المامقاني، أبيح للشهيد أن يقيم في طابقيه العلويين، وقد أقدمت السلطة على هدمه مع كامل المنطقة المحيطة من حوله. لمحو أي أثر قد يذكر بالشهيد، ولم تبق منه إلا شجرة سدر (نبق)، قائمة اليوم على أرضه، تصرخ في الأجيال: إنه من هاهنا عرج يوماً ولي من أولياء الله إلى بارئه، بعد أن تجرع غصص القتل في أبشع صوره.

ثم أعجب مرة أخرى لقدرة الطاغوت ونجاحه في فرض عزلة قاسية علينا كتلك، في قلعة الحوزة العلمية المجيدة، كأن أحداً لا يعرفنا ممن هم حولنا.. أو كأننا كنّا نقبع في مقصورة تطوّح خارج نطاق الأرض.

حينذاك، كان الوحيد الذي قد سُمح لـه بالدخول علينا ـ بين فترة وأخرى هو المرحوم السيد محمد صادق الصدر والد الشهيد الصدر الثاني، باعتباره ابنُ عمِّ الشهيد وابن خالته أيضاً.

مع بداية الحجز، لم يكن في البيت من مؤن غذائيّة مذخورة، فنحن كنّا قد اعتدنا أن نتسوّق حاجات معاشنا اليومي يوماً بيوم. فلئن كان هناك ـ آنئذ ـ من فتات رزق يمكن أن يسمح بتسربه إلينا كالقطارة فهو عن طريق الحاج الطيب، والمؤمن الوفي: «الحاج عباس»، خادم مجلس الشهيد (البرّاني). فقد كان الوحيد الذي أُذن لـه بعد مرور أسبوعين تقريباً على بداية فرض الحجز، بأن يخرج إلى الحوانيت المجاورة أو القريبة، يرافقه بعض الجلاوزة، فيشتري ما يكاد يسدُّ الرمق، ولكن تحت أعينهم، وبعد ألف سين وجيم. كلُّ ذلك لأجل كسر إرادة الشهيد وتركيعه.. وجعله يتنازل ويقبل ببعض الإملاءات والقرارات الجائرة التي تثبت سلطانهم.

لم يكن لنا آنذاك إلاّ الله رفيقاً وسنداً ومعيناً.. وليس لنا من زاد إلاّ الصبر والتأسي بسيرة أجدادنا الطاهرين عليهم السلام الممتحنين، وهم خيرة الله في الأرضين.

***

أيام السوافع

علمتنا الأقدار أنه ينبغي للمرء إذا توكل على ربّه ألاّ يقنط من بقية خير، وإن أجدبت الأيام وقل النصير. فالله اللطيف بعباده لن يترك من توكل عليه دون أن يهيئ لـه من يتنزّل لطف الله من خلاله. ومن لطفه بنا في تلك الأيام المكفهرة أنه كان يسكن في الجوار بالقرب منا آنذاك شاب في ربيع العمر، كان من طلاب العلوم الدينية وهو الشهيد المرحوم (السيد عبدالرزاق القاموسي). ذلك الشاب المجاهد الذي كان لنا شعاعاً من نور يضيء لنا في بحر الظلمات ا لمحيط بنا.. وسببا للطف الله وتنزل بعض ر حمته، فإن ذلك الشاب الطاهر والشجاع أعدمه المجرمون، لمجرد أنهم اكتشفوه وهو متلبس بخرق حصارهم المفروض علينا من كل الجهات، حيث إنه كان يغامر ويوصل إلينا بعض الخبز وما قد نتقوّت به عندما كنّا نعاني أحلك أيام الجوع والحرمان وذلك من خلال القفز من فوق أسطح المنازل حتى يصل إلينا من فوق، ولعله كان يسرب إلينا بعض المعلومات عما يجري في خارج الدار أو ينقل عن الشهيد بعض ما يريد إيصاله إلى أحد ما. ولقد كان وحيد أمّه التي كانت تعيش

معه، وزوجه الشابّة الطيبة في المنزل، لم يكن لهما معيل غيره، فهاجمته تلك الوحوش الضواري في منزله، واقتادوه معهم في عنف، ثم ما لبثوا أن أرجعوا جثمانه مقطعاً شهيداً.. واأسفاه عليه.. والله إن المهجة لتذوب لـه حزناً وكمداً، كلما مرت ذكراه على القلب المكلوم.

ومن المرارات الكثيرة التي ينفلق لها القلب غماً. أن من ضمن جيراننا الطيبين أيضاً، خباز كان يقطن في نفس الزقاق، وهو من إخواننا الأفغان المقيمين في العراق. وكان الشهيد قد اتفق مع الخبّاز ذلك سابقاً ـ منذ عدة سنوات ـ على أن يصرف، الخبز مجانا لكل طالب عالم يأتيه بورقة موقعة وممهورة من مكتب آية الله العظمى الشهيد الصدر. ثم يتولى[1] الشهيد أو بعض أعوانه محاسبته. وقد بقي مخبزه يعمل في الفترة الأولى من الحجز. ولكن ذلك الرجل المظلوم اختفى فجأة في يوم مشؤوم، وغاب خبره عن الجميع، ولم يُسمع لـه صوت، ولم يُر لـه أثر من بعد ذلك.

ومرّت الأيام بطيئة ثقيلة.. كنا نشعر في تلك الأحيان كأنّ الأرض تُزلزل من تحتنا.. وكانوا يصوِّرون لنا أن السماء تكاد تطبق علينا من فوقنا..

وبدأت آثار التجويع والقهر تظهر على أجسادنا هزالاً وضعفاً ومرضاً.. ولكن رغم ذلك، لم يكن الشهيد يزداد إلاّ إصراراً وقوة

---

(١) تلك كانت سنّة جارية وعرف معروف في مجتمع الحوزة العلمية.. حيث كان العلماء الكبار ومراجع الدين يوفرون هذه الخدمة لطلابهم أو لكثير من المحتاجين.

وإشراقاً. وأنا كنت أرى أن كيان عائلتي وبيتي يكاد ينهار.. ويجري ذلك بين يديّ وأمام عيني، فأذوب لذلك وُجداً وحسرة. ولكني مع ذلك أحمد الله ولا ينقضي شكري لـه سبحانه، لأني رأيت أن أطفالي آنذاك، رغم أنهم كانوا يعيشون معاناة حقيقية، من الحصر والضيق والجوع، والحرمان من كل شيء، حتى المدرسة التي هي حق طبيعي لكل أطفال الدنيا ممن هم في عمرهم قد حرموا من الذهاب إليها، طوال فترة الحجز والحصار، إلاّ أنهم رغم ذلك أبدوا شجاعة وتماسكاً وصبراً لا يقدر عليه إلاّ الكبار عادة.. كانوا يتواصون فيما بينهم على صغر سنِّهم على ضرورة ألاّ يظهروا آلامهم وشكاواهم أمام أبيهم الممتحن، حتى لا تزداد همومه ويمرض لأجلهم قلبه زيادة على ما يعانيه! كنت أشعر بالمصيبة تهدُّ كياني، لأجلهم ولأجل هذا البيت المنكوب. ولكني كنت أقول لنفسي: لا يهم.. ها هو ربُّ عائلتي وسيِّد بيتي ووجودي، مهيمن بظله الوارف، في صموده العجيب.. نوراً مشعاً وإيماناً راسخاً، يزرع فينا الأمل والصبر والتحمل. تلك كانت أعظم نعمة أحسُّها وألهج بالشكر لها، وأستصغر كل خطير في جنبها.

والشهيد من جهته، ازداد جسده المكدود إنهاكاً وخوراً.. لأنه هو أساساً كان يعاني من علل وأسقام مزمنة، لكن حرمانه من الدواء والعلاج، زاده علة على علته. ثم هو أيضاً كان يشعر في داخله بجبال من الهم يكاد يندك تحتها ظهره، وبالحزن يأكل حنايا قلبه تجاه ما يجري لعائلته ولأطفاله، لا لذنب اقترفوه عدا كونهم أبناء «محمد باقر الصدر»..

فهؤلاء الجبناء جعلوا منهم ضحايا بريئة تدفع معه ثمن موقفه، في مواجهة ظالمة غير متكافئة.

كل ذلك لم يكن كافياً لشفاء غليل الطغاة، بل زيادة عليه قاموا بعدة محاولات يائسة لإنهاء وجودنا وتصفيتنا جسدياً، بأساليب شيطانية ماكرة، يكون معها الأمر ـ لو تحقق موتنا ـ كأنّه قضاء وقدر ولكنّهم «همّوا بما لم ينالوا».

ولو أردت أن أعدّد تلك الأساليب الخبيثة والمكائد والمصائب التي كانوا ينزلونها على رؤوسنا إذن لطال الحديث كثيراً. لكني أجد فيما رواه الشيخ محمد رضا النعماني في كتاب (سنوات المحنة): وصفا وافيا لتفاصيل المأساة التي عاشها معنا ـ متخفياً في نفس الدار؛ وشاطرنا المصيبة بكل آلامها وألوانها، كأي واحد منا.

في الفترة الأخيرة من الحجز ـ الذي طال تسعة أشهر ـ حدث تطور من الإنفراج النسبي، سبق الاعتقال الأخير الذي أعقبته الشهادة.. ويظهر أن الطواغيت يأسوا بعد طول تلك المدة من فرض ذلك الخناق بكل أبعاده الوحشية، وفقدوا أي أمل في تنازل ولو يسير من السيد الشهيد لأي مطلب ولو صغير من مطالبهم. ويبدو أنه قد سقط من أيديهم سلاح التركيع عن طريق الضغط على الشهيد من خلال إيذاء عائلته ومحاولة إذلالهم. على أثر ذلك أحسسنا بنوع من تخفيف الحصار على بعض أفراد العائلة وبالذات الصغار.

وبعد حين، اتصل بنا هاتفياً من عرّف نفسه على أن مدير الأمن

العام، وسمّى نفسه (فاضل البرّاك)، وأشار إلى قرار السلطة برفع الحجز والحصار عن البيت والعائلة. بل عن الشهيد نفسه.

ولكن الشهيد خمّن حينها أن ذلك مكر جديد لكشف ما تبقى من خيوط، قد يهتدون بها إلى مكامن وقواعد وأفراد وأبطال الحركة الإسلامية المجاهدة ممن قد يتصل بالشهيد، عن طريق أفراد عائلته لو أفسح لهم أن يخرجوا لبعض شأنهم، أو به هو شخصياً.

ولكن الشهيد ـ قدس الله تلك الروح الكبيرة ـ أصر على البقاء حبيس الدار مواساة لجميع أبنائه وإخوانه المعتقلين، وأعلن سواء لرجال الأمن أو لمن استطاع زيارتنا حينذاك، بأنه يرفض إخلاء سبيله والإفراج عنه وحده بينما المؤمنون المبتلون يئنون تحت سياط التعذيب والقهر. فبقي في داره ولم يخرج، واعتبر كأن الحجز لازال كما هو. وقد تبين حقا فيما بعد، صحة ما ذهب إليه وانكشف جلياً مكرهم وخبثهم.

ثم كان هناك أمل أخير عند الشهيد وذويه وكل من خلفه، بأن تتحرك المرجعية لاستغلال الفرصة وإعلان التبني والانتماء لنفس الموقف الرسالي الذي تمسك به الشهيد. ولو فعلت المرجعية ذلك من خلال زيارة واحدة على الأقل، لتفاعلت باقي أركان الحوزة والأمة، ولعرفت السلطة أنها تواجه شعبا متكافلا وكيانا متماسكا، وليس مجرد شخص، حبيس أسوار منزله.

وبدلاً عن ذلك كنا نسمع أحياناً من ينقل لنا عن البعض انتقادات للشهيد على صلابته ومعاندته للسلطة الجائرة، وتخطئة لموقفه، وتخذيل

وتثبيط عن مناصرته. وما كان من الشهيد إلاّ التسلّح بالصبر والثبات، وإدامة الاستغفار لهم، وسؤاله الله جلّ وعلا أن يدفع عنهم البلاء ـ الذي كان يحذره عليهم[1] ـ من بعده، ما كان ينتقد منهم أحدا ولا يذكره بلسانه أبداً. وما كان جوابه إذا سمع بتلك المواقف المسيئة، إلا الإكثار من الاسترجاع والحولقة، والتمثل بحال جدّه الحسين عليه السلام في ساعاته الأخيرة.. كان نداء الحسين عليه السلام في أيامنا تلك متجسداً شاخصاً في كل لحظة: «أما من ناصر ينصرنا!».

في أيام الانفراج النسبي تلك، لم يخرق جدار الرعب والتخاذل السميك، إلاّ سماحة المرجع الديني الكبير آية الله السيد السبزواري طيّب الله ثراه، فقد ضحّى وغامر، وجاء يزور ا لسيد الشهيد في منزله مع قلة من العلماء الآخرين. وتوافدت في تلك الأيام بعض صديقات الشهيدة بنت الهدى، جئن يزرنها أيضاً.

وقد استطاع الأطفال في تلك الفترة أن يرجعوا للتردد على مدارسهم، فقد كانوا يخرجون بصحبة الحاج عباس رحمه الله، وكان يتبعه ـ كالظل ـ واحد من الأزلام المخذولين. ثم إذا عاد الحاج عباس أدراجه، بقي ذلك الجاسوس، واقفا متسمراً أمام بوابة المدرسة بشكل واضح وعلني، حتى يخرج الأطفال، ويكرون عائدين إلى المنزل متوجسين

(١) الواقع المرّ يشهد بأن ما كان يحذره الشهيد قد تطبّق على الأرض تماماً كما توقعه الشهيد.. إذ كان يقول: إن تلك سنّة إلهية طبيعية، فأي أمة ترضى بالذل وبهتك حرماتها ومقدساتها. فلن تبقى بعد ذلك حرمة لأحد فيها حتما.

حانقين وهم يرون ذلك الكابوس المظلم يتبعهم من ورائهم.

وهنا تحضرني إحدى الخواطر المرّة فيما يرتبط بالأطفال والجاسوس الذي كان موكلاً بمراقبتهم.

فإنّه لما لاحظ سائر أطفال المدرسة ذلك الرجل متواجداً بشكل يومي، يرافق أطفالي من و إلى المدرسة، فقد ظنّوه من أفراد العائلة.. وفي يوم من الأيام تأخر بعض أطفالي في الخروج من المدرسة. فناداهم زملاؤهم قائلين لهم: أسرعوا، إن أباكم ينتظركم في الخارج!

فنزلت الكلمة كالصاعقة على نفوسهم الغضة، وما دخلوا البيت إلاّ وهم يبكون في حالة يرثى لها من الإحساس بالقهر والاختناق والشعور بالمساءة والإهانة وهم أبناء المرجع العظيم محمد باقر الصدر.

ولم تطل أيام ذلك الإنفراج النسبي، فسرعان ما هاجت أمواج الحقد وماجت، وسئم الجلاّد من الإنتظار، خاصة وأنّه بلغ ما يريد، وحقق هدفه المخزي من ذلك الإنفراج الذي اصطنعه. فقد تمكن آنذاك من جسِّ نبض الشارع.. إذ لم يجد لـه نبضاً يبشر بحياة.. وتمكن من قياس ردود الأفعال المحتملة، عندما يعزم على إنزال ضربته الأخيرة بكيان المرجعية الرشيدة.

وقد اكتشف الطاغوت في تلك الأيام القلائل أنه لم يبق أمامه من مقارع.. فلا صوت ولا نسمة ولا نأمة، وقد خلا لـه الجوّ: يهتك ويعربد ويفسد ويسفك الدماء.. ولا من معترض.. كأنما مدينة النجف والحوزة والناس في كوكب آخر.

هنا وجد المجرمون الفرصة مواتية، للإجهاز على قلعة الصمود الأخيرة في وجههم، ففرضوا الحصار والحجز مجددا بشكل علني سافر وأكثر تحدياً ووحشية، وضراوة من ذي قبل.. إلاّ أنهم مع ذلك أرادوا أن يرسلوا رسالتهم الأخيرة مصحوبة بتوسل وتذلل غريب، لذلك الرجل الشامخ المستميت رغم أنه لم يعد يملك حولاً ولا قوة ولا عشيرة تنفعه ولا أصحاب يمكنهم أن ينصرونه.. بقي في ميدانه وحده يواجه هجمة الشر بلا ناصر ولا معين. لقد كانوا حريصين بشكل لافت على أن ينالوا من ذلك الشموخ أو يفتتوا شيئاً من تلك الصلابة التي لا تلين.. باتت العملية عملية تحدٍّ وكسر عظام.. ذلك أنهم وجدوا قوة وجبروتاً متدفقاً من إنسان حبيس محاصر ذي جسد منهك، لا ظهر لـه ولا ظهير. أرسل الطاغية عدة رسل من مسؤولي السلطة في بغداد، يحاولون أن ينالوا ولو تنازلاً بسيطاً من السيد الشهيد. طلبوا منه مثلا أن يلزم الصمت ويسكت ويترك التحريض ضد النظام، هذا في أقل الأحوال ما دام يرفض ممالأتهم أو أن يمدحهم ويدعم سلطانهم رغم ما بذل لـه من الأموال والامتيازات والإمكانيات ـ لكنّ رفضَ الشهيد يتوالى. فصاروا يتنازلون من جانبهم في طرح مطالبهم.. ويؤكدون لـه بأنهم سيرضون منه بالنزر اليسير، فليقبل بأي شيء من شروطهم.. أيّ شيء. حتى قالوا لـه: نكتفي منك بتوجيه كلمة ولو غير مباشرة، عن عدم معاداتك لنا.. افعل ذلك ولو من خلال مقابلة صحفية مع وسيلة إعلامية من خارج العراق[1] لتتكلم

(١) اقترحوا عليه الحديث مع مجلة الوطن العربي التي كانت تصدر في باريس.

فيها عن وضع الحوزة العلمية والنجف وأن الأمور فيها غير سيئة، وفي مقابل ذلك خذ ما تشاء.

ولكن الشهيد في المقابل كان يصعّد ولا يريهم إلاّ صلابة الحق ويؤكّد لهم رفضه وغضبه من جرائمهم ومعاداتهم للدين وللمؤمنين.. كان في كل مرة تُوجه إليه دعوة للتنازل يرد عليهم بلسان جدّه الحسين عليه السلام (هيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت..).

من ضمن من تكررت زيارتهم واتصالاتهم في تلك الأيام الأخيرة من عمر الشهيد، المدعو فاضل البراك السيء الذكر، الذي استمات في محاولة جعل الشهيد يتنازل ولو لأمر بسيط من مطالبهم، قال لـه مرة وهو يحاول إقناع الشهيد: (سيدنا والله سنضطر لأن نقتلك ونتورط بدمك ونحن نبكي عليك)؟ وقال لـه مسؤول آخر كان قد أرسل كمبعوث خاص إليه من قبل قصر الرئاسة: (والله حيف يأكل مثلك القاع)!.

ولم يفرق الأمر عند الشهيد. فلقد والله قلّ سروره، وضاقت عليه الوسيعة بما رحبت.. و«من قلّ سروره كان في الموت راحته»، فهانت عليه الدنيا، واجترأ على الممات كمن استحنط وانطلقت نفسه نحو الشهادة وانشرحت. ورخصت في التضحية مهجته.

وبدأت صحة الشهيد تنهار، ولم يعد يقو على المشي؛ حتى أنه كان إذا أراد صعود الدرج، انبرى لـه سماحة الشيخ النعماني ـ رفيق المحنة والصبر ـ يعينه ويرفده، في تلك الأيام القليلة التي سبقت استشهاده،

واتخذ من الصوم شعاراً لـه ودثاراً. صار يديم الذكر والإنقطاع. وبدأ يسلو ما حوله عن وعي و إرادة واختيار. كان الرجل يودِّع.. لقد بدا أنه متيقن من أن ساعة الرحيل قد اقتربت. صار يؤكد لي في تيك الأيام القلائل أن الرؤيا التي تبشره بالفرج لا تنفك تلازمه، وهي سلواه و مبتغاه.

* * *

فصل من فصول الطف

في يوم السبت ١٩ جمادى الاولى ١٤٠٠ هـ نعق نذير الشؤم عندما طرق الباب بعد ظهر ذلك اليوم الكئيب مدير أمن النجف، وطلب من الشهيد مرافقتهم إلى بغداد. سألهم رضوان الله عليه عن الأمر؟

فأجابوا: إنه أمرٌ بالاعتقال[١]. فاستمهلهم دقائق ليودع أهله. ورفضوا، بحجة أن الأمر بسيط؟ ولن يطول فراقه للبيت، وأصرّ هو على موقفه قائلاً: إن ذلك لن يضرّكم.. ولم يروا بُداً من الرضوخ، إذ أن الشهيد لم ينتظر موافقتهم، فدخل البيت لفوره واتجه أمام ناظرينا جميعاً ـ بينما نحن في وجوم وذهول ـ إلى حيث اغتسل غسل الشهادة.. بتلك النية تحديداً، ثم خرج وصلى بين يدي الله ركعتين، ثم إنه اتجه إلى والدته المذهولة والمكروبة، وأخذ يدها وضمها إلى صدره بين يديه، ثم رفعها إلى فيه يلثمها في حنوٍّ، حادباً على أمِّه، يرجو الرضا والدعاء وطلب التسديد. ثم احتضن جميع من في البيت يضمهم ويقبلهم فعلمنا من خلال تصرفه أنه الوداع الأخير.

---

(١) هذا هو الاعتقال الرابع والأخير.

كان الموقف مأساوياً محزناً بكل تفاصيله، غير أن اللحظات الأكثر إيلاماً وتفجعاً هو عندما أراد احتضان ابنته الثانية[1] ابنة الخامسة عشرة فإنها لم تحتمل ذلك وأشاحت بوجهها، واتجهت نحو الجدار وأحنت رأسها عليه وهي تتنشغ في بكاء مرير، فأحاطها الأب الشهيد بذراعيه وصار يناجيها:

(حلوتي، إن أصحاب عيسى عليه السلام نشروا بالمناشير، وعلقوا بالمسامير على صلبان الخشب، وثبتوا من أجل موت في طاعة. لاتكترثي يا صغيرتي. فكلنا سنموت. اليوم أو غداً. وإن أكرم الموت القتل. بنيتي أنا راض بما يجري علي، وحتى لو كانت هذه القتلة ستثمر ولو بعد عشرين سنة، فأنا راض بها...)!. وبهذه الكلمات انفجر ما كان مكبوتاً في النفوس، فتحاتن الدمع زفراتٍ من الآماق، وللقلوب رجيعٌ ولَوْلَةٍ خفّاق.

وأخيراً حان دوري للوداع.. ووقف إمامي أمامي، شامخاً شاخصاً ببصره إليّ.. وجمد الدم في عروقي، وتصلّبت عيناي على محيّاه المشرق الوقور، فرأيته قد استنار وجهه، واعتدلت قامته! أين منه ذلك الوهن، وانحناء الظهر، الذي لازمه أياماً وأياماً؟

اقترب مني وقال لي هامساً: يا«أخت موسى»: بالأمس أخوك، واليوم النديم والشريك والحبيب. اليوم أنا.. لك الله ياجنتي. ويافردوسي، تصبّري، إنما هي البيعة مع الله، قد بعناه ماليس بمرجوع، وهو قد اشترى سبحانه.. ياغريبة الأهل والوطن.. حملك ثقيل.. ولك العيال.

---

(١) ابنته الكبرى كانت حينذاك في الكاظمية مع زوجها وقد حرمت من وداعه.

أسألكِ الحِلّ.. فأولئك هم سود الأكباد على بابكِ ينتظرون، وما من مفر.. أنا ذاهب.. وعند مليك مقتدر، لنا لقاء. و.. خرج.. فكان الرحيل.

بعد ساعة من رحيله معهم، صعدت المرحومة أمّه ـ وكانت قد تعدّت سن الثمانين ـ فوق السطح بعد أن جددت وأسبغت الوضوء، لتشكو إلى الله ما لاقت.. وقد كانت تفعل ذلك في كل مرة يعتقل فيها الشهيد. وفي هذه المرة.. جلست فوق السطح، جاثية، مستقبلة للقبلة، ناشرة شعرها، كاشفة جيبها، ضارعة إلى ربِّها في مشهد مؤثر يذوب له الجلمود، تتوسل أن يعيد إليها ولدها، ترجو أن يثمر توسلها، كما أثمر سابقاً واستجيب لها ذاك الدعاء[١]، ما كانت تعلم أن القدر المحتوم في هذه المرة قد تنزّل، وأن السماء قد حسمت أمر الشهيد، فقد اشتاق الملأ الأعلى لمحمد باقر، كما الأم تشتاق إليه.

في اليوم التالي، أي في يوم الأحد ٢٠ جمادى الأولى وفيما بعد الظهيرة أيضاً، سمعنا جلبة، وأصواتا مختلفة في الزقاق، ولما تنبهت الشهيدة بنت الهدى إلى ذلك سارعت للقول وبثبات قلب: (هاهم قد رجعوا، لقد جاؤوا لأخذي أنا أيضاً)!

يا سبحان الله كأنما كانت على موعد مع نفس القدر، الذي قدَّر لأخيها. طرقوا الباب، ففُتح لهم، وإذا بالجلاوزة قد تكاثروا على الباب.. وكان عددهم كبيراً، ومدججين بالسلاح!.. ياللعجب لم كل هذا

---

(١) كانت رحمها الله تقول في سجودها: (اللهم ربي أنت أعطيتنيه، وأنت وهبته لي. اللهم فاجعل هبتك اليوم جديدة انك قادر مقتدر).

الإستنفار، وإنما هي امرأة واحدة؟! إنها عادة المبطلين الجبناء، وقد أخبر عن عادتهم هذه الصادق المصدق جعفر بن محمد عليهما السلام حين قال: «إنّ الشياطين أكثر على المؤمنين من الزنابير على اللحم).

اقتحموا الباب فكانت هي المترصدة للرد عليهم ومواجهتهم. فسألوا عنها. وأجابتهم بأناة:أن المتكلمة هي مطلوبهم، فقال متحدثهم: يا علوية، إن أخاك يطلب حضورك. ففهمت المقصود. عند ذاك دخلت وتهيأت بكامل الستر للخروج، وجاءت الأم المكروبة متلهفة وهي تقول: (ها.. هل أنتِ ذاهبة إذن؟).

فقالت: نعم أنا ذاهبة إلى أخي. فسارعت الأم أيضاً ولبست عباءتها، وأصرت على مرافقتها. فلحقتها إلى حيث السيارة تنتظر. إلاّ أن صعافيق البعث رفضوا وزجروها، مهدّدين لها: بأنهم سيرمون بها على قارعة الطريق إن أصرّت على الركوب، فبقيت مكانها مدهوشة لهول مصابها، وأما الجناة فقد اختطفوا مصونة الخدر وولّوا هاربين.

وبذلك مُزّق كل ستر عن الحق والحقيقة في العراق.. ومن بعدها لم تبق حرمة لمخلوق، كائناً من كان. لقد عادت أحداث الطف تتراءى لي شاخصة، فها نحن مقبلون على ملحمة كربلائية جديدة.. وما وقع الآن، لم يكن إلاّ أوّل معالم تلك الملحمة... اللهم فأعن أمَتَك الضعيفة على طامّات الأيام القادمات.

بقينا تحت وطأة الصدمة، ثلاثة أيام نحسات، يمزقنا القلق والذهول. لم نكن ندري ما الذي يجري في خارج باب الدار. كانت تلك الأيام

الثلاثة، كفيلة بأن يجف وينتهي كل ما كان متبقياً في البيت لنقتات به، ولم يبق عندنا إلاّ ملابسنا مع الأثاث الموجود. والأنكى من ذلك أن السلطة عمدت إلى قطع الكهرباء والماء وخدمة الهاتف عن البيت، بُعيد اعتقال الشهيد مباشرة. وقد لطف الله بحالنا أن لم يكن الجوُّ حاراً في ذلك الوقت من السنة إذ أن الواقعة، قد حدثت في شهر نيسان، أي في فصل الربيع.

تحملنا الشدة والأذى المتواصل بل المتعاظم ثلاثة أيام كنّ ليالي حالكات.. وبعد انسلاخها قررت الخروج مهما كان من أمر سوءٍ متوقع، وذلك لإنقاذ الأطفال من خطر الجوع والعطش. أردت أن أشتري خبزاً، أو أي شيء نتبلّغ به. فخرجت متكلة على الله مسلّمة أمري إليه، غير مكترثة بما قد أواجه بعدما واجهنا ذروة البلاء باعتقال الشهيدين، ولكني إذ خرجت تفاجأت عندما رأيت الزقاق خالياً تماماً من أي مظهر من مظاهر الحياة، فلا صوت ولا أثر لأيٍّ أحد، لا من أزلام الطاغية الذين احتلوا هذا الزقاق شهوراً متطاولة، ولا حتى من أهل الحي؟. تحركت نحو الخباز القريب.. وبعدما صرت منه على خطوات، خفق قلبي وازدادت هواجسي.. لم أسمع حينها أي صوت أبداً للتنور ولا لأي شيء يتعلق بالمخبز.. فيما سبق كان صوت حسيس النار وتأجّج التنور قوياً في العادة، يسمع عن بعد، حتى لقد صار ذلك الصوت متى ما سُجِّر التنور ــ مع أنه حسيس نار ــ مؤنساً لنا في وحشتنا، عندما كنا وحدنا محبوسين في الدار، في أيام الحجز الكاويات.

وحقا، عندما وصلت إلى محل المخبز وجدته مقفلاً! وتلفتُ حولي فوجدت كل الحوانيت، والدكاكين، أو محالّ الخدمات، كلّها كانت مغلقة! وكذلك أبواب الدور المجاورة، كلّها كانت مقفلة أو مزنجرة، علامة أنّ أهاليها ما كانوا موجودين في دُورهم؟!. فأدركت أن الجميع إما طُردوا أو هم بأنفسهم فرّوا من الحيّ، مخافة أن يحدث لهم ما لا يطيقون تحمله من قبل الزمرة المجرمة، من بعد جريمتها الشنعاء، التي أقدمت عليها باعتقال السيد المرجع الإمام محمد باقر الصدر، وعلمت أننا الآن وحدنا تماماً في حي بأكمله: امرأتان، إحداهما تعدّت الثمانين، وخمسة من الأطفال لا حول لهم ولا قوة ولا ذنب.. في بلاقع خالية.. عرضةً لأيّ سوء محتمل، وما من مغيث ولا جارٍ ولا مارّ.

تحيّرت حينها وبقيت واقفة أفكر مع نفسي: إن كلّ شر هو متوقّع الحدوث، لاحتمال معاودتهم الهجوم على الدار.. لقد رأيت نفسي هناك كمن يريد أن يدفع الشر بعود.

توجهت إلى رأس الزقاق، حيث الشارع الرئيس، لعلّي أجد هناك قبساً من فرج أو هدىً أو أحداً. في الضفة الأخرى من الشارع مقابل رأس الزقاق، وجدت سيارة واقفة، وكان سائقها بداخلها، كأنه يرتقب أمراً أو أحداً، رغم خلوّ المنطقة من سوانا كما أسلفت! ففهمت أنها تابعة لأجهزة الشر والبغي، وعندها قلت: لابد من أن أتخذ قراراً سريعاً.. إن مصير العائلة الآن رهن بيدي.. آهٍ يا ابن عمٍّ، كم هي ثقيلة تركتك التي خلفتها طوقاً ثقيلاً في عنقي. ولكن لست أنت الملوم على ذلك، وإلى

الله المشتكى.

تذكرت أن الشهيد كان قد خوّلني بالتصرف في مثل هذه الساعة، حسبما يقتضيه الظرف وتمليه المصلحة التي أقدّرها، عندما يحدث له شيء ويكون الأمر بيدي، ذلك أنّه كان متيقناً تقريباً أن الدنيا بأسرها ستسلمنا، وسيتخلى عنا الجميع من قريب أو صديق، لخوف أو لغيره. هنا قررت أنه لابد من التحرك والخروج سريعاً إلى خارج النجف، فإنّ لنا بيتاً في الكاظمية يمكن اللجوء إليه مؤقتاً هو بيت ابنتي الكبرى زوج السيد حسين ابن المرحوم آية الله السيّد إسماعيل أخي السيد الشهيد.

ويظهر أن السلطة بنفسها أرادت أن تدفعني لاتّخاذ هذا القرار، من خلال تعمُّدِهم قطع الماء والكهرباء والهاتف عنا، وإخلاء الحيّ من حولنا، حتى يبعدونا عن جوّ النجف، لئلاً نبقى فيها بؤرة أو مدعاةً لإحداث أيّ تمرد من قبل «المشاغبين» المحتَمَلين.

ثم فكرت في نفسي: إن أفضل وسيلة للابتعاد عن الشر، هو الاقتراب منه أو اقتحامه ومهاجمته أحيانا. وإن الخيار الأفضل كوسيلة لابتعادنا عن هذا الجوّ هو تلك السيارة الواقفة نفسها، لأن استئجار أي سيارة أخرى، سوف يؤدي إلى متابعتها. ولن نجني إلاّ المضايقة والمتاعب. ثم ستحوم الشبهة على سائقها البريء، وقد يتعرض للإعدام مباشرة، لأنه بذلك سوف يُعد عميلاً للسيد الصدر: العدوّ الأوّل للنظام، أو سيعتبر قائداً في تنظيم «حزب الدعوة»!.

فاقتربت من سائق السيارة المذكورة، وطلبت منه نقلنا إلى محطة

سيارات الأجرة، فوافق بلا تردد ويبدو أنه كان مأموراً بالاستجابة لمثل هذا المطلب.

رجعت إلى البيت وأخبرت أم الشهيد بكل ما جرى. فتحاملت تلك الثكول على نفسها وقامت معي وبصحبتي الأطفال. ولم يكن أمامي من خيار للانتظار سوى دقائق. وبالتالي فلم يتسنّ لي أن أرفع ولو عوداً من ذلك البيت، المهم أن أنجُوَ بتلك العجوز المسنّة المفجوعة، وبالأطفال.فخرجنا إلى السيارة، لكي نتحرك نحو الكاظمية، حيث بيت صهرنا السيد حسين الصدر.

فتركنا الدار لا نلوي علي شيء، تركنا كل متاعنا، وكل ما في البيت، بما في ذلك من ضروريات الحياة الأوليّة، وكل ما كان يخصني أو يخص أطفالي من لوازم أو هدايا مجتمعة وغير ذلك. مع أن بعضها كان غالياً جداً لا يقدر بثمن، فمثلاً ما أهداه إليّ الشهيد عند زواجنا، لعله من ناحية الكم الماديّ لا يعد شيئاً كثيرا ذال بال.. ولكن ما من شيء أعز ولا أغلى منه على قلبي.. ولقد تركنا ـ مرغمين ـ ما هو أغلى من ذلك: نفائس ما خطّه الشهيد بيده في أيام الحجز والحصار، فقد سجّل في تلك الأيام العجاف بيراعه عصارة عمره، ولباب فكره من آخر ما تفتّق عنه ذهنه الخلاّق، والذي زادته المحنة صقلا وسمواً.، ولقد أرغمنا هناك إضافة إلى ذلك على ترك تاريخنا وكياننا تعبث به يد الشرور.

ولم تكن مغادرتنا للبيت وترك ما فيه، تخلياً واستهانة، لأننا كنا نؤمّل العود إليه في أسرع فرصة. صحيح أن احتمال نهب الدار من ورائنا كان

وارداً.. لكننا كنا نواجه احتمالاً آخر أسوء وأقرب للوقوع، وهو تعرضنا لأي سوء لو بقينا، أو احتمال تعرضنا للتفتيش في الطريق لو أخذنا تلك النفائس معنا، مما سيجعل البلاء الذي قد نتعرض لـه أشدّ وآلم. مع أننا لم ننجُ منه كما سيتبين فيما يأتي.

وقد قدّرت مع ذلك أن احتمال سلامتها ببقائها في البيت أقرب في الحساب. والعاقل يختار أهون الضررين، كان لابد من أحدهما في كل حال، ولكن وقع المحذور، فهم استحوذوا على الدار ونهبوا كل ما فيها، ويظهر أنهم أعدموا وأفنوا كل ما وجدوه من آثار الشهيد، فهم لم يكونوا يريدون فقط إخماد شعلة الشهيد الصدر في شخصه وحسب. بل حرصوا على إطفاء ودفن شمس السيد محمد باقر الصدر بكل إشعاعاتها وآثارها.. وأبى الله إلاّ أن يتم نوره.

* * *

الباب الثالث

أم جعفر في وجه البلاء

في الكاظمية.. استنهر البلاء

استقبلَنا صهرنا السيد حسين في الكاظمية، وكان قد أُخبر بما جرى منذ اليوم الأول، وقد أبلغته أجهزة السلطة، أنهم على علم بوجودنا عنده، فلم يكن لنا إلا أن نأخذ غرفة من الدار لم يكن لها نافذة، فأقمت فيها مجبرة تحت حصار جديد، مدة دامت خمس سنوات مع أطفالي الخمسة.. وأما أمّ الشهيد فإنها جدّة أيضاً لنفس السيّد حسين. فهي أمّ أبيه السيد إسماعيل أخي الشهيد رحمهم الله جميعاً. وقد أقامت مع أمه في غرفة واحدة من تلك الدار. وهكذا تبين أن شياطين البعث الحاكمة قد خططت لحجزي مع عائلتي من بعد الشهيد، في مكان بعيد عن مسرح جريمتها الأول أي النجف الأشرف. ورأوا أن أفضل ذلك أن يكون في دار صهرنا، فنحن قد أتينا باختيارنا، فكأنهم يقولون: خذوا، قد نلتم ما أردتم..

فهناك فرضوا علينا الإقامة الجبرية، في تكتم شامل وحجز مشدد.. فلا داخل علينا ولا خارج منا، حتى لشراء ضروريات الحياة، ومنعوا أن نستفيد من جهاز الهاتف، بل حتى من أن نرد على طارق الباب. ومع

ذلك أقاموا علينا رقيباً عتيداً، يكاد لا يفارق الدار، فكان يتردد على السيّد حسين الصدر في الأسبوع عدّة مرات، ويجلس في الدار أحياناً كثيرة عدّة ساعات، وذلك رغم معرفته التامة بنا وبمن نحن، ومن هو الشهيد الصدر وما هي مكانته. وكان مكلفاً بمتابعة جميع تحركاتنا واتصالاتنا التي كانت محدودة بل ممنوعة. وبمتابعة السيد حسين الصدر نفسه في دخوله وخروجه، فلم يكن يخرج إلى مسجد أو سوق أو عمل أو مستشفى إلاّ والآخر وراءه كالظلّ يلازمه.

عشنا هناك دورة جديدة من الرعب والألم والحصار الظالم شاطرنا إيّاها صهرنا السيّد حسين الصدر وأخوه السيّد حيدر وأمّهما، وهي نسخة أخرى عن حصارنا وحجزنا في النجف، غير أنّها امتدّت في بيت صهرنا خمساً من السنين عصيبة، تخلى عنا فيها حتى الحلم بانقضائها وارتفاع بلائها، وتعددت فيها وجوه البلاء وتكثرت.

ماذا أعدّد وماذا أحصي؟.. من يتصور أننا صرنا نعدُّ المرض حياة وعافية وتجدُّداً.. فلقد كنا نفرح ونستبشر إن مرض أحدنا أو حُمّ!، لأنه سيخرج من هذا الحبس، وسيرى الدنيا خارج أسوار هذه الدار الكئيبة.

من يصدّق أننا صرنا نرتعب ويُعلن فينا الاستنفار بمجرّد أن يطرق باب الدار! لأنه كان من قوانين حجزنا في تلك الدار ألاّ يعلم ضيف بوجودنا! حرّموا علينا الاتصال والحديث مع أيٍّ مخلوق، وكان لزاماً علينا، فيما إذا ابتُلينا بضيف يريد الدخول على أهل الدار.. أن نركض مرعوبين لنرفع أحذيتنا عن مدخل دهليز البيت. وندخلها معنا إلى

فُرُشنا، لكي لا نتسبب في وقوع «جريمة» التعرف على وجودنا!

كان الاستثناء من تلك الأوضاع المؤلمة الدائمة، لطف من الله منَّ به علينا من أول يوم تقريباً. حيث أن أحد بيوت جيران السيد حسين عرفوا بحلولنا هناك. وهم على معرفة تامة بشأن الشهيد الصدر ومكانته ويَكنُّون لـه بالغ الحب والتقدير وان لم يكونوا من المتعلقين به تعلقا عمليا. و لما سمعوا بحلولنا هناك في تلك الظروف المتوترة، ورغم إعلان الأجهزة الرسمية عن اعتقال سيدنا الشهيد، ولعلهم سمعوا بأكثر من اعتقاله، لكنهم بالرغم من ذلك بادروا في يومهم بزيارتنا، وتكررت زياراتهم لنا، وتعددت هداياهم وصِلاتهم. كانوا ـ وأقولها للحق وللتاريخ ـ من أطيب الناس وأوفاهم وأكثرهم شجاعة وشهامة، وأعرفهم بأصول النجدة والكرم. إن أولئك الجيران[1] صاروا لنا نافذة برد وسلام ولو صغيرة، في بحر لهيب متلاطم، يحيط بنا من كل جهة.

لقد قيّض الله بلطفه مزايا فيهم ـ نفعتنا ـ لم تكن في أحد غيرهم، فهم أولاً من أهالي الكاظمية النجباء.. وأهالي الكاظمية ـ للإنصاف أقولها ـ من أكثر الناس طهارة وطيبة ووفاءً ونقاءً وكرماً وشهامة.. وهذا أمر معروف لكل عراقي.

من مزاياهم التي كانت لنا لطفاً، أنهم كانوا من وجهاء الكاظمية وتجارها، ولذلك كانوا بعيدين عن أجواء التوتر، ولم تكن لهم رابطة بأيٍّ من الفعاليات الدينية أو الجهادية.

---

(١) هم من بيت «آل العُقَيلي» من كبار بيوتات الكاظمية.

وهكذا وجدنا أن الله الذي قدَّر لنا بحكمته ذاك البلاء، من بطش الطغاة وحقدهم المتواصل ومن تخلي كلّ من تبقى[(١)] من حولنا، وكان فيهم المتدينون والعلماء والوجهاء، هو، هو الله سبحانه قيَّض لنا برحمته مثل هؤلاء الطيبين.. ليكونوا قناة خير لتنزل ألطاف من الله علينا. وبسببهم.

* * *

(١) نظام الطاغية منذ انتفاضة رجب في ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م، طفق يذبح وينكّل ويشرد ويسجن ويطرد وينفي كل من ظن أو شك، في أنه مرتبط بحركة دينية أو حلقة علمية مرتبطة بالسيد الشهيد ولو من بعيد.

شهيداً.. قضى نحبه

حرصت منذ يومنا الأول في الكاظمية، أن أفتح لنفسي كوة نور إلى العالم الخارجي، محاولة لخرق ذلك الحصار الظالم الذي تراءى لي أنه لن ينتهي. ولهذا كنت أسترق السمع خلسة، إلى مذياع صغير كان عندي لأتسقط الأخبار التي تحدث في داخل العراق أو في خارجه. ولكن بعيداً عن مسامع أمّ الشهيد والأطفال خوفاً من أن يصل إلى سمعهم ما كنت أخشاه وأرتعب لمجرد تصوره.. وهو مقتل الشهيد.. ولكن جرت المقادير بحسب ما أراد الله الذي أبى إلاّ أن يختار لعبده جواره.. فوقع المحذور، وسمعت في ليلة النحس تلك، ذلك الخبر الذي نزل علي كالصاعقة، فهدّ كياني.. أردت أن أصرخ.. أن انتحب.. أن أفجر الدنيا ثورة وتمرداً.. آه، أفلا يتلطف المولى بأن يقبضني إليه ويريحني.. لم يكن عندي من سبيل إلاّ أن أرخيت عيني بالدموع، وبقيت وحدي أنتحب بلا معين.

.. ربّاه حتى الحزن والتفجّع محرّمان عليّ، ممنوعان عني.. استكثر عليَّ دهرهم الخؤون مجرد التعبير عن مشاعري حتى عند أهلي

وخاصتي؟ ليت الموت أعدمني الحياة، قبل أن أبتلى بهذه الساعة.

.. استغفرك اللهم.. لا اعتراض على قدرك.. ربِّ أفرغ علي صبراً وثبّتني ألاّ أهزم. ربِّ رضاً برضاك.. لا معبود سواك.

ولكن رباه.. إني أعلم أن حرائر كربلاء من أسلافنا في الطف، تمكّنَّ بعد مصرع أبي الأحرار عليه السلام من البكاء والانتحاب ولبس السواد، وقد جأرن في الملأ بصوت الحق، مقرِّعات، معاتبات، نادبات، وإن كنّ قد لقين من الكرب والبلاء ما لا يستطيع امرؤ أن يتحمله، كما تحمّلنه هن.

ربِّ إني لا أقيس محنتي ومصابي في الشهيد على ما جرى في الطف ولا بمصاب سبط الرسول الحسين عليه السلام. لكنك يا ربِّ تعلم من أمتك الضعيفة، أنها أقل من أن تتحمل ثقل الجبال.

أخفيت الخبر المصيبة عن أمِّ الشهيد وعن الأطفال، خشيت أن تخونهم العاطفة ولا يقدرون على كبت الحزن الممِضّ.. وحينها قد ينزل علينا من حقد الطاغوت وأزلامه، مالا قِبل لأحد من عائلتي المنكوبة به. فلم يبق لنا من رجل إلا السيد حسين.. وقد يؤاخذ بأشدِّ العقاب والانتقام، لو ندّت من أحدنا آهة، أو سُمع لنا صوت، أو جرت لنا أمام الآخرين عَبرة. فآثرت السكوت وابتلاع الجمرة وتجرع السم الذي بدأ يسري في أوصالي، ينهشها من الداخل.

بتُّ ليلتي حين حندس الليل، تكويني عذاباتي وأنا في ذيل ذائل وهوانٍ شديد، كأني أتقلّب على أسنّة من الغضى تلتهب. كنت أحاول عبثا أن أوحي لنفسي أنني في كابوس مزعج، لا أريد أن أصدق بأن

السيد قد رحل.. لا لن أدع لمثل هذه الخواطر السوداء أن تهدّ من عزيمتي..

أقول لنفسي ذلك ثم أرجع إلى الواقع المرير واستسلم للقدر..

يا الله.. أفلن ألتقيَ الشهيد بعد هذا؟ ألن يعود؟

واوجيعة قلبي عليك، يا آمنة.. ألا إن الهدى ينعاك يابنت الهدى. أيُهدر دمكما ويذهب دَلَهاً.. ولا من عزاء! ولامعزِّين! ولاباكين!.. الله أكبر.. حتى الدّمعة قد عزت في حقك يا أبا جعفر، ألا إن حزني عليك سرمد.. والله لو قد بكاك الناس حتى تتحجر مآقيهم، لما أوفوك حقك.

آه لآلامك يا أرض العراق.. كأنك لم ترتوي من رافديك العظيمين، حتى يسقيك الطغاة أنهاراً من دم لا تجف.. كأن شقوتك لازمة وقدر مقدور. ما أشبه اليوم بالبارحة.. بالأمس البعيد ابتُلي العراق بسفاح سفاك دماءٍ كأخي ثقيف (الحجاج).. وقد قيل حينها: أنه يستحيل أن يبتلى الزمان بطاغية في مثل دمويته، حتى لقد قال أحدهم: (لو تفاخرت الأمم بطواغيتها، لفخرنا عليهم بالحجاج بن يوسف)، وقال فيه عمر بن عبد العزيز: (لو جاءت كل أمة بخبيثها، وجئنا بالحجاج لغلبناهم، وله موبقات لاتحصى). وها نحن اليوم نكتوي بنار حجاج آخر، ولكن أكثر اضطراماً وأشد تأججا، وأخبث مكراً، وأدهى شيطنة، وأشوق لسفك الدماء وهتك الأعراض.. وأشد حرباً لله ولرسوله وحقداً على المؤمنين.

ومع ذلك يبقى الفارق شاخصا في بعض الآثار: أما الحجاج فكان آخر كأسٍ مدامٍ تلذّذ به هو من دمِ العالم الشهيد سعيد بن جبير، ولقد

دعا بها سعيد: اللهم لا تسلّطه على أحد من بعدي.

فهكذا اختتمت آلام العراق في زمان فتى ثقيف بقصة العالم المجاهد سعيد بن جبير. ولكن الوجائع والفجائع في زمان فتى (العوجة) تبدأ من حين سقط الصدر بدمه مضرجاً. فلقد رُسم تاريخ المقابر الجماعية من ذلك اليوم، وبنيت أحواض الأسيد، وتوالت الويلات؛ وعمت المصائب والهزائم والنكسات من بعد ذلك اليوم.

لقد قالها الشهيد: (إن قتلني هؤلاء فسوف لن يفلحوا بعدي ولن ينتصروا..).

وحقا، لم نجد من بعد استشهاده إلاّ البلاء والهلاك والبوار للعراق وشعبه يوما بعد آخر. لقد انطبق على حادثة استشهاده المقولة المشهورة: أتتكم فالية الأفاعي. ولقد دفع الجميع الثمن غالياً من بعد الشهيد.

علمت من بعد زمن طويل مضى أنهم أرجعوا جثمانه الطاهر بعد أسبوع أو عشرة أيام، سلموه إلى المرحوم السيد محمد صادق الصدر [والد الشهيد الصدر الثاني السيد محمد]، حيث طرق باب داره اثنان ملثمان، في ساعة متأخرة من الليل، وأخذوه معهما إلى مركبة تنتظر، كان قد وُضع فيها تابوت مجهول، فانتقلوا إلى مقبرة وادي السلام، حيث أطلعوه هناك على أن هذا المسجى في التابوت، هو ابن عمه وابن خالته السيد محمد باقر الصدر ثم طلب النظر إلى وجهه.. فعرفه، وقد رآه مضرجاً بالدماء، قد أحرقت لحيته الكريمة، وهشمت رصاصة مقدّم جمجمته، فوق إحدى عينيه، وكان الدم طرياً عبيطاً فوقها، وعندما طلب

تغسيله قالوا: إننا قمنا باللازم؟، فاكتفى بالصلاة عليه وحده، ودُفن قدس الله نفسه في تكتم شديد، والذي تولى دفنه رجل دفّان، ويسمى عبّاس بلاش.

وأما جثمان الشهيدة بنت الهدى.. فلم يستلمه المرحوم السيد محمد صادق الصدر، ولم يشرف على دفنها. وإن كان قد أُشيع عكس ذلك. وقد اختلفت عدة روايات في مكان دفنها، فأشبهت بذلك جدّتها الزهراءﷺ. فرواية تقول نقلا عن الشهيد الصدر الثاني: أن رجلاً من خَدَمة الروضة الحيدرية الشريفة، أسرّ لـه بأنّه كان قد أُمر من قبل سلطة البعث باستلام جثمان الشهيدة ودفنها. فدفنها هو بمعونة من يرتضيه من الدفّانين. ورواية أخرى نقلت عن رجل كان معروفاً في داخل النجف باسم: (الحاج خضيّر النّداف)، بأنه نما إلى علمه بأنهاﷺ إنما دفنت في مقبرة أخوالها آل ياسين.

ورواية ثالثة أشيعت منذ البدايات (أي قريباً من زمان استشهادها مع أخيها) من أن جسدها الطاهر قد أُذيب في حوض أسيد مركّز (تيزاب).. وهناك رواية رابعة عن ضابط كبير في جهاز أمن حزب البعث، أدّعت أنها دُفنت في مقابر الكرخ في بغداد.

ولكن يبقى أن هناك احتمالاً قوياً بأن تكون قد دفنت بجوار أخيها السيد الشهيد في نفس القبر الأول الذي دُفن فيه. لأنّ الدفان المذكور عباس بلاش أسرّ بذلك فيما بعد لمن نقل جثمان الشهيد إلى مكان آخر فيما بعد انتفاضة شعبان المعروفة في عام ١٩٩١ م وهو السيد كامل

العميدي[١]. وقال عباس للسيد كامل (إنهم جاؤوا لـه في اليوم الآخر من دفن الشهيد، بجثمان ثانٍ، وأمروه بدفنه بجوار جثمان الشهيد. وسيأتي تفصيل ذلك فيما سيأتي.

وبدفن الشهيد الصدر، حسبوا أن قد دفنوا رجلاً قد انتهى، وقضوا على آثاره، وأنهم دفنونا بعده طيلة تلك السنين الخالية، وزعموا أن لم يبق لهم بعده ما يؤرق ليلهم. وحرّموا أيَّ ذكر للشهيد، وكان مجرّد تداول اسمه يعد جريمة نكراء.. ولو ذكروه هم ـ آنذاك ـ مرة فبألفاظ نابية تعكس دمنة قلوبهم ودنس أرواحهم.

لم يحسبوا إذ قاموا بذلك أنهم إنما يسيرون بأقدامهم نحو تنفيذ سنة جارية وحكم إلهي بقصف وجودهم. وأنهم بذلك أسسوا لهدم بنيانهم من القواعد حتى خر عليهم السقف من فوقهم، وإن كان الأمر تأخر عن استشهاد الشهيد عشرين سنة ونيف من سنين الدنيا الزائفة، كما توقع الشهيد عند خروجه من الدار. وهو يودّعنا.

بالطبع لم يصل إلى علمنا أي معلومة عن كيفية دفنه وما جرى من بعد استشهاده، إلاّ بعد مرور سنين متطاولة، ذلك بعدما كبر الأطفال.. وصاروا هم يتساءلون ويبحثون، وإن كان ذلك منهم جرى في سرية بالغة بعيداً عن أعين رصد الطاغية.

* * *

---

(١) سيأتي تفصيل قصة نقل الجثمان الطاهر في فصل قادم.

جدب ما بعد الشهيد

في فترة وجودنا في الكاظمية التي دامت خمس عشرة سنةً من السنين اليابسات من بعد استشهاد الشهيد، أدركت أنهم يحاولون دفننا في بيتنا أحياء من خلال حبسنا في غرفة منعزلة وبذلك العسف والجور والتشديد.

ولذلك حاولت أن أقاوم أسلحتهم الخبيثة، بسلاح مضاد بالاتكال على المولى جلّ وعلا.

فكنت أغذي الأمل في نفوس أفراد العائلة، وأظهر لهم بمظهر المتماسك الجلد. كنت أعيش تناقضاً بين ظاهر سلوكي وبين حقيقة مشاعري، فمن جهة خشيت على أم الشهيد أن تنهار وتزداد صحتها سوءً، لو علمت بما جرى. ومن جهة أخرى أردت للأطفال ألاّ يشعروا بذل اليتم وفقد الأب الراعي، خاصة مع تخلّي الجميع وعدم وجود أقارب وأرحام بقربنا. خوفي أن يزيدوا بذلك بؤساً وشقاء،، لما هم فيه من حبس وقتل بطيء متعمد.

ومن ناحية ثالثة، أرّقني تفكير في اتجاه مخالف، ففي ظروف بائسة

مثل تلك، قد تنشأ عقد نفسية مستعصية في نفوس هؤلاء الأبرياء الضحايا. وقد تنبني في رؤوسهم أفكار مشوهة عن الدين والجهاد والتضحية، وعن أبيهم بالذات، ذاك الذي باع وجوده وكل ما يملك لخالقه. فقد يتخيلون لا سمح الله أنه تركهم للفراغ والذئاب ورحل بلا سبب وجيه.. لأنه ضحى لمن لم يهمهم أمره. لذلك جهدت بكل طاقتي، ودست على قلبي، وكبلت مشاعري، واستنفرت قواي كلها للمحافظة على تماسك البيت، والنظر إلى المستقبل الأفضل ودفعهم للتعلق بالله ورجاء ما عنده، واللهج بالذكر والدعاء، وقراءة القرآن.. تلك هي وسائلنا وذريعتنا.. نستمطر بها سماء الرحمة لإنزال الصبر والفرج واليسر من بعد عسر طال جثومه. كنت أركز فيهم ضرورة التمسك بهذه القيم، فكنت أحفزهم وأشجعهم، ومعي أم الشهيد على ذلك. ولذلك صار البيت ـ بفضل الله ـ كخلية نحل دائمة، لا يسمع في داخلها إلا الذكر والقرآن والدعاء.

بعد شهرين مضيا على حالنا ـ من أول نزولنا في الكاظمية ـ فوجئت يوماً بابنتي الثانية تسائلني والقلق ساكن على تقاسيم وجهها الشاحب الصغير: أمّاه، لقد سمعت عندما كنت بجانب المذياع، خبراً عن مقتل والدي، أصحيح ذلك؟ قالت ذاك وكان السيد حسين جالساً يسمع. فأسقط في أيدينا، وتداركنا سريعاً فنفينا لها ذلك الخبر، وعللت ذلك بأنه من ألعاب الكبار القذرة وأنت صغيرة[1] على ذلك، إنها محاولات

(١) كان عمر ابنتي آنذاك قريباً من الخامسة عشرة.

إعلامية خارجية لإرباك الأوضاع وإخافتنا فقط، وأنت لا تقدرين على استيعاب هذه الألاعيب، دعيها واطمئني، أبوك في خير إن شاء الله، صحيح هو عند صدّام، لكنّا سنلتقي به بإذن الله، وسنفوز بحياة سعيدة معه، رغماً عن صدّام وزبانيته إن شاء الله. نامي هانئة أي بنيّة!

وفي حقيقة الأمر كنت كمن يدهن من قارورة فارغة، فمن أين الهناء والنوم الهنيء. لقد كان الأطفال يقضون ليلهم ونهارهم في بكاء مستمر، رغم تماسكي، ومحاولاتي زرع الأمل يعمر جوانحهم، كانوا دائمي الذكر لأبيهم وعمتهم، ويبكونهما، إماً خوفاً عليهما وإمّا أملا في نجاتهما والإفراج عنهما.

بل صاروا يندبون حظهم، أن لم يبقَ لهم من أقارب، كانوا يبكون الأعمام والعمّات الذين توفوا أطفالا في أول أعمارهم، حسبما كانت تخبرهم جدتهم أم الشهيد. ويندبون الخالات والأخوال الذين يعيشون بعيداً عنهم خارج الحدود، ولا سبيل إلى الانتصار بأحد منهم. كانوا يحسون كأنهم وريقات يابسة تساقطت من شجراتها، فهي في معرض هبوب الرياح الذاريات من كل صوب، أو عرضة لدهس الأقدام والفناء.

لقد بلغت بنا الشدة والتضييق مبلغا صرت أخاف معه من تلقي المكالمات من أيٍّ كان ومن أي مكان، لما يستتبعه ذلك من أذى ومصائب. حتى أن شقيقتي السيدة رباب الصدر (أم رائد) في لبنان، حاولت الاتصال بي عدة مرات في بيت صهرنا السيد حسين حيث كنا محاصرين محتبسين. ففي كل مرة كانت تتصل، كنت أبادر فوراً وبمجرد

سماع صوتها لإنزال سماعة الهاتف وقطع الخط، دون أن أرد بكلمة نعم.. وبعد حين نجحت في إرسال رسالة إليها بألا تعيد الاتصال. وقد طلبت منها أن تنساني وترحمني في كربتي وعذابي، فإن مجرد سؤالها عني يزيدني في نظر أولئك الجبناء جرماً واستحقاقاً لعذاب أشد. وأبلغتها كذلك بلزوم ألا تتكلم عني ولا حتى أن تذيع اسمي لأي وسيلة إعلامية، لأن ذلك سوف ينعكس حمماً تنصبّ فوق رأسي ورؤوس العائلة جميعاً.

وقد حدث مثل ذلك فعلاً، ودفعنا الثمن غالياً، عندما وصلتنا رسالة خطية من «الآغا مصطفى فيروزان»، زوج أختي زهراء، الذي أرسلها من سويسرا حيث كان في عمل لـه هناك.. وقد ضمّن رسالته (السلام والتحية والسؤال عن أحوالنا، وأعرب فيها عن قلقه وقلق جميع الأهل علينا، لانقطاع أخبارنا عنهم، ويبدي استعداده لتلبية أي طلب، أو إرسال أي شيء نحتاجه).

وصلتنا الرسالة، ولكن وصل معها سيل من يحموم البعث، بما فاق أو كاد ما كنا نعانيه من ويلات عذابهم وحصارهم، فشددوا في الأيام اللاحقة كل ما كان مفروضاً علينا من عقوبات جائرة، بغير ذنب. وصاروا يكيلون لنا الشتائم والسباب والتقريع والتهديد بإنزال الويل والثبور أياماً متواليات، كنا فيها كمن يغلي على مرجل.

هكذا قضينا أيامنا، أو قولي: حوالِكَ ليالينا، بل قولي: زماننا الذي لم نكن نميِّز لـه لوناً، ولا نستطعم لـه نكهة.. تتصرّم أيام وتنقضي شهور،

وتكرّ أيام أُخر كالدهور، وأنا أرى الأطفال أمامي مصطفّين تحت الجدار، أيديهم على وجناتهم، أو رؤوسهم بين ركبهم، يعيشون الفراغ والانتظار القاتل.. ليس من شغل إلاّ ذكر الله، يتخلل فراغنا بين وقت وآخر.

ولكن الله سبحانه منّ علينا بفسحة من فرج، عندما أقنعنا الرقيب علينا المتواجد غالبا في البيت معنا، أن أخرج أحياناً لشراء أوراق وأقلام وأدوات تلوين وتعليم، لأتمكن من القيام بتدريس الأطفال لاستغلال الوقت فيما ينميهم ويربي ملكاتهم، ويكسر طوق التجهيل والتضليل المفروض على أعناقهم. لقد صار ذلك للأطفال متى ما توفر نعم المشغلة والمسلاة.

وأما أمّ الشهيد، فلقد كانت تساعدني في احتواء الأطفال والرعاية بهم، بحنوّها وأمومتها الدافئة.. كانت كثيراً ما تصنع لهم الدُمى بيديهارحمها الله. وكانت تكثر من سرد القصص القرآني وخاصة قصص الأنبياء منها خاصة. وأكثر ما كان يعجبها أن تكرره منها: قصة نبي الله موسىعليه السلام فلقد كانت تسهب وتعيد وتزيد في سرد قصتهعليه السلام، وكيف أنه أبعد للحكمة الإلهية رضيعا عن أمّه.. ثم كيف ردّه عليها بصادق وعده.. وسائر تطورات قصته، وكانت تتلو الآيات وتفسرها كذلك. إلاّ أنها لما كانت تتلو قولـه تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]. كانت تقرأها أحياناً بتنهد وحسرة. وقد سمعتها مراراً

---

(١) القصص: ٧.

وهي تتمتم بعد قراءتها: صدق الله ولكن هذه الآية ليست لمثلي، وليس لي من تأويلها نصيب. فإن ولدي لن يعود.

تطاول وامتدّ زمان المحنة، وخبت جذوة الأمل في النفوس، وصار اليأس يدبّ ويتمكّن من الجميع، غير أنه لم يجرؤ أحد منا على مصارحة الآخر بذلك. فكما لم نتصارح باستشهاد الشهيد وأخته، كذلك لم نتصارح بأننا فقدنا الأمل في عودهما.

كانت تلك الحاجّة المظلومة الوقورة، تقضي ليلها تملُّ كما يملُّ المسموم، وهي في ذلك دائمة التلاوة للقرآن، وتهدي ثواب تلاوتها لروحهما، في صمت وخفاء. كانت تناجيهما باسميهما، وتعتب علي زمانها الذي حرمها منهما بعد ما قدّر لها الحرمان ممن سبقهما من فلذات كبدها. فحتى هذان الوحيدان اللذان بقيا لها من ذرية دفنتها وهي تنظر وتشاهد، لم يكملا مشوارهما معها، وهي التي كانت تتأمل أن يودعاها التراب إذا ما حلّ يومها.. لكنما الأمر لله وحده.

وهاهو حفيدها السيد حسين الرجل الوحيد المتبقي من ذريتها، مضيّق عليه ويُهدَّد بالقتل أو السجن والتعذيب في كل يوم إذا ما بدر منه أي شيء قد يغضبهم. وأما ابن اختها السيد محمد صادق الصدر وابنه الشهيد الثاني، فقد كانا في النجف وممنوعين عن زيارتها والدخول عليها في العام الأول من تلك المحنة. وبعد مضي عام استطاع الشهيد الصدر الثاني انتزاع موافقة منهم لزيارتها والسلام عليها والسؤال عن حالها وأحوال اليتامى من أحفادها. ثم تكررت زيارته لنا مرات معدودة فقط.

مما أتذكره عن أيام تلك الفترة أنني عندما أردت الخروج أشرت إلى ابني السيد جعفر، فانسلّ في خفة، وخرج معي، وكان لـه من العمر آنذاك اثنا عشر سنة أو أكثر. أخذته معي إلى مكتبة قريبة لينتخب لـه ما يحب من كتب الفتيان المناسبة لعمره، حرصا مني على توسيع مداركه وتثقيفه[(١)]. فانتقى بنفسه مجموعة منوعة من الكتب، علمية وتاريخية وأدبية ودينية. ولم أكن ملتفتة في تلك الدقائق، أثناء انشغال السيد جعفر بمطالعة عناوين الكتب، إلى أن صاحب المكتبة كان يرقبه وهو منشغل بالمطالعة واختيار ما أحب من تلك الكتب المصفوفة على الأرفف. فلما توجهنا إليه بتلك المجموعة المختارة لأجل المحاسبة فوجئت به يكيل المديح لابني، ويقدم لـه مجموعة من الأقلام، ويضعها فوق تلك الكتب.. هدية لـه لنباهته وحسن اختياره.

واستمر منوال حياتنا الكئيب خمس سنوات مجدبات تقضّت، كبر فيها الأطفال ورَشدوا: صغرى البنات كان لها من العمر سبع سنوات عند استشهاد السيد الأب، و«جعفر» ابنه هو الآن، بعد تلك السنين، ذو خمسة

---

(١) استشهد الأب وكان عمر ابني «السيد جعفر» في العاشرة. أنهى الصف الرابع الابتدائي. فأكمل دراسة المرحلة الابتدائية في داخل البيت تحت الحصار حيث جلبنا لـه كتبا بالحيلة. واستطاع تقديم امتحان المرحلة ككل في مدارس الكاظمية. ثم واصل دراسته بتلك الطريقة. وأنهى المرحلة المتوسطة ثم الثانوية في المراحل اللاحقة، في كل ذلك تلقى دروسه بنفسه وكان يقدم الامتحانات النهائية في إحدى المدارس. حتى استطاع فيما بعد الثانوية أن يلتحق بكلية الحقوق. ودرس فيها السنة الأولى. ثم توجه بعد ذلك إلى الحوزة العلمية لمواصلة طريق أبيه الشهيد مما جعل السلطات الغاشمة تعتبرها جريمة. فسلطت عليه نيران حقدها. مما اضطره إلى الخروج من العراق سراً في عام ١٩٩٨ م.

عشر ربيع عاصف كاسف.

وكبرت بناتي وتزوّجن[(١)]، وهذه الزيجات كلها أجريت تحت أطلال الحزن والأسى بفقد الشهيد الأب.. وتحت حراب الطاغوت وفي أجواء سجن كبير يسمى العراق، الذي نلنا قسطنا الوافر من قيوده وأغلاله وحقد جلاّديه.

البنت الوحيدة من بناتي التي أنعم الله على البيت بأن يكون زواجها في حضور الوالد الراعي الشفيق وجرت أحداثه في ظروف طبيعية، ذقنا فيها نكهة العرس وطعم الفرح هي ابنتي الكبرى؛ ذلك أنّها من حين وُلدت جاء عَمُّها المرحوم السيد إسماعيل مباركاً، فطلبها وأخذها بين يديه وقبّلها وقرأ عليها المعوذات والمسنون من الأدعية، ثم قال: اسمع يا أخي يا سيد محمد باقر، إن هذه الفتاة محجوزة لنا منذ الآن، إنها زوج لولدي السيد حسين إن شاء الله، وكان الفتى السيد حسين آنذاك البالغ اثني عشر سنة من العمر، قريباً إلى قلب عمه السيد الشهيد فتعهده من بعد المرحوم أبيه، وكان لـه أبا ثانيا. وإن لم يكن فارق العمر بينهما كبيرا.

لمّا كبرت الفتاة وأتمّت الثالثة عشرة من عمرها، كانت قد أنهت السادسة الإبتدائية. فتقدم السيد حسين خاطبا يدها. وتم عقد القِران في النجف الأشرف وتولى ذلك أبوها السيد الشهيد وكان ذلك في عام

---

(١) تزوجت ابنتي الثانية (أم أحمد) من الشهيد مصطفى محمّد الصدر رحمه الله، والرابعة (أم علي) من أخيه الشهيد السيّد مؤمّل محمّد الصدر رحمه الله، بينما تزوّجت الصغرى من أخيهما السيّد مقتدى الصدر حفظه الله.

١٩٧٤ م. ثم أجريت مراسم الزفاف في بيتٍ يقع في الكوفة ـ القريبة من النجف ـ كنا نستأجره في أيام القيظ في الحر في كل موسم صيف، حيث تكثر هناك المزارع والخضرة والهواء الطلق على ضفاف الفرات، كان ذلك البيت يشتمل على حديقة كبيرة نسبياً، فرشناها بسجاد استعرناه من أحد السادة النجفيين الكرماء. وكانت ضيافة الحفل خبز اللحم، وقطع من الكعك، نسميه (الكليجة) إضافة إلى البقلاوة العراقية، والمرطبات.

كان ذلك هو العرس الوحيد الذي أقامه البيت في ظل الشهيد الأب، وكانت أجواؤه أجواء فرح غامر.

ثم أخذ العريس عروسه، وانتقل بها إلى مدينة الكاظمية، ترافقهما عمتهما الشهيدة «بنت الهدى». دوني أنا أم العروس. لأن العرف التقليدي النجفي القائم في مثل هذه الحالة، يرى أن من العيب أن ترافق الأم ابنتها العروس إلى عش الزوجية في يومها الأول.

هذه الأجواء، وهذه النكهة اللذيذة للتقاليد والأعراف الأصيلة، حُرمتُ من التمتع بإجرائها في زيجات أخواتها اللاحقة، كما في زواج بقيّة أخواتها، إذ عاشها بيتنا المحزون في أجواءٍ مختلفة تماماً عن أجواء العرس الأول.

في الفترة اللاحقة من بعد زواج ابنتي الثانية صارت صحة أم الشهيد تتردى أكثر يوماً فيوما. وبدأت تُكثر من الدعاء بالفرج وتحن إلى لقاء الأحبة، كانت حينها قد شارفت على السادسة والثمانين. في يوم من تلك الأيام التي سبقت وفاتها بقليل التفتُّ إليها، وتنبهت إلى أن الضعف

والوصب والخور، قد منعها من التحمم لعدة أيام، فقمت وأدخلتها الحمام وأشرفت على تنظيفها وتحميمها. ولم أدعها تخرج إلاّ كالفضة البيضاء. ولم تمض بعد ذلك ثلاثة أيام حتى أسلمت الروح لبارئها الكريم، لتطوي بذلك صفحة من الآلام والأوجاع، ولتستقبل حياة من النعيم، خالدة في الجنان، في درجة الصابرين إن شاء الله، عطاءً من الله غير مجذوذ.

وبقي للحديث وجع مُمِض لم أتحدث عنه بعد، إنه جرح ابنتي الثالثة النازف، الأشد وخزاً وألما، وأكثر إيجاعاً. فهذه البنت المبتلاة كانت شديدة التعلق والوله والتولع بأبيها الشهيد. ولاقت من اليتم والغربة والخذلان ما لاقيناه معها، ولكنّ قدّر لها أن يحفر ذلك في نفسها من الآثار المدمّرة ما كنت أخشاه على الجميع بسبب تلك الظروف. ولم تظهر تلك الآثار و وخامتها إلاّ بعدما كبرت، فإنها لما صارت في عمر يهيئها للزواج، تقدم لخطبتها أحد الأقارب من أبناء آل الصدر ممن يقطنون بغداد، وزفّت إليه، وبقيت معه مدة قليلة، لعلها لم تكن كفيلة بخلق التواؤم والانسجام بينهما. فهي عاشت في مثل الظروف التي قصصنا، بينما هو نشأ في بيت كان يعيش ظرفاً مختلفاً تماماً عن ظرفنا، فلم يستطع أهله استيعاب البنت، ولم يقدر الشاب على احتوائها وتفهم ظرفها.. وهكذا وقع الطلاق. فازدادت بذلك بؤساً وتنفراً من وضعها وقدرها. وصارت تدخل أحياناً في دوامة من المتاعب النفسية والروحية.

***

النجف.. مرة أخرى

هنا وجدتُ بعد هذه المصائب المتتالية أن من الأجدر أن أترك الإقامة في الكاظمية، وأعود للإقامة في النجف الأشرف، حيث إنّ البنات الثلاث الأخريات انتقلن كلهن للإقامة هناك من بعد زواجهن. وحتى ابني السيد جعفر، كان مقيماً هناك منذ فترة لمتابعة دراساته الحوزية التي تلقّى مقدماتها في الكاظمية.

استأجرنا منزلاً في النجف وأقمنا فيه. وفي الفترة اللاحقة، عشنا نوعاً من الإنفراج النسبي في النجف من ناحية السلطة، وإن كنا مازلنا نعيش كغيرنا في داخل سجن العراق الكبير.

بعد فترة من إقامتنا هناك، تقدم إلينا مؤمن محب من المتعلقين كثيراً بالشهيد. وكان على اطلاع بتفاصيل كثيرة عما حلّ بنا وما جرى علينا من بعد رحيل السيد الأب. بل كان يعرف حتى ما جرى من محن وتطورات سيئة في حالة ونفسية ابنتي الثالثة. ورغم ذلك تقدم إلينا خاطبا لها، بهدف محاولة إنقاذها، وانتشالها من محنتها وتغيير الأجواء التي كانت تعيش فيها بعد الصدمات المتتالية التي دهمتها.

ذلك المؤمن ـ الذي استشهد هو فيما بعد أيضاً ـ هو الشيخ محمد النعماني. ولقد تقدم خاطباً متشرفاً ببيت الشهيد ومقدساً لآثاره وأهل بيته، وقد اعتبر الأمر تكليفاً شرعياً، بإسهامه في معالجة بعض الآثار السيئة لجريمة كبرى، اشتركت فيها أمة من الناس عريضة، إما بالتنفيذ وأما بالرضا والسكوت والتخاذل والتخذيل، وكذلك كان يرى أن تقدمه لخطبتها رغم معرفته بحالتها، هو شيء من رد الجميل لصانع «أسس» و«فلسفة» الجمال في العراق.

لقد كان يكُنّ لنا مشاعر خاصة، وكان ينظر إلي أنا خاصة كقدّيسة في نظره.. بحيث أنه بعدما ارتبط بنا، كان ينحني أمامي إجلالاً أحيانا، ويلثم ذيل عباءتي. ومن بعد تقدمه للخطبة قبلنا عرضه بعد تفكير ومراوحة ومناقشة. وزفت إليه أخيراً؛ لتتلقّى منه ومن أهله وأهل بيته كل عناية وتقدير وإجلال واحترام. لقد كان رجلاً شهماً معطاءً ومقداماً، في بيئة لم تكن تشجعه أبداً للمضي في هذا الاتجاه. ففي النجف، صحيح أنّ ضغوط السلطة خففت عنا من بعد عودنا إليها عقب تلك السنين، من بعدما تحققت أهدافها التي كانت تعمل من أجلها، من خلال فرضها تلك القيود والضغوطات وهي دفع المجتمع لمنابذتنا، أو الابتعاد حذراً من مخالطتنا. وتلك محنة أخرى عايشناها هناك إنها محنة كوننا (البيت البُعبُع)، بيت الصدر الذي انفتح بمقتله باب على الجحيم، وكان تلفظ اسمه هناك يحدث كارثة ويثير الرعب لمن يسمعه. وتحوّل وجودنا ومكان بيتنا إلى نقطة بلاء لمن يريد التقرب منّا أو الاقتراب إلينا. صار الناس بأنفسهم يتحاشون الاختلاط بنا، ويطلبون السلامة في الابتعاد عنا.

من أمثلة ذلك ما حدث ذات مرّة عندما فقدت ابنتي ـ زوجة الشهيد السيد مصطفى ـ خاتم زواجها قبل استشهاد زوجها بعدّة شهور.. فقلبَتِ البيت بحثا عنه وأكثرت من السؤال عنه جميع أهل البيت والمتعلقين فلم تجد أثراً لـه إلى أن يئست من العثور عليه، واستشهد زوجهاﷺ ومضت خمس سنوات، إلى أن سقط الطاغية ودولته في ذلك اليوم التاريخي المشهود. وبعد ذلك بأيام، طرق بابنا شخص لا نعرفه وسأل أحدنا: هل لكم ضالة قد فقدتموها، فقيل له: نعم ولكن منذ زمن طويل، فسأل عن تفاصيل المفقود والمدة التي فقدناه فيها ومواصفات الخاتم. فلما انطبقت التفاصيل على ما عنده، قدم ما في يده وإذا به هو خاتم زواج ابنتي. وعندما سئل عن القصة؟ قال: أنا صاحب سيارة أجرة، وقد ركبت في سيارتي امرأة قبل خمس سنوات وأوصلتُها إلى هنا حيث نزلت في هذا البيت. وبعدما نزلَتْ وقع نظري على الخاتم في أسفل السيارة، وتوقعتُ أنه قد سقط من يدها. ولما سألت عن البيت قيل لي إنه بيت آل الصدر.. فهبت من الرجوع إليهم وآثرت السلامة. صحيح أنها أمانة يجب إرجاعها إلى أهلها. ولكني مضطر لإبقائها عندي، فإن الله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها.. وها قد تهيأ الظرف لأداء الأمانة. ولم أتوان في ذلك. وأرجعتها إليكم!!

في مثل تلك الظروف حُرمنا هناك من أكثر المعارف القدامى والأصدقاء والأحباء، فالبعض منهم كان قد هُجِّر أو هاجر، أو كان في السجون أو في المقابر، ومن تبقى منهم، فقد كانت التقية حجة تمنع بعضهم عنا، والخوف والحذر يدفعان آخرين للعزوف عن التعامل معنا.

صرت أرى بعض المجالس يتنفر أهلها من دخولي فيها، أو يرين الصمت والتوجس بمجرد دخولي في أماكن أخرى، مع أن بعضهم كانوا من المحبين، وفي ودِّهم مخلصين.. لكنّه الخوف من بطش الطاغية، حتى لجأت أحياناً لإرسال رسالة إلى من كنت أحب زيارتهم، أهيئهم واستأذنهم، أو حتى لأجس نبضهم أو لاكتشاف موقفهم من زيارتي لهم!

وأخصّ بالذكر هنا قصتي مع الأخت الفاضلة المجاهدة (أم هدى) التي وقفت معي وقفةً لن أنساها مدى العمر، فقد أولتني من رعايتها الشيء الكثير، ووقفت إلى جانبي في أيّام المرض، كما كانت تتردّد علينا رغم المخاطر المحدقة بنا، غير مبالية بما يمكن أن يجرّه عليها التودّد إلينا.

قصّتي مع هذه الأخت الفاضلة أنّني أرسلتُ إليها رسالة لذلك الغرض. فما تلقتها (أم هدى) حتى خفّت مهرولة إليّ، ودخلت علي متأثرة من جور الزمان. وهي تعتذر وتتأفف: (أهكذا يصنع بك الدهر يا أم جعفر، حتى تستأذني في إمكان زيارتي وأنا أختك أم هدى التي تعرفين)؟.

عشت بفضل الله تحت ظلال لطفه وفي جوار وليّه أمير المؤمنين. ما كنت محتاجة لمنّة من أحد ولا لفضل من جماعة. ولكن ألا يحق لي أن أعتب على من قضينا عمرنا معهم ولهم ومنهم وإليهم.. أن هجرونا وتوجسوا خيفة منّا، ولم يكلفوا أنفسهم حتى بمجرد السؤال عن أحوالنا؟؟

***

أيام القمطرير

في هذه ا لسنوات الأخيرة التي عشتها في النجف، كنت أعاين بالنظر والسماع أنّ دم الشهيد الصدر يُهراق في كل شبر من العراق، ففي كل ناحية نُصبت لـه مقصلة، تعدم باسمه كلَّ حر مجاهد، أو بريء صامت، فلا فرق، في عراق صدام. وباسم محاربة الصدر وملاحقة تلاميذ الصدر، بترت الأطراف، وصُلمت الآذان وجُدعت الأنوف، وفقئت الأعين، وهتِكت الأعراض، وسُحِلت أجساد حتى الحرائر المخدّرات في الشوارع على أعين الناس، ولا من مغيث. فأُقيمت في كل بيت لأهل العراق مجالس العزاء ولكن في خفاء، وإلا فالويل لأهل العزاء، و قوافل من الجنائز تترى وتتدفق، ولا يرى لتدفقها من غاية، ولكن النوح عليها جريمة لا تغتفر.

كل هذا وإمهال السماء إلى ذلك الحين وبعد ذلك الحين، لم يكن قد بلغ غايته والحكمة من ورائه. لم يكن مجرمو البعث قد شبعوا بعد من الولوغ في دمائنا ودماء الناس من حولنا.. في هذا الفترة برز دور السيد محمد الصدر الشهيد الثاني بجهاده وجهوده. فصعد نجمه وصار

لـه أتباعه ومريدوه وامتدّت قواعده الشعبية إلى كل أنحاء العراق، حتى صار النظام يرى فيه تهديداً حقيقياً..وليس لحزب الحقد والكراهية من صبر أو أناة عندما يرى من يجأر بالحق في وجهه. وهكذا امتدت يد الإجرام لتغتال صدر العراق الثاني مع ولديه المغدورين من أصهاري ـ السيدين المظلومين مصطفى ومؤمّل رحمهم الله جميعاً. ليبدأ العدّ التنازلي في عمر هذا ا لنظام المتوحش الذي آلى مجرمه الأكبر على نفسه أن يجتث شأفة الإنسان من العراق وألاّ يترك أرض الرافدين إلاّ بلاقع مجدبة خالية من أهلها.

وبذلك بدأت بعين الله دورة جديدة من بلاء آخر، لقد رأيت مأساتي تكررت مرتين في ابنتيَّ الأرملتين: (أم أحمد) وأختها (أم علي). كنت أرمقهما وأتحسّر: أهذه حكاية تروى لتكتب أم تُبكى وتبقى؟ إن تلك الأيام مرت كأنها أسياخ الشواء، تلهبني وتكويني، كأنها الطامات تنهال.. تدكني.

أهذه حياة تتقبل وأقدار تتحمل؟؟ غفرانك اللهم، رضا برضاك، أسألك قولك: (لولا أن ربطنا على قلبها).

لقد كانت تلك خواطر دفنتها بين دفتي قلبي. ولكني حين ر أيت البنتين أرملتين، وفلذات الأكباد من حولهما يتلوّون حزنا وألما، واجهت الموقف بتعال وعض على الجراح، لم يتغير عندي شيء، الحياة التي خُلقتُ لها، والقدر الذي أُعددت من أجل تحمله هو هو. «فالمسخ»[١] ما

(١) إشارة إلى تلك الرؤيا المرعبة التي رأتها السيدة أم جعفر في بدايات شبابها، كما مر تفصيله.

زال يطاردني، إنه ما يئس بعد وما انفك عن ملاحقي، لأني مازلت لم أسقط بعد فريسة تحت مخالب وحشيته وأهواله.

ولكن هيهات أبى الله لي ذلك، كما أباه للشهداء من أسلافي.. لقد رأيته في كابوس ليلة قديمة من سالف عمري يطاردني ويرعبني.. ولكنّي أُريت حينها أيضاً أنني انتصرت عليه وارتفعت.. هذه مطاردته لي ما زالت مستمرة لم ينقض أوانها.. صبراً أم جعفر.. لن أقع تحت أقدامه ولن أذل، عليَّ أن أواصل حتى ارتفع وانتصر.

بعد استشهاد السادة من آل الصدر، استبدّ بي الحزن والألم، فقرّرت أن أشغل نفسي بما يصرف طاقتي ويركز مشاعري وهَمّي لخدمة من كان شهداؤنا الذين خلفونا وراءهم يحرصون على خدمتهم والتضحية من أجلهم. كانت أسهل طريقة يمكن أن تتوفر بين يديَّ هي التطوع لخدمة بعض العوائل الفقيرة بما تسنّى لي قربة لوجه الله. فأمرت من خرج إلى السوق لشراء مجموعة من الأقمشة المختلفة، وما يلزم من الأدوات التي يمكن معها الاشتغال بخياطة وتجهيز ملابس وقماطات ولفائف وشالات وأربطة للمواليد حديثي الولادة، فصار البيت بمؤازرة بعض الأخوات المؤمنات ورشة عمل دائمة الاستنفار، يشتغل كل من فيه لذاك الغرض الرسالي الكبير، في بحر من الدموع والاحتساب. فكنّا كلما أنتجنا مجموعة من الملابس أو اللوازم الأخرى، أوصلناها إلى العوائل الفقيرة من ذوي المواليد الجدد.

لم يتوقف عند ذلك الحدُّ سيلُ المصائب المنهمر تجاهنا، فقبل

انقضاء الأربعين من بعد حادثة استشهاد الشهيد الصدر الثاني وولديه: السيد مصطفى والسيد مؤمل، رحمهم الله جميعاً، قرعتنا داهية جديدة. ذلك أن الرجل الشهم والمقدام الذي علّق مصيره بهذه الأسرة المنكوبة والمنبوذة من قبل نظام مهيمن حاقد، أعني صهرنا الشهيد الشيخ محمد النعماني‬ﷺ زوج ابنتي الثالثة، صار في عداد المتمردين الخطرين في قاموس الطاغية.. وإن وجوده لا يحقق ما كانوا يطمحون إليه من تصفية وجود هذا البيت تماماً عن وجه الأرض، فما دام هناك رجال وهناك أطفال، فهناك امتداد، وهناك تجذر وتواصل مع الحياة ومع المجتمع.

فجنّد الشيطان أبالسته واستنفرهم من جديد في مسلسل المواجهة المستمرة مع ذلك المسخ الطاغي.

وهكذا توجّهت أنظارهم إلى رجلنا المظلوم الشيخ النعماني. فصار رضوان الله عليه يتلقّى تهديدات متتالية بالانتقام، وصريحة بأن الدور قد وصل إليه من بعد من مضوا، وذلك من خلال رسائل ورقية تدسّ من تحت الباب، أو من خلال الهاتف. فحمل المرحوم، الشهيد النعماني تلك التهديدات على محمل الجد، لمعرفته أن أولئك قوم لا يعيش لَديغُهم. وأن شياطين البعث لا يعرفون للصدق قيمة ولم يصدقوا قط مع أحد إلاّ في مثل هذا التهديد والإرهاب والإجرام، فهم في ذلك أصدق الناس. فخطط للهروب من الجحيم الصدّامي في خفاء، ورتّب للفرار إلى شمال العراق، بالاتفاق مع بعض الأكراد. إلاّ أن الدليل الكردي ذاك ظهر أنه كان من المرتبطين بأجهزة النظام، أو أنه بنفسه باع شهيدنا لهم

بثمن أعلى مما استلمه من نفس الشهيد. مما جعلهم يرصدونه في طريق سفره، واعتقل في إحدى المناطق، وكانت زوجه في صحبته، وسرعان ما وصلنا خبر إعدامه رضوان الله عليه. وأما زوجه المبتلاة فقد حلّت عليها الطّامة الثالثة في حياتها، من بعد استشهاد أبيها والنكبات التي لحقتنا بعده ومن بعد طلاقها من زواجها السابق.

كانت المرأة ـ عند اعتقالها مع زوجها ـ تحمل معها كما هي عادتها، العقاقير والأقراص والأدوية ا لخاصة بمعالجتها، مما كانت تعانيه، على أثر الصدمات النفسية المتتالية التي تلقتها وزلزلت كيانها وقد بقيت عندهم معتقلة فترة وجيزة في زنزانة مع زوجها حتى أعدم. وفي فترة اعتقالها حققوا معها وسألوها بالدقة عن كل تفاصيل حياتنا داخل البيت، وحتى عن ماهية ومقدار ما نأكل ونشرب ومتى ننام وأين وكيف، إلى غير ذلك من التفاصيل المملة. ثم أطلقت بعيد إعدامه ﷺ.

رجعت إلينا تجر أذيال مصيبتها، ولكن مع إرث متراكم من النكبات، أعظم مما كانت تنوء به ويوقر ظهرها.

بذلك غدا بيتي مجمعاً للأرامل والأطفال اليتامى، وعنوانا للمصائب، وحمدُ الله وشكره لا ينزل عن ألسنتنا. في صباح أو عشية.

مع صبيحة كل يوم كنت أقوم بمزاولة برنامجي المعتاد، من شغل نفسي وجميع أفراد العائلة بما ينفعنا لدنيانا وأخرانا. وأنا في ذلك كله، لا يفارقني الاستعراض الدائم في ذهني لشريط الأحداث التي مرت على أسلافنا في قافلة أرامل وسبايا الحسين السبط الشهيد عليه وعليهم

السّلام، منذ يوم عاشوراء وإلى أن عادوا إلى مدينة سيِّد المرسلينﷺ، وذلك كان هو مصدر قوّتي وتجلّدي وعزائي الوحيد.

ولقد وجدت بعض التشابه في نوعية الظروف والأحداث والأسباب بين طفـّ الحسينعليه السلام وما جرى من بعده، وبين ما تلقيناه من بعد شهادة سيدنا الشهيد. ولا شك أن حجم أهوال الطف وقدسية شخوص أهل البيت لا تقارن بما عداها. ولكن وجدت أن بعضاً من ملامح مأساة الطف تتكرر معنا في مأساتنا أيضاً.. من ذلك أن أكثر من شاركوا في جريمة قتل الحسينعليه السلام، ثم سلبه وسلب عياله ونسائه وأطفاله.. كانوا يرتكبون تلك الفظائع وهم في حالة بكاء!!

وهذا أيضاً حصل مع كثير من ذريته ومنهم السيد الشهيد، ثم معنا من بعده في كثير من الأحيان، أي أنهم كانوا يعرفون من نحن، وعلى يقين من مظلوميتنا، وعالمين بشناعة جرائمهم التي يرتكبونها في حقنا وفي حق غيرنا، ومع ذلك يقدمون في كل مرة على جريمتهم وهم يُظهرون حبّهم وتعاطفهم وتأثرهم لمصيبتنا التي هم سببها. بل قد ينخرط بعضهم في بكاء حقيقي وهو يؤدي مهمته في إيذائنا وملاحقتنا.

وهذا من أعجب التناقضات التي قد تروى عن مسلك إنسانٍ أو جماعة من الناس، وكشاهد على ذلك السلوك الغريب: أن العلوية ابنتي الرابعة أم علي قد خرجت يوماً من بيت زوجها الشهيد مصطحبة يتيميها معها: طفلة على كتفها وتجر طفلها الآخر بيدها. وكان ذلك من بعد حادثة استشهاد زوجها مع أبيه وأخيه. وعند خروجها كانت سيارة تابعة

لجهاز الأمن متوقفة أمام الدار للمراقبة، كما هي عادتهم الدائمة وبشكل علني وصريح. فعندما خرجت كان المكلف بالمراقبة جالساً في داخلها. ثم حانت من أم علي التفاتة نحو السيارة. ففوجئت عندما رأت الرقيب قد وضع كفيه على وجهه، وكان جسمه يهتز في خضة واضحة، لقد كان يبكي وينتحب بشكل واضح وعجيب!!.

وأما الأطفال ـ من أحفادي وحفيداتي ـ فعندما كانوا يذهبون إلى المدارس، فلقد كانوا يقابَلون أحيانا من قبل بعض مسؤولي تلك الدوائر، المعروفين بانتمائهم الحزبي والمخابراتي، برقة وحنان مميزين وما كانوا ينادون أطفالنا ـ تمييزا لهم عن غيرهم ـ إلاّ بكلمة: سيدي.. مولاي. ولربما لوحظ من أحدهم أحيانا إدامة النظر خلسة لأحد الأطفال، في تأثر وحيرة بادية.

* * *

امهلهم رويداً

وامتدت الأيام، وتعددت وجوه الإمهال التي كانت تزيد الطاغية أملاً وإملاءً وغروراً بتقلُّبه في البلاد، فتربع على العرش وحيداً بلا منازع وخرج في كل مرة من الأزمات المفتعلة، التي كان يورِّط فيها البلاد والشعب والأمّة بكاملها، كان يخرج منها دائما وهو سالم معافى وحده وليذهب الجميع إلى الجحيم. دفع في سبيل نزواته وتحقيق مطامحه المريضة ثمنا بخساً ـ في نظره ـ لم يعبأ به قط: تقطيع أوصال البلاد، وإغراقها في أزمات من الفقر والقحط والحصار لا تنتهي، والويل للجميع، لا يهم!. هذا إضافة إلى ما كان يزجّ به من مئات الألوف من الضحايا، وقوداً لطاحونة حروبه الهوجاء المصطنعة، وقراراته الرعناء الطائشة والجائرة.

وكذلك سَوْق الآلاف والآلاف إلى ساحات الإعدام الجماعي المجاني بلا حدود.. لكي لا تبقى بقعة من العراق ليس فيها مقبرة جماعية.. فقط ليزداد هو علواً وتكبراً. وعجباً من عظيم حلم الله،ذلك الحلم اللامحدود، الذي فتَّ أكبادَ المظلومين الحرى. والأمر لله من قبل ومن بعد.

في ذلك كلّه كنت أرقب حكمة الله، لم تبلغ غايتها، منتظرة ليوم العدل الإلهي.. لم يئن أوانه، و«المسخ» ما زال يتقلّب بمتاعه القليل في البلاد غروراً وعسفاً. حتى بلغ به الأمر أن جعل فرضا على جميع أركان دولته، ورغما عن جميع قطاعات الشعب وفئاته، أن يحتفلوا سنوياً بيوم مولده الشؤم.

صحيح أن يوم العهر الأسود ذاك هو يوم واحد في التقويم الرسمي، ولكنه هو «يوم الوطن»، و«يوم الأمة» ويوم العز ويوم النصر ويوم التاريخ الحاضر والمستقبل، فلابد من أن توظّف جميع طاقات الدولة والأمّة شهوراً متواصلة، من أجل الإعداد لذاك اليوم. وعلى الجميع أن يحبس أنفاسه انتظاراً لحلول يوم التاريخ ذاك!! أين منه أعياد الجيش والحزب والتحرير والثورة وأمّ المعارك وأم الويلات؟ كلها باتت مسميات بالية خلِقة.. وكل الحول والطول والمجد لهذا الصنم. نشرت صوره وحده لا شريك لـه، في كل زاوية، وعلى كل جدار، في الدوائر والمدارس والمستشفيات والمطاعم والمحالّ ءالدور والمساجد والمشاهد المشرفة. ونصبت تماثيله وأصنامه في الميادين والساحات، وفي مداخل المدن. أراد المسخ ألاّ ينسى ذكره أحد. فلا تقع عين إلاّ على رسمه، ولا يلهج لسان إلاّ بإسمه. كل ذلك يجري أمامي وأنا أنظر وأرى وكأن لا نهاية لهذا النفق المظلم.

لقد ملأ جميع الآفاق والنواحي والجهات بآثام وآثار وعلامات وجوده البغيض، فيما عدا جهة واحدة بحمد الله،هي جهة الفضاء، لم

يقدر المسخ أن يلوث الفضاء بحروف اسمه القبيح. هكذا لم يبق لي إلا علياء السماء أُقلب وجهي فيها، وأُفسح لروحي العنان تهيم في آفاقها، لعلّ فرجاً أو قبلة سلام، أوجِّه وجهي تجاهها، ليس فيها للمسخ رسم ولا اسم.

* * *

يوم العراق.. يوم الصدر

ودار الزمان دورته.. وبلغت الحكمة الإلهية من الإمهال أقصاها، واقترب الوعد الحق، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا.. تسارعت الأحداث، ونزل أمر الله. نسي الطاغية أن الأيام بيد الله يداولها بين الناس.فقد أدبر سعده وانقضت أيامه واكتمل بناء «نعشه»، الذي كان هو يدق آخر مساميره، ينتزعها بيده من أعواد «عرشه»، وبنفس المطرقة التي سُلّمت إليه من قبل أسياده، يوم نُصّب بالقهر على رقاب العباد، فأولئك الأسياد، ما عادوا يتحملون خادماً متمرداً مثله. لقد دعموه وأسندوه ودافعوا عنه، وأمدّوه بكل مقومات السلطان من مال وسلاح وكراع وإعلام وطبول وزمور، إلى أن انتفخت أوداجه، ونفخ الشيطان في مراعفه، وصار يطلب لنفسه ما هو أكبر من حجمه، فلبس ثوبا أطول منه، يتبختر فيه ويسحب ذيله، حتى صدّق الأحمق نفسه، وهناك قصم الله ظهره، وسلّط عليه من كان يستخدمه سيفاً على الرقاب. وسقط الصنم في ساحة الفردوس في قلب بغداد، في يوم مجيد ومشهود.

ألا إن يوم المظلوم على الظالم أشدُّ من يوم الظالم على المظلوم. شاء الله العدل الذي لا يجور أن يكون ذلك اليوم المؤرّخ بـ التاسع من

نيسان، هو نفس التأريخ الذي عرجت فيه الروح الكريمة لمحمد باقر الصدر!

أهو الانتقام الإلهي إذن؟ هذا ما يبدو لنا، ولو بعد مرور عشرين سنة ونيف. رحمك الله يا أبا جعفر، لكأنك كنت حاضراً معنا تشاهد وترى هذا اليوم الذي هو لك ولمن وراءك. فلقد قلتها منذ ذلك اليوم الذي كان عليك: (إنني راضٍ بالقتل، إن كان سيثمر ولو بعد عشرين سنة)!

وسجد الجميع لله شكراً، واشتفت بعض جراح الروح. صحيح أنني كنت في ذلك اليوم المجيد طريحة الفراش في إحدى مستشفيات النجف الأشرف بعد خضوعي لعمليّة جراحيّة تحت أكوام القذائف والحمم الطائشة والمتبادلة من كل حدب وصوب.. ولم أملأ عيني ـ كما استمتع الآخرون ـ برؤية ذلك المنظر الذي يبلسم الجراح، إذ الصنم يسقط ويداس تحت أقدام جموع من الحفاة وجياع الشعب الموتورين، ولكن يكفيني من ذلك أنني عندما دخلت المستشفى، كان هناك نسخة إسمنتية مجسمة عن صنم المسخ منصوبة في مدخل المستشفى، وصوره الشوهاء كانت تلطِّخ كلَّ جدران المبنى..

ولكنّي ما خرجت منها إلاّ وقد مزِّقت كل القذارات من رسوم المسخ وحُطِّم "هُبل" الجاثم في صدر المبنى ورُفعت رايات الفرح ونشوة الفَرَج على وقع الزغاريد وأغاني النصر والخلاص.

قدّر الله أن أخرج راجية للعافية من المستشفى، مقترناً ذلك مع سقوط الطاغية، بعد أن استؤصل من بدني جزء من «الصدر»، سكَنَتْه عذابات ربع قرنٍ من السنين. فمنّ الله باستئصال آثار تلك الحقبة السوداء

من العراق، ومن بدني وروحي على السواء.

بعد عودي إلى النجف، قلت: هذا المسخ وقد انتهى، وارتفع البلاء إن شاء الله. ولكن ليعذرني جدّي أمير المؤمنين.. فلم تعد لي طاقة على تحمّل المزيد مما قد تحفل به الأيام. فقررت أن آخذ لنفسي هدنة، لعلّي أجد لهذه الروح المكدودة مرسى أمانٍ، تطمئن إليه بعد ذلك التِّطواف العاصف، ثلاثة عقود مضطربة من الزمان.. آن لي أن أستريح و أُريح.. فحزمت أمتعتي، وهيأت نفسي للعود إلى مسقط رأسي «قم المقدسة»، علّي أتنسّم عبق الأهل والعشيرة والتاريخ.

قبل الرحيل عرّجت على رمس الشهيد في موقعه الأخير القائم، فشممت ثراه ولثمت ترابه وجدّدت العهد به، ثمّ أخذت شيئاً من ترابه الطاهر، فهو عندي ذخر للأيام، وليُمزَج بتراب لحدي متى ما حلّ الأجل، واستودعت جدّي أمير المؤمنينعليه السلام ديني ونفسي، ميممة وجهي صوب الشرق.

الملحقات

ملحق [١]
قصة نقل جثمان الشهيد

المعروف أنّ السيد الشهيد قد دفن سراً في خفاء، في ليلة خفية وفي مكان خفي سعيا لإطفاء إشعاع شمس الصدر بعد إعدامه، ولم يعلموا أن الله الغالب على أمره تعهّد وأبى إلاّ أن يتم نوره ولو كرهوا، وقد سبق في حكمه للشهداء أنّهم الباقون، أحياء عند ربهم يرزقون. ولقد قال وليه عليه السلام، ناطقاً عنه صادقاً: (العلماء باقون ما بقي الدهر).

وإن في قصة ما جرى لجثمان السيد الشهيد خير مصداق حي لتلك الوعود الصادقة. ذلك أن الله سبحانه هيأ من المؤمنين من أظهر على يديه وبسببه كرامة لذلك العالم الشهيد الكبير.

فأظهر الله جسده حيّاً طرياً. من بعد هجوع طال أربع عشرة سنة، مغموراً في أحشاء الأرض تحت أكوام التراب.علامة أن لم ينقطع عنه رزقه بكرة ولا عشيّاً.

والقصة ننقلها هنا مختصرة عن لسان ذلك الرجل المؤمن الوفي والمجاهد «السيد كامل العميدي»، الذي سعى بنفسه لمعرفة مكان مدفن

الشهيد لحفظ أثره وللقيام بأداء حقه ولو مستقبلاً متى ما تهيأت الظروف.

لم يكن السيد كامل يقصد في بداية الأمر إلا مجرد معرفة المكان لكي لا تمضي السنون وينمحي أثره بزوال شخوص العارفين القلة بذلك المكان. فلم يكن في نيته بدايةً أن ينقل الجثمان لولا الأحداث المتلاحقة.

والسّيد كامل هو أحد المحبين المتفانين في شخصية السيد الشهيد، وهو أيضاً من الملتصقين بكبار العلماء في النجف الأشرف ويعمل في عدة مكاتب لمراجع التقليد و الفتيا. وقد انضم للعمل إلى جانب مجموعة الدفّانين العاملين رسميا في مقابر وادي السلام في النجف الأشرف، وذلك تمهيداً للوصول إلى هدفه المذكور. فبقي هناك فترة يحاول التغلغل والولوج إلى عالم أسرار وخبايا الدفانين، وعمليات الدفن التي تجري وطبيعة إجراءات الدفن، وعلاقة الدولة بذلك وغيرها من أمور.

وأثمرت محاولاته بعد تلك الفترة في أن يتعرف على الرجل الذي كان معتمداً عند رجال السلطة المحلية لدفن الجثامين المحوّلة من قبل أجهزة أمن الحزب. وقد عرف أنه دفّان رسمي هناك واسمه عباس بلاش، وكان يمارس ذلك سراً، بعيدا عن أعين الناس بحسب تأكيد السلطة. فتقرّب إليه ووثّق علاقته به وكسب وده واستحكمت الصداقة بينهما. وبعد طول صحبة بينهما عرف السيد كامل أنه هو بنفسه حقاً من باشر دفن السيد الشهيد الصدر. وعرف أين دفنه وحدد لـه موضع القبر.

وعندها قام السيد كامل بزيارة الشهيد في رمسه الذي عيَّن مكانه وجهته. وهناك حفر حفرة صغيرة في أعلى القبر ودس فيها لِبنة (بلوك) أسمنتية حمراء. كعلامة على القبر لو تغيرت المعالم الخارجية، ثم أهال التراب وسوى القبر وأعاده كما كان.

بعد انتفاضة الشعب العراقي «الشعبانية» في ١٩٩١ م، وبعد تدخل القوات الأجنبية دعماً لصالح نظام صدام في ذلك الحين مما ساعده ومكّنه من سحق الإنتفاضة، بعد ذلك بفترة بدأ النظام ينفذ خطة مدمِّرة بتطبيق سياسة الأرض المحروقة في المناطق الجنوبية والوسطى ثم القيام بإحداث تغييرات ديموغرافية وجغرافية واسعة في عموم العراق، للإخلال بميزان نقاط ومواضع القوة لدى الشعب. وأما في عاصمة الانتفاضة ـ النجف الأشرف، فإن أكثر ما آذى النظام وأقلقه هو أن الثوار قد استفادوا من مقابر وادي السلام بأبنيتها وأزقتها في التحصُّن والتمترس. ذلك أنها كانت تشتمل على كثير من السراديب والأقبية والممرات المتشعبة والمتاهات المعقدة، مما يتيح لأهالي المنطقة العارفين بها قدرة كبيرة على المناورة والكر والفر، بينما قوات النظام كانت محرومةً من ذلك لأنها تتكون عادة من أفراد غرباء عن المنطقة وعن الشعب الجائع والمظلوم.

ولهذا فإن النظام الجائر بعد ما استتب لـه الأمر بمساعدة الاستكبار، عمد إلى تخريب الطبيعة الجغرافية الأصلية لوادي السلام، وقام بجرف مساحات واسعة من تلك المدافن، ودفن كثيراً من الأقبية، وأحدث

شبكة طرق وشوارع داخلية واسعة في قلب وأطراف وادي السلام، مما ضيّع كثيراً من معالم تلك المنطقة بما فيها من قبور وأضرحة للعلماء والصالحين. ومن ذلك أن قبر الشهيد الصدر رضوان الله عليه صار في وسط طريق واسع نسبيا في داخل تلك المنطقة.

هنا رأى السيد كامل أن القبر الذي صرف جزءاً من عمره للتعرف على موقعه وحفظ أثره، وكان يرجو أن تسنح الفرصة للعناية به وإشهاره للمؤمنين ولو بعد حين، صار الآن مهدداً بالضياع تماماً تهديداً حقيقياً. ففكر في خيار نقل الجثمان الطاهر إلى مكان آخر من دون علم سلطة البغي الحاقدة والتي حرصت على إبقاء مكان دفن الشهيد سرياً، وها هي الآن نفذت إجراء يكون معه ظهور القبر والتعرف عليه مستقبلاً في نظرها أمراً مستحيلاً. ولكن: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1] كما قال سبحانه.

فتحرك السيد كامل لتنفيذ مشروعه الجريء. وقام بأول خطوة في ذلك الإتجاه وهي استفتاء عدد من كبار العلماء ومراجع الدين الذين يعرفونه ويثقون فيه بحكم علاقته بهم وخدمته القديمة لهم. فأفتى له بجواز ذلك بل استحبابه، عدد منهم كالمرجع آية الله السيد محمد سعيد الحكيم وآية الله الشيخ إسحاق الفياض والسيد البهشتي‌رحمه الله وغيرهم، باعتبار أن ذلك حفظ لهيبة علماء الدين وتعظيم للعلم وللحق وأهله.

---

(١) الأنفال: ٣٠.

هكذا أخذ شُحنة معنوية وشرعية للقيام بذلك العمل وصار يعدُّ لـه العدة. فاتفق مع مجموعة من المؤمنين وحددوا يوماً للتنفيذ. ولم يكن بحمد الله في طريقهم أي عقبة. فحتى عيون الأمن الصدامي لم يكن لها لترصد تلك الحركة متى ما تمت. لأنّ الله سبحانه وهب لهذه المجموعة المؤمنة غطاءً أمنياً تلقائياً... فقد سهل الأمر عندما هبَّ كثير من الناس لنقل رفات موتاهم من تلك القبور المجرّفة إلى أماكن أخرى استحدثت لهم. وصار من المألوف أن تجد بين يوم وآخر جماعة يحفرون في هذه البقعة أو تلك لإخراج رمة أو مجموعة عظام لنقلها إلى مكان آخر.

تهيأت الظروف وسهل الله كل عسير وجهّز السيد كامل كل ما يحتاج إليه لنقل الجثمان الطاهر. وكان قد أخبر ثلة من المؤمنين: تتكون من خمسة أو ستة أشخاص من الذين يحفظون سره، وكان دليلهم إلى موقع القبر ـ رغم تغيّر المعالم الأولى، نفس ذلك الدفان الذي دفنه أولاً: عباس بلاش الخبير بجميع تضاريس المنطقة ومعالمها وجهاتها. فإن الأقدار سخّرت عباسا هذا لإظهار ذلك الجسد الطاهر والقبر المندرس مع أنه كان ممن شارك ولو من غير إرادة في الإخفاء والتكتيم ومحاولة دفن الحقيقة إلى الأبد، وذلك أن الطاغوت إذا تكبر وتجبر لا يحدّ ظلمه وتجبره أحد، فإن أزلام النظام امتدت أيديهم المجرمة التي تطاولت على الجميع بلا استثناء سجنا وقهراً وتقتيلاً وتشريداً، إلى أخي عباس نفسه وكان دفاناً أيضاً فأعدم فيمن أعدم، إن بتهمة وإن بدونها. فتحول عباس عن اللاأبالية التي كان سادراً فيها إلى رجل يكره النظام ورجاله وصار

يهمل أوامرهم ويستهتر بهم وترك التعاون معهم. بل وجد فرصة لنوع من الانتقام لدم أخيه بالمشاركة في هذا العمل الصالح.

في ذلك اليوم من عام ١٩٩٤، توجهت تلك الثلة إلى موقع لحد الشهيد في غفلة عن أعين الحاقدين وفي أجواء عادية تماماً. وعندما وصلوا، تحلقوا حول القبر الواقع في وسط الطريق المستحدث. وشرعوا في الحفر. وأول ما ظهر لهم تلك اللبنة الحمراء التي كان السيد كامل قد دفنها منذ سنوات. مما اطمأن الجميع معه إلى صوابيّة تحديدهم للموقع.

كان عباس بلاش الدفّان قد أخبر السيد كامل سابقاً أنه دفن الشهيد في قبر يشتمل على لحِدين متقابلين في أسفله كما هي عليه كثير من القبور الأخرى هناك. فدفن الشهيد في أحدهما، وفي اليوم الآخر جاء لـه رجال أمن البعث بجنازة أخرى وأمروه بأن يدفنها في نفس قبر الشهيد، وكان الجثمان الآخر ملفوفاً بغطاء بلاستيكي أصفر، فدفنه عباس في اللحد المقابل من نفس القبر.

ويذكر السيد كامل هنا: أننا عندما توغلنا في الحفر، وصلنا بالفعل الى لحدين متقابلين وفي أحدهما سجي جثمان ملفوف بغطاء أصفر ويظهر من الغطاء أنه ما زال مكتنزاً بالجسم في داخله، ولم نحركه بالطبع. وعندما التفتنا إلى جثمان الشهيد صرت أنا وبعض الموجودين نرتجف ونحن نكبر ونهلل وجاشت مشاعرنا بالحزن والإجلال والتقديس، ولقلوبنا وجيف يكاد ُيسمع لشدة خفقانها. كان الجثمان ملفوفاً بكفن لم يتغير نسيجه تقريباً وإن تغير لونه بسبب انطماره داخل

التراب مدة ١٤ سنة ولكن كان من الواضح أن الجسد الطاهر في داخله لم يطرأ عليه أيّ تغيير، وقد تجلّت لنا جميع تفاصيل البدن من الرأس والأطراف والقدمين كلها كانت ناطقة من خلف الكفن.

عندما عزمت على سحب الجثمان أخذتني رعدة ورهبة في داخلي، فلم استطع التحمل، وخرجت سريعاً إلى الأعلى، فسألني الآخرون: ما بك؟ قلت: أردت فقط أن آخذ نفسا جديداً من الهواء. ثم سميت بسم الله ونزلت القبر متوكلا على الله، وقد نزل معي شخص من المجموعة يساعدني. ثم مددت يدي إلى الجثمان الذي كان مستقبلاً للقبلة وظهره إلينا، وعندما دققت النظر، وجدت أن الكفن من جهة الرأس مصطبغا ببقع كثيرة من الدماء الجافة، فسحبت الجثمان برفق إلى جهتنا وانقلب الجسم الذي كان ممدداً على جانبه الأيمن باتجاه القبلة، وصار كله كقالب واحد، وبكل بساطة في حجرنا أنا وزميلي. وإذا به يتثنى غضا طرياً كأنهُ وضع في محله قبل سويعة. ذلك على الرغم من أننا وجدنا الجسم مغموراً بالتراب بشكل مباشر، دون أن يغطوا أعلى اللحد من فوق الجسد بقطع إسمنتية صلبة كما يفعل الدفانون في العادة. وعندما سألنا عباساً، الذي كان حاضرا معنا عن سبب إهالة التراب مباشرة على الجسد؟ أجاب: إن ذلك كان بسبب استعجالهم لإنهاء الأمر سريعاً بأي صورة!

ولما نفضت التراب والغبار، عن الرأس بان لي ذلك الوجه النيِّر الشاحب في الوقت نفسه، وهالنا ما رأينا!.

لقد رأينا اللحية الشريفة قد أحرقت ولم يبق إلاّ شعيرات متفاوتة قصراً وطولاً، موزعة على جانبي الوجه وأسفل الذقن، ووجدنا شيئاً آخر انصدعت لـه قلوبنا، كان ذلك أثر رصاصة لئيمة اخترقت جبهته الكريمة فوق إحدى العينين، فأحدثت ثقبا غائراً وصدعا من حولـه واضحا في الجمجمة، وقد حشي الثقب بالقطن الذي تحول قطعا من الدم المتخثر. ولقد كان البدن هزيلاً شاحباً، لأنهﷺ كذلك كان قد دفن قبل أربعة عشر عاماً[1]، ولكن تفاصيل البدن أبداً لم يتغير منها شيء. فأخذت القطن المدمى وحفظته في كيس ملائم. ورفعت الكفن القديم لأغيّره بكفن جديد، فبان لي بطن الشهيد وإذا به قد طُعن عدة طعنات. والدم متجمد حولها وفوقها. فاكتفينا بتغيير الكفن، وقد ارتفع منّا النشيج والاسترجاع والحوقلة مع التكبير والتهليل. ثم أخرجنا الجثمان الذي كان يتعطف ويتثنى، يطاوعنا في كل اتجاه نوجهه. ووضعناه في تابوت أحضرناه معنا ورفعناه فوق السيارة التي هيأناها لذلك الغرض. وبعد ذلك توجهنا به إلى حرم أمير المؤمنين‌عليه السلام. فأدخلنا الجثمان الكريم وزرنا به حضرة الإمام‌عليه السلام، ومن هناك تحركنا إلى المدفن الجديد الذي كنا قد أعددناه سلفاً في منطقة خالية حجزنا منها قطعة كبيرة لمرقد الشهيد في وادي السلام.

---

(١) تقدم في فصل مضى أن الشهيد في أواخر أيام الحجز، كان قد أصيب بالهزال الشديد والضعف، وتغيّر جسمه. حتى لم يعد يقوَ على المشي أو صعود الدرج دون أن يرفده أحد. وهكذا أُخذ واستشهد ودفن.

ومن الجدير بالذكر هنا أنه على الرغم من أن النّعش الذي هيّأناه لرفع جثمان الشهيد لم يكن ثقيلاً. والجسد بنفسه كان نحيفا جداً وهزيلا، إلاّ أن العجيب أننا فوجئنا بثقل الجنازة ثقلا غريبا أوْقر ظهورنا عند رفعنا إيّاه دخولاً إلى حضرة أمير المؤمنين وخروجاً منها. حتى لقد كان بعضنا ـ أثناء الحمل ـ يعض على شفتيه أو يصر على أسنانه لشحذ قواه وزيادة طاقة التحمل عنده.. مع أنه من أشدّاء الرجال!.

عند القبر الجديد أنزلنا الجثمان ودفنّاه هناك. ثم وضعنا علامة تؤكّد وجود القبر الذي لم يكن بجانبه غيره. ثم كتبت اسم والدي على لوحة نصبتها بجانب القبر إمعاناً في التحرّز والتمويه.

منذ ذلك اليوم، صرت والمجموعة التي تشرّفت معي بذلك العمل الصالح، نزور القبر في تكتم، ولم نعلن عن نقل جثمان الشهيد إلاّ للأشخاص الذين نثق أنهم يحرصون كما نحن على سرية الموضوع ومنهم بعض كبار العلماء الذين صاروا يزورون القبر أيضاً بين فينة وأخرى.

بقي الأمر على ذلك طيّ الكتمان فترة... كنا نزور ذلك الرمس الشريف كلّما أحببنا دون أي قلق. ولكن بعد مرور ثلاث سنوات تقريبا، جئت يوماً لزيارة الشهيد. وهناك تفاجأت بوجود رجل شرطة (ضابط) واقفاً بالقرب من القبر الذي لا يجاوره قبر آخر، وكان يتمتم بشفتيه على ما يظهر. فاقتربت منه وعرّفته بنفسي قائلاً إنّ هذا قبر والدي. من حضرتكم؟ قال: أنا وقفت هنا لقراءة الفاتحة المباركة للمرحوم خالي

المدفون قريباً من هنا. ثم أعطاني ظهره وابتعد وهو في حالة ارتباك ظاهر. عندئذ وقعت في اضطراب شديد. فهذا ضابط شرطة يقف على هذا القبر الوحيد في هذه البقعة.. فمن يدري بمن وصل إلى علمه من وراء هذا الشخص خبر النقل وأسماء من قاموا به. إن السرّ إذا تعدى اثنين فقد شاع وذاع.. ولعل هذا سيعرض المسألة برمتها للخطر، وتضيع كل تلك الجهود والسنوات الطويلة من الإعداد لما تم إنجازه. وقد يجرفون القبر الجديد بما فيه الجثمان المبارك ليخفوا أثره إلى الأبد.. هذه الخواطر باتت تقض مضجعي، فعزمت على نقل الجثمان مرة أخرى إلى نقطة من تلك البقعة نفسها غير بعيدة عن الأولى، ثم تخريب المدفن الذي قدّرْتُ أنه اكتشف، وذلك لاحتمال نبشهم القبر ذاك وحينها إذا لم يجدوا شيئاً فسيقع البأس في قلوبهم.

وباشرت التحرك من جديد، فاتفقت أيضاً مع مجموعة أخرى، لأنني خفت أن يكون واحد من المجموعة السابقة وتحديداً: (الدفّان الأول عباس) هو الذي سرب الخبر. وإن كان تبين فيما بعد أن لم يحدث شيء من ذلك.

وحددنا يوماً لتنفيذ العملية. وفي الموعد المضروب أتينا سراً وجهزنا قبراً قريباً من السابق (أي المدفن الثاني) ولكنا حرصنا على جعله أعمق من سابقه، ومن جميع القبور المعتادة عموما، إمعاناً في إخفاء الجثمان. ثم فتحنا القبر (الثاني) لرفع الجثمان الطاهر. فلما حفرنا وتعمقنا بان لنا اللحد الذي يضم جسم الشهيد، رفعنا القوالب الإسمنتية

من فوقه، وظهر لنا الجسم بكامله، وهناك شعرنا كأنَّ غمامة غشّتنا من داخل القبر فيها رَوح وشيء من برودة، مما روّعنا وجعلنا نرتدّ إلى الوراء قليلا. ثم إننا عندما رفعنا الجسم الكريم، وجدنا بقعة ذات عمق قليل من الماء تحت موضع الرأس.. فتعجبنا لأن المنطقة هناك جافة تماماً. حتى أنه إذا أراد شخص أن يحفر بئراً هناك فعليه أن يتعمق في الحفر إلى عشرين متراً وأكثر إلى أن يجد الماء. وقد رأينا فوق تلك البقعة من الماء والرأس المصاب أجساماً صغيرة تطير وتحوم حول الرأس أشبه بالفراش اللطيف.

حين وضعنا الجسد المبارك على أذرعنا، حانت مني التفاتة إلى يده الكريمة أو هي ظهرت لي من الكفن فرأيت خاتمه (محبس فضة لـه حَجَر من العقيق اليماني الأحمر)، وهو الذي كان يختم به أجوبة الاستفتاءات أو مراسلاته ومكاتباته غالباً. وكان الخاتم في إصبع يده اليمنى. وقد اصطبغ بالدم الزكي، وعَلِق به التراب. فأمست فضته وكأنها قد تلبّد عليها الرماد. فقلت: وهذه كرامة أخرى تثبت للآخرين أن الشهيد حيٌّ لا يبلى حتى جسده، وإلاّ لتفككت العظام وانحل من الكف ذلك الخاتم. فسحبت الخاتم من إصبعه. وقد سللته منه بسهولة، رغم كونه ملتصقاً باللحم و بنى عليه التراب المتصلب بالدّم. وقد احتفظت بهذا الخاتم المبارك، وها هو معروض بين أيديكم وأيدي الأجيال بدمه وترابه.. شهادةً للتاريخ على عظمة الشهيد وعلى ما حلّ به، وليبقى يصبُّ اللعنات ما دام الدهر على رؤوس الطغاة والجلادين.

ثم رفعنا الجثمان الكريم ونقلناه إلى مرمسه ما قبل الأخير، حيث قدّر للجثمان في شهر رمضان المبارك/١٤٢٧هـ أن ينقل للمرّة الأخيرة إلى مدخل النجف من جهة كربلاء، حيث سيشيّد عليه صرح علمي ثقافي ضخم.

والحمد لله ربّ العالمين

ملحق [٢]

وثائق وصور

وقد وصلنا لبنان في يوم الاربعاء الخامس من شهر ذي الحجة الحرام
فاستقبلنا لبنان واهله احسن استقبال وابدعه وقد فاجأنا بيت السيد ابي
العم فلم نخبرهم بيوم ورودنا وان اخبرناهم باسبوع السفر وعندما طرقنا الباب انا وامي
فتحت لنا الباب فتاة شابة قريبة الى النفس حبيبة
الى الروح فسألناها هل انت الست فاطمة فقالت نعم انا فاطمة فالحمد لله الذي حقق
مراد امانينا فيما كنا نرغب ونريد والشكر لله

آمنة الصدر

تسلمت برقيتكم العزيزة تبشر عن وصول الاهل والاطفال
ولئن كنت أغبطكم كل شيء هناك لانه اقرب من الى فاطمة
والاطفال فانني أغبطهم لانهم سعداء دون بالاستظلال
بظلالكم الوارفة وعاشوا في هذه الظلال الكريمة لذات سعيدة
مع الاحبة والاهلين

ما كان اروعك يا ولدي في رسالتك وتصويرك ذلك
اللقاء العفوي الغريب مع ام جعفر وكذا سعدت ما وفرت زيارة
العلوية لابنائك واعزائك من سلوة وعزاء وراحة نفسية والحمد لله
رب العالمين

فهرس المحتويات

الإهداء ٥
كلمات للقارئ ١٠

عتبات.. ١٧
باسمه هو الحبيب ١٩
ملحمة وداع ٢١
بين الحراب والمحراب ٢٩

الباب الأوّل: كذلكم أم جعفر ٣٣
مع أميرة الأحزان ٣٥
آل الصدر.. الجذور والتاريخ.................................. ٣٨
لوعة أمي ٥٣
دار البتوليّات ٦٢
موسم النضج في عمري ٧٢
في حريم الانتظار.. ٧٨
على أعتاب المحبوب.. ٨٢
نذرٌ وتباشير ٨٧

فهرس المحتويات ٢٨٧
إلى ربوة ذات قرار ٩٧
في لبنان.. الْتقيت الشهيد ١٠٨
تحت أفياء الشهيد في العراق ١١٨
مع الشهيدة بنت الهدى ١٢٩
أم الشهيد.. تلك الثكول ١٤٤

الباب الثاني: الشهيد كما تقرأه أم جعفر ١٥٩
الشهيد في مجتمع النجف الأشرف ١٦١
الشهيد في داخل بيته ١٦٩
رحلة إلى الله ١٧٧
في رحاب البيت العتيق ١٨٤
الشهيد والمرجعية الرشيدة ١٩٢
الشهيد الممتحن ٢٠٢
أيام السوافع ٢١١
فصل من فصول الطف ٢٢١

الباب الثالث: أم جعفر في وجه البلاء ٢٣١
في الكاظمية.. استنهر البلاء ٢٣٣
شهيداً.. قضى نحبه ٢٣٧
جدب ما بعد الشهيد ٢٤٣
النجف.. مرة أخرى ٢٥٣

أيام القمطرير ٢٥٧
أمهلهم رويداً ٢٦٤
يوم العراق.. يوم الصدر ٢٦٧
الملحقات ٢٧١
ملحق (١): قصة نقل جثمان الشهيد ٢٧٣
فهرس المحتويات ٢٨٦
ملحق (١): صور ٢٨٩

السيد صدر الدين الصدر عم السيد الصدر

السادة موسى ورضا وصدر الدين

الشيخ مرتضى والشيخ محمد رضا والشيخ راضي آل ياسين

أخوال السيد محمد باقر

السيد موسى الصدر والسيد عبد الهادي الشيرازي والسيد اسماعيل
أخو السيد محمد باقر

سيد الشهيد مع العلامة الشيخ محمد جواد مغنية (رحمهما الله)

الشهيد الصدر مع ابن عمه الإمام موسى الصدر

الشهيد مع أخيه آية الله سيد إسماعيل الصدر وجمع من المؤمنين في الكاظمية

الشهيد السيد الصدر مع عديله السيد صدر عاملي وجمع من طلبته

الشهيدة بنت الهدى
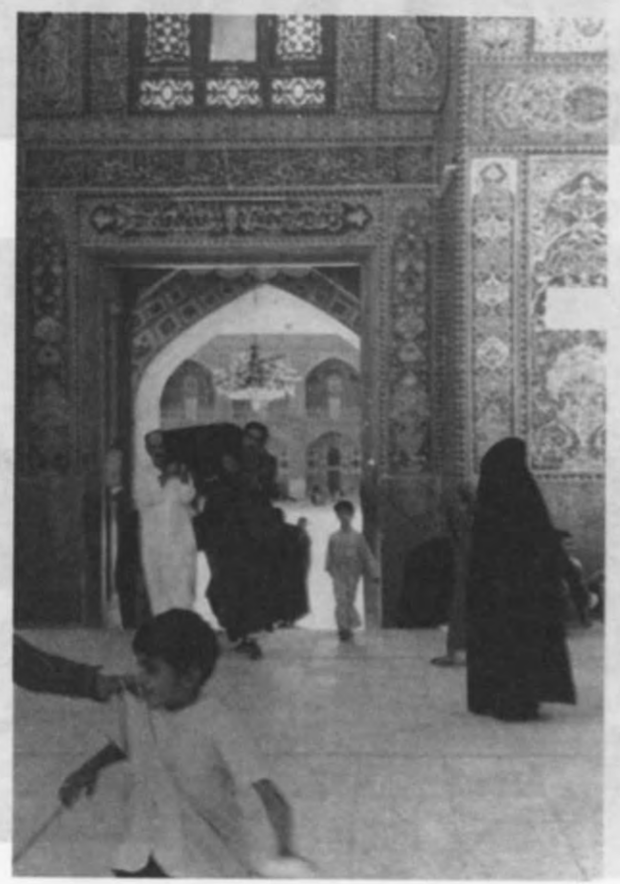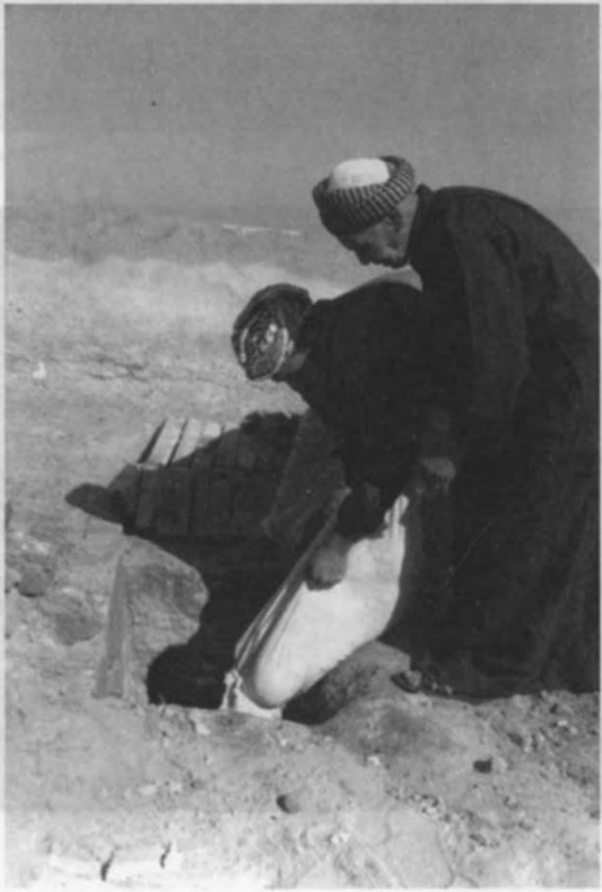
الشهيدة بنت الهدى في الحج